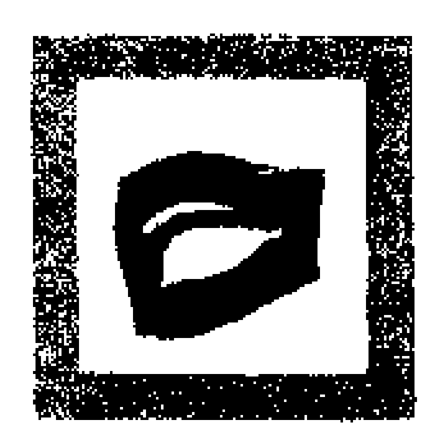
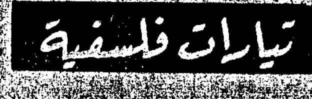


العدد ٥٦ أكتوبر ١٩٦٩

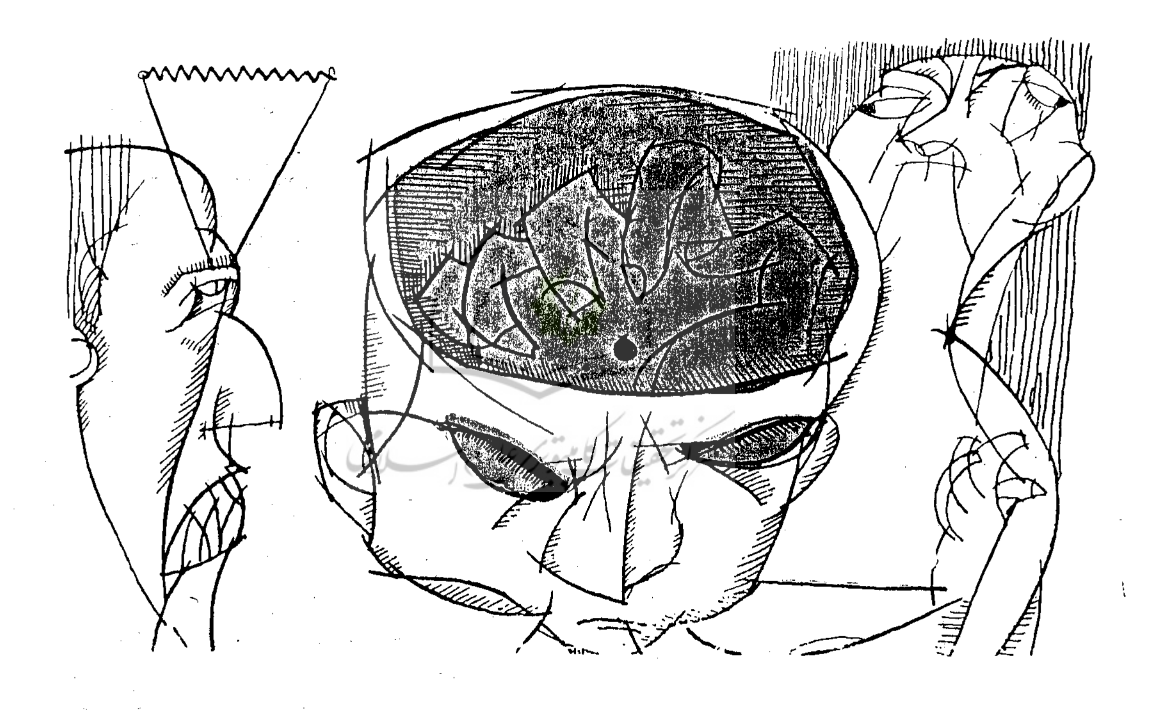
العدد
السادس والخمسون
اكتوبر ١٩٦٩



الاشتراكية.. والقيم الروحية

د. فؤاد زكريا

مكتبتنا العربية



فى أذهان كثير من المثقفين تصور للعلاقة بين الاشتراكية والقيم الروحية أود أن أعلن ، منذ بداية هذا المقال ، أننى أرفضه من أساسه ، بل اننى ماكتبت هذا المقال الا لكى أفنده وأثبت أن الاعتقاد النظرى به ينطوى على استحالات ومتناقضات عقلية ، على حين أن التطبيق العملى له يجر وراءه من التشتت فى السلوك ، والتردد والتعثر فى العزم والقصد ، مالا تملك أمة تسعى الى الأخذ بأسباب النهوض أن تترك نفسها فريسة له .

هذا التصور الذى أعترض عليه يمكن التعبير عنه ، فى صيغة موجزة ، بقولنا : ان الاشتراكية والقيم الروحية تسيران جنبا الى جنب حتى مرحلة معينة ، ثم تفترقان بعد ذلك . وبعبارة أخرى ، فالاشتراكية تظل غير متعارضة مع القيم الروحية مادامت معتدلة ، أما اذا تطرفت ، فانها ترفض هذه القيم الروحية ، ويفترق طريقاهما الى الأبد .

وتجد هذه الدعوى تأييدا قويا من ذلك الميل الطبيعى فى نفوسنا الى قبول شكل من أشكال « نظرية الوسط » التى وضعها أرسطو فى

الاخلاق ، والتى تعبر عن نفسها فى امثال شعبية مثل ((**خير الأمور الوسط**)) . هذه النظرية تذهب الى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين : كالشجاعة التى هى وسط بين الجبن والتهور . اى أن هناك خطا ممتدا ، يتميز بالاشتداد والتكثيف التدريجى لصفة ما ، وهذا الخط يبدأ من رذيلة وينتهى الى رذيلة ، بينما تقع الفضيلة فى موقع ما عند الوسط أو بالقرب منه . وعلى ذلك فان الافراط في الفضيلة ، شأنه شأن التفريط فيها ، ينقلب الى رذيلة . وبهذا المعنى يكون الافراط فى الاشتراكية ــ تبعا لهذا الرأى الشائع ــ رذيلة تؤدى الى ضياع القيم الروحية والتنكر لها .

ولعل أول ما ينبغى أن نشير اليه ، ونحن فى معرض مناقشة هذه الدعوى ، ان مبدأ « خير الأمور الوسط » ليس مبدأ مطلق الصحة فى كل الأحوال . ففى حالة فضائل معينة ، لا تكون الحالة المثلى على الاطلاق هى أن يكون لدينا من هذه الفضيلة قدر معقول فحسب . فهل الأفضل ، مثلا ، أن يكون المرء معتدلا فى نزاهته أم مفرطا فيها ؟ وهل المجتمع الأمثل هو ذلك الذى يسوده قدر معقول من العدالة ، أم عدالة كاملة بلغت أقصى حدود « التطرف » ؟ وهل يعد الغش صفة يستحسن ان يكون لدى الانسان « قدر » منها ، مهما كان بسيطا ، أم أن التفريط الكامل فى هذه الصفة أمر مستحب ؟ من الواضح أن « نظرية الوسط » لا تسرى آليا على كل الفضائل ، وأن هناك صفات معينة يكون المرء اكمل من غيره لو أنه تحلى بأكبر قدر ، أو بأقل قدر منها .

وعلى الرغم من أن هذه المناقشة لا تتصل اتصالا كاملا بالموضوع الذى نعرض له فى هذا المقال ، فان بلوغها بنا الى هذه النتيجة يمكن أن يكون مقدمة مفيدة غاية الفائدة ، تساعد على تحقيق الهدف الذى نرمى اليه . ذلك لأن الكثيرين منا يعتقدون أن مبدأ « خير الأمور الوسط » هو مبدأ يصدق بصفة آلية على كل شيء ، ولا يتصورون ان هناك « أمورا » معينة ينبغى على الانسان الا يكتفى فيها بالوسط . أوهم ، بتعبير آخر ، لا يدركون ان اتخاذ الموقف الوسط ، أو التزام جانب الاعتدال ، فى أمور معينة ، يعنى مهادنة الشر والرذيلة ، والتخلى عن قدر كبير من الفضيلة ، هو ذلك القدر الذى نتركه جانبا بحجة أنه يمثل حد « التطرف » .

ولو نظرنا الى الاشتراكية بمعنى أنها ((العدالة الاجتماعية » تظهر بوضوح انها واحدة من تلك الامور التى لا يكفى فيها اتخاذ الموقف الوسط ، اذ أننا جميعا ، دون شك ، نود أن يتحقق من العدالة الاجتماعية أعظم قدر يمكن تحقيقه ، ونحس بقصور سلوكنا لو أننا اكتفينا منها بحد « الاعتدال » وتعمدنا الا نحققها كاملة حتى لا نصل الى حد ((التطرف)) . فكيف اذن يقال ان هذا التحقيق الكامل لمطلب أساسى عزيز على الانسان ، يتعارض مع القيم الروحية ؟ وكيف شاع ــ بين كثير من مفكرينا العرب على وجه الخصوص ــ ذلك الاعتقاد الذى تصبح فيه الاشتراكية أشبه ما تكون بالخمر ، قليل منها يصلح « معدة » المجتمع ، وكثير منها يفسد المجتمع ويصيبه بعلل أولها فقدان الاحساس بأهمية القيم الروحية التى هى أسمى غاية يتطلع اليها البشر ؟

ان المرء لا يحتاج الى تفكير طويل لكى يدرك أن **هناك فئة من القائلين بالتعارض بين الاشتراكية ــ اذا تطرفت ــ وبين القيم الروحية ، لا تؤكد هذه الفكرة الا لأنها كارهة ، أصلا ، للاشتراكية.** هذه الفئة لا تستطيع أن تجهر بالعداء لمبدأ الاشتراكية حين يصبح هذا المبدأ سياسة رسمية للدولة ، فيكون الحل الذكى الذى تلجأ اليه هو أن تحد من نطاق الاشتراكية ما استطاعت الى ذلك سبيلا . وابسط وسائل هذا الحد هو أن تؤكد اصرار « التطرف » ، وتقيم تعارضا مزيفا بينه وبين القيم التى يعتز بها المجتمع ، **وبذلك تضمن أن المبدأ الذى هى فى صميمها كارهة له كراهية شديدة ، وان كانت غير معلنة ، قد ظل حبيس اطار محدود لا يخرج عنه** ، وتضمن فى

الوقت ذاته أنها ، بدعوتها هذه الى تقييد المبدأ الذى تبغضه ، قد اتخذت مظهر المدافع المخلص الغيور عن أسمى ما يملكه الانسان من قيم .

ولكنى لا أود أن أتريث طويلا لمناقشة موقف أمثال هؤلاء المفكرين . ذلك لأن المعارضة الصريحة للاشتراكيه اشرف ، فى رأيى ، من ذلك الالتفاف من حولها بغيه طعنها من الخلف . والمعارض الصريح ، وان كان يرتكب خطأ عمليا أفدح ، يتسم على الاقل بمستوى اخلاقى أرفع من مستوى هؤلاء الأعداء المتنكرين فى ثياب الاصدقاء ، فضلا عن أنه قابل للاقتناع اذا كان أمينا ، واذا لم تكن لعدائه اسباب خفيه مرتبطة بالمصالح الشخصية . ومن هنا فانى أود أن اتوجه بحديثى الى المعارضين الأمناء ، لا المنافقين ، وان أناقش معهم ذلك المبدا الذى يأخذونه قضية مسلما بصحتها ، مبدأ التعارض بين القيم الروحية وبين الاشتراكية ، اذا سارت حتى آخر مدى يمكن تصوره لها .

ما هى « الروحانية » ؟

ان قدرا كبيرا من سوء الفهم يرجع الى الافتقار الى الدقه فى تحديد معنى «الروحانية» . فالكثيرون يتصورون ان الروحانيه هى الاعتراف النظرى بعقيدة معينة ، وأداء شعائرها وطقوسها . مثل هذا المعنى شكلى بحت ، وهو لا يمثل الا السطح الظاهرى مما تدل عليه الروحانية الصحيحة . وقد يظن من يعترف نظريا بمثل هذه العقيدة ، ويؤدى شعائرها ، أنه قد حقق بذلك القيم الروحية فى نفسه . ولكن هل من الصحيح أن مثل هذا المسلك يوفى القيم الروحية حقها ؟

ان أبسط تفكير يقنعنا بأن الروحانية هى ، قبل كل شىء ، جهاد وكفاح ومغالبة . وذلك الذى يقتصر على الاعتناق الشكلى للعقائد لم يكافح ولم يغالب شيئا . ولو وضعت مصالحه الحقيقية فى كفة ، وجوهر عقيدته فى كفة اخرى ، لسعى بكل قواه الى ترجيح الأولى . **على أن جانب الخطورة لا يتمثل فى الوجه الفردى لهذه الظاهرة ، بل يكمن فى وجهها الاجتماعى . ذلك لان المجتمع بدوره يقر مثل هذا السلوك ويعده أمرا طبيعيا لا غبار عليه .** خذ مثلا ذلك التاجر الذى يؤدى فروض الدين كلها كأحسن ما يكون الأداء ، ثم يعلم أن بضاعة مختزنة لديه قد شحت فى الأسواق ، فلا يتردد لحظة واحدة فى رفع سعرها ، مثل هذا السلوك الفردى ينطوى على تجاهل تام للروحانية الحقيقية ، **ولكن الأهم من ذلك أن المجتمع لايجد فى هذا المسلك مأخذا .** فسلوك هذا التاجر ، فى نظر المجتمع ، مشروع ما لم يكن الأمر متعلقا بسلعة محددة السعر ، وهو فى نظر معارفه دليل على الفطنة وبعد النظر ، ولا تعارض بينه على الاطلاق وبين المظهر « الروحى » الخارجى الذى عرف به صاحبه بين الناس .

على أن هذا الفهم الباطل للروحانية قد اتخذ فى عالمنا المعاصر مظهرا أخطر بكثير ، هو **المظهر الأيديولوجى** ، الذى أصبحت فيه الروحانية وسيلة لمقاومة الاشتراكية فى صورتها المكتملة . وهذا المظهر الأيديولوجى هو الذى ينبغى التنبه اليه وتحليل أسبابه وتحديد مدى البطلان فيه .

ذلك لأن من أعجب المفارقات فى عالمنا المعاصر أن الدفاع عن القيم الروحية أصبح هو الشعار الذى تنادى به أشد النظم الاجتماعية اغراقا فى الماديات ، وأبعدها عن كل ما تسمى به الروح وتزهو به الفضيلة والاخلاق . ففى عالمنا هذا تتكرر ، مرة أخرى ، قصة التاجر الذى يسرق عملاءه ، ويظهر أمامهم برغم ذلك ، بمظهر الغيور على التقوى والايمان . فكيف وصل فكرنا الى الوقوع راضيا فى مثل هذا التناقض ؟

اننا نعلم جميعا أن أشد الدول الرأسمالية اغراقا فى استغلال الانسان ، داخل بلادها وخارجها ، وفى العدوان **على كل القيم التى تعتز** بها البشرية ، تتباكى من الوجهة الأيديولوجية على القيم الروحية التى تقضى عليها الاشتراكية

المتطرفة ، وتعان على البسطاء والسذج ان هذه القيم لا حياة لها الا فى ظل نظامها الاجتماعى والاقتصادى الخاص . **وفى كل يوم يتفاخر الدعاة الايديولوجيون لنظام الرأسمالى بتميزهم عن « الماديين » من الاشتراكيين ، ويتباهون بأن « الروحانية » لا حياة لها الا بين ظهرانيهم ،** وربما عقدوا مخالفات صريحة أو ضمنيه مع هيئات دينية ــ كالكنيسة الكاثوليكية مثلا ــ يضفون بها على هذه المزاعم بركة « سماوية ».

وانك لتجد الجندى الامريكى يقتل النساء والاطفال فى فيتنام ، ويرمى القنبلة الذرية فى هيروشيما ، وينقض على ثورات التحرر فى امريكا اللاتينية ، ثم يذهب الى الكنيسة يوم الاحد راضيا ، دون أن يشعر بوجود أى تناقض بين هذا المسلك وذاك . وقد يكون هذا نفاقا تمليه المصالح الخاصة لشعب او لنظام اجتماعى معين، ولكن العجيب حقا هو أن تبادر هيئات دينية واسعة النفوذ الى الاعتراف بأن القيم الروحية لا تجد من يحميها الا بين انصار النظام الاجتماعى الذى يرتكب كل هذه الشرور ، **والأعجب من هذا وذاك أن يصدق هذه المزاعم قطاع لا بأس به من الرأى العام فى العالم ، بل وفى عالمنا العربى بدوره ، فيسلم بالتعارض بين القيم الروحية وبين الاشتراكية المكتملة التحقق .**

ولكى تكتمل لدينا صورة الزيف الفكرى الذى يسيطر على اذهان كثير من الناس فى عالمنا المعاصر ، ينبغى أن نتأمل نماذج من سلوك أولئك الاشتراكيين «المتطرفين» ، الذين يشيع وصفهم بأنهم أعداء للقيم الروحية ، وبانهم لا يبنون سلوكهم الا على أساس من المادية اللا انسانية .

خذ مثلا سلوك شعب فيتنام . **أيشك أحد فى أن البطولات الأسطورية التى يسجلها هذا الشعب الصغير ضد أعتى جهاز عسكرى وحربى عرفه الانسان طوال تاريخه ، هى انتصار قاطع وحاسم للروح على المادة ؟** ان السلاح الحديث، الوفير ، الذى تدعمه أعظم البحوث العلمية ، والأموال التى تصل الى أرقام فلكية ، والثراء ، وكثرة العدد ، وضخامة الاجسام ، وحسن التغذيه ، والعقول الالكترونية ، كل هذه تقف عاجزة خائرة أمام شعب فقير ، ضئيل العدد ، قليل العدة ، يحيا حياة ريفية بسيطة ، ولا يعتمد فى تدبير اموره الا على موارد شحيحة لا تكفى سكان بلدة متواضعة فى أشد ولايات امريكا تأخرا .

فما هى القوة التى تحرك الجسد النحيل الهزيل لتجعله يصرع أضخم جبابرة الارض ؟ أيستطيع أحد أن يزعم لحظة واحدة أن قوة المادة هى التى تمنح الفيتنامى القدرة على الصمود والانتصار على أشد أجهزة القتل والدمار كمالا ، وتعطى عقله البسيط المباشر مقدرة التفوق على أدهى ما تتفتق عنه أذهان محترفى العسكرية ، مقترنة بأعقد خطط العقول الالكترونية ؟ **ان الفيتنامى الفرد ، فى هزاله وضآلة جسمه وفقره وبساطة حياته ، ما هو الا كتلة متحركة من القيم الروحية** ــ بأرفع ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معان ــ تقف باصرار وإباء امام جبروت المادة وتقهرها دون عناء ، **لأن الروح المتفانية أقوى ، فى نهاية الأمر ، من كل مادة فجة غاشمة .**

وقل مثل هذا عن أفراد كثيرين عاشوا فى عالمنا هذا مثالا للتفانى فى سبيل اسمى ما تعتز به البشرية من القيم : **هوشى منه ،** الذى يأبى الا ان يكون عظيما حتى بعد لحظة مماته ، فيطلب فى وصيته الا يقام له الا جنازة بسيطة قصيرة، « حتى لا يكون فى ذلك مضيعة الجهد والمال »!


ش . جيفارا

وجيفارا ، الذى يأخذ على عاتقه تحقيق رسالة الثورة ضد الظلم في كل مكان ، ويترك جاه الحكم ونفوذه ونعمه جانبا ليعود مرة أخرى مناضلا بسيطا يحارب فى أقسى الظروف التى يمكن أن يتصورها انسان .

ومع ذلك فان هؤلاء المناضلين جميعا ، الأفراد منهم والجماعات ، يمكن ان يحسبوا ، فى نظر البعض ضمن « خصوم » القيم الروحية ، لانهم يؤمنون بنوع من الاشتراكية « المتطرفة » التى يعدها الكثيرون متعارضة مع تلك القيم . **فهل هناك دليل أبلغ من ذلك على ضيق نظرة هؤلاء الى القيم الروحية وقصور فهمهم لمعناها ان من** هؤلاء من هم مخلصون ، بلا شك ، لمعنى الروحانية ، حريصون على توطيد أركانه ، ولكن ما أجدر هذا الفريق بأن يراجع تفكيره فى هذا الأمر مراجعة شاملة ، وأنا على ثقة من أنه لو فعل فسوف يتبين له أنه ضيق من نظرته الى الروح والى قيمها أكثر مما ينبغى ، وأنه أخرج من مجالها أنواعا من السلوك لا يستطيع أحدا أن يشك فى صدورها عن دوافع روحية خالصة .

بين الخبز والروح :

ان شعار « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان هو الكلمة السحريه التى يرددها أنصار ((القيم الروحية)) بمعناها الضيق ، ويزعمون أنهم يفحمون بها خصومهم ، ويثبتون حرصهم على انسانية الانسان . وردا على هذا الشعار ، أكد الكثيرون أنك لا تستطيع أن تقنع به الفقير الجائع الذى تدور معدته فى خواء . فهل يعنى ردهم هذا أنهم ينكرون أن فى الحياة الانسانية ما هو أسمى من الخبز ؟

الحق أن مشكلة العلاقة بين الاشتراكية والقيم الروحيه انما يكمن حلها فى الرد على هذا السؤال البسيط . ذلك لان الانسان لا يحيا حقا بالخبز وحده ، ولكنه لا يستطيع أن يطبق هذا المبدأ الا حين يتوافر لديه الخبز . **وهذا هو لب الموضوع .** فحين يعز الخبز على الانسان يصبح هو الغاية القصوى ، بل الوحيدة ، لكل سلوك يقوم به . وتلك بلا ريب حالة من الضعة اشبه ما تكون بحالة الحيوان الأعجم . ومن عجيب أمور الفكر البشرى ان ذلك الذى يدعو الى توفير الخبز للجميع انما يهدف الى أن يرتفع

بالانسان فوق مستوى التفكير الدائم فى الخبز والانشغال الذى لا ينقطع به ، حتى يستطيع ان يتفرغ لما هو ارفع منه ، على حين ان ذلك الذى يؤيد — فى ترفع وتسام — ان الانسان يحيا بما هو اسمى من الخبز ، قد تؤدى دعوته هذه الى ان يتجاهل الناس مشكلة الخبز ، فتكون النتيجة ان يظلوا أسرى لها الى الابد ، ويعجزون بالتالى عن بلوغ مستوى الخبز ومستوى ما فوق الخبز معا .

ولو شئنا أن نترجم هذا الكلام الى اللغة الفلسفية ، لقلنا **ان الدفاع عن المادة كثيرا ما يكون ، فى حقيقته ، دفاعا عن الروح بمعناها الحق ، على حين ان الدفاع عن المثل الروحية كثيرا ما يحمل ، بين طياته ، اشد النزعات المادية عنفا وقسوة . ومن المؤكد أن لفظى ((المادية)) و « المثالية » مسئولان عن قدر كبير من المغالطات التى يعيش الانسان المعاصر ضحية لها .**

ذلك لأن لكل من هذين اللفظين معنى عقليا خالصا ، أو نظريا فلسفيا ، ومعنى آخر عمليا او أخلاقيا . **وفى تفكير معظم الناس خلط دائم بين هذا المعنى وذاك .** فحين يتحدث أحد عن المادية ، بالمعنى النظرى الفلسفى وحده ، ينصرف الذهن تلقائيا الى المادية بمعناها الأخلاقى ، وهى شىء قبيح ينفر منه كل انسان لديه ذرة من حب الخير والجمال . وحين يتحدث آخر عن المثالية ، بمعناها العقلى البحت ، ينصرف الذهن أيضا الى المثالية بمعناها الأخلاقى ، وهى شىء رائع يسعى اليه كل من يقدر القيم الرفيعة .

ومع ذلك فان تاريخ الفكر البشرى حافل بأمثلة الفلسفات التى جمعت ، دون اى تناقض ، بين المادية النظرية والمثالية العملية او الأخلاقية ، والفلسفات التى ارتبطت فيها مثالية الفكر النظرى بأقبح مظاهر المادية فى السلوك العملى . وتكاد هذه أن تكون قاعدة مطردة ، أو قانونا يحكم العقل البشرى ، ومع ذلك فما أسهل المغالطة حين يكون الأمر متعلقا بالجمع بين معان بلغت كل هذا الحد من التضاد !

على أنه ، اذا كان هذا هو الأصل الفلسفى للفهم الباطل لمعنى الروحانية (التى هى وثيقة الارتباط بالمثالية) ، فاننا لا نجد أنفسنا بحاجة الى الخوض فى أعماق بحر الفلسفة كيما ندرك أن **((الدفاع عن الروح)) قد اسىء فهمه ، وأسىء استخدامه ، فى عالمنا هذا الى حد يؤدى الى الحاق أفدح الأضرار بقضية الروح ذاتها .**

ولا اشك لحظة فى ان الأمثلة الملموسة التى قدمتها فى موضع سابق من هذا المقال ، كفيلة — اذا ما تعمقنا فهم دلالتها — بتنبيه هذه الأذهان الى خطورة الالتباس الذى وقعت فيه .

ان فهمنا لطبيعة القيم الروحيةومجالها يحتاج الى مراجعة جذرية ، تؤدى بنا الى ألا نقتصر على المعنى الشكلى لهذه القيم ، بل نضم اليه اهم المعانى جميعا ، وهو المعنى الجوهرى للروح . والحق أننا لو شئنا أنموذجا صارخا ، فى هذا العالم الذى نعيش فيه ، للفهم الشكلى للروحانيات، لكان هذا الانموذجهو **الايديولوجية الصهيونية** . فهذه الايديولوجية ترتكز على الاستمساك المريض بحرفية عقيدة تعتقد أنها هى وحدها العقيدة الروحية المقدسة ، وكل ماتقدمه هذه الأيديولوجية لتصرفاتها من تبريرات يرتكز على دعائم من هذه العقيدة الروحية . ومع ذلك ، **فما أعظم التباين بين ادعاء الدفاع عن عقيدة روحانية ، وبين المسلك الاجرامى الذى تحبذه هذه الأيديولوجية وتدفع أنصارها الى القيام به دون وازع من مبدأ أو**



هوشى . منه



ضمير . ومنذ ان كانت لليهود حياة متميزة محددة المعالم ، كان هذا الازدواج العجيب بين التمسك بالعقيدة وبين الجرى اللاهث وراء الماديات ، هو السمة المميزة لحياتهم . وما هذه ، فى رأيى ، سوى النتيجة القصوى للتمسك الشكلى البحت بالروحانية ، دون اكتراث بجوهرها ومعناها العميق .

ان القيم الروحية ، اذن ، ليست شكلا فارغا أو اطارا من الشعائر والأقوال التى تتردد آليا على الألسن ، بل هى قبل كل شىء سلوك عملى فى الحياة . والحريص حقا على القيم الروحية ليس ذلك الذى يردد ألفاظا أو يؤدى طقوسا ، بل هو ذلك الذى يثبت بسلوكه فى الحياة أنه يتخذ لنفسه هدفا رفيعا ، ويضحى من أجل تحقيقه بكل ما يملك .

أمام ثانى الأخطاء التى ينبغى أن تؤدى بنا التفكير الجاد فى هذه المشكلة الى التخلص منها ، فهو الاعتقاد بأن القيم الروحية لا تعدو أن تكون تراثا قديما يتعين علينا أن نحتفظ به سليما . ذلك لأن القيم الروحية ، وان تضمنت هذا العنصر من غير شك ، تتجاوز هذا النطاق بكثير : فهى فى أساسها خلق متجدد فى ميدان العمل ، وهى مرشد يهدينا فى محاولتنا بناء مستقبل أفضل ، وليست مجرد أثر من آثار الماضى يتعين علينا أن نكرس حياتنا لحمايته من عوادى الزمان . ان القيم الروحية تختنق لو أصبحت مجموعة من المبادىء الموروثة ، وتحيا وتزدهر اذا استحالت الى قوة دافعة توجه المرء فى حاضره ومستقبله . وان يخدم القيم الروحية فى شىء ذلك الذى يقتصر على اختزان مبادىء التراث فى صندوق مقفل خشية أن تمتد اليها يد لتختطف منها شيئا ، بل ان خادمها الحقيقى هو ذلك الذى يجددها ، ويخلق منها المزيد فى كفاحه من أجل حياة أفضل للناس جميعا .

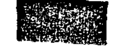
لو قمنا بهذه المراجعة ، بصدق واخلاص ، لما عاد هناك تعارض بين الاشتراكية ، أيا كان المدى الذى تبلغه ، وبين القيم الروحية ، ولاختفى نهائيا ذلك الوهم الذى صور لبعض الناس أن هذه القيم تمسك بيد الاشتراكية حتى منتصف الطريق — وربما ربع الطريق أو عشره — ثم تفترق عنها الى غير رجعة .

فؤاد زكريا

● لم يكن غرض ياسبرز من تفسير نيتشه تفسيرا مسيحيا دفاعا عنه وارجاعا له الى حظيرة المسيحية ، بل دفاعا عن المسيحية التاريخية ضد هجمات نيتشه عليها مع أن نيتشه لم يبغ الا تصفية الايمان مرة واحدة والى الأبد .



بين ياسبرز ونيتشه







د . حسن حنفي

يحق لنا أن نتساءل : لم خصص ياسبرز جزءا كبيرا من جهده على فترات متباعدة من حياته لدراسة نيتشة أكثر من مرة ؟ بل ولا يخلو مؤلف من مؤلفاته من اشارة اليه بالتأييد أو على الاقل تدل على تقدير ياسبرز له ومعرفته إمكانته فى الفكر المعاصر . هل يؤمن ياسبرز بالفعل وهل يقدر رسالته ودعوته أم أنه **يتسلق عليه ليحتويه وليقضى على جدته وليميع مواقفه** وبذلك يصبح ألد أعداء المسيحية أشد أصدقائها ، ويتحول أكبر داعية للالحاد الى أكبر نصير للايمان ، ويصير فيلسوف القوة وارادة الحياة والانسان المتفوق فيلسوف الخضوع والاستسلام والتبرير ؟

مؤلفات ياسبرز عن نيتشة :

كتب ياسبرز عن نيتشة كتابين : الأول « **نيتشة** » سنة ١٩٣٦ وهو كتاب ضخم يتسم بالموضوعية والتأريخ الدقيق لحياته وفلسفته مما يثير فى القارىء الملل والسأم ، **يحاول** فيه **احتواء نيتشة وتفريغه من مضمونه الثورى** فى تصوره للحياة وللعقيدة ، والثانى « **نيتشة والمسيحية** » سنة ١٩٤٦ وهو كتاب صغير يكشف فيه ياسبرز عن نيته صراحة من هذا الحوار المستمر مع نيتشة وهو **اعادة تفسير نيتشة تفسيرا مسيحيا واعتبار فلسفته نتيجة لدوافع مسيحية اصيلة :** غرض ياسيبرز من دراستيه اذن هو انقاذ المسيحية من الد اعدائها ثم تحويله الى أشد أنصارها **وبذلك يقلب** الحق باطلا والباطل حقا . ويقوم بهذه المهمة أشد أنصار



المسيحية فى التفكير المعاصر ، ويتم له ذلك عن طريق تمييع فلسفة نيتشة **فى مذهب متسق مع نفسه** وعرض تحليلاته للانسان ونظراته فى الحقيقة وآرائه فى العصر الحاضر والسياسة وتفسير العالم فى صورة أفكار ونظريات متسقة حتى يتحول الثائر من عاصفة على العصر الى فيلسوف يؤلف مذهبا أكثر مما هو « **شوكة فى البدن** » على مايقول كيركجارد . ولكن يبدو أن ياسبرز قد فشل فى محاولته لأنه **قام بدراسة** نيتشة **بمنهج الطبيب النفسى القديم** الذى اتبعه فى « **علم النفس المرضى العام** » سنة ١٩١٣ مع أنه قد مارس العمل الفلسفى بعده فى « **علم تصـورات العـالم** » سنة ١٩١٩ (وكان ما زال مشوبا بعلم النفس) **وفى الفلسفة** باجزائها الثلاثة الكبار سنة ١٩٣١ . اعتبر ياسبرز نيتشة **حالة مرضية تقريبا** (وقد لاحظ ذلك أيضا حين قال في تقديمه للمترجمة الفرنسية للكتاب) وخصص لحياته ومرضه حوالى

ربع الكتاب حتى يقضى على عقلانية مذهبه وحتى يوحى بأن دعوة نيتشة هى مجرد صدى لأزماته النفسية وأمراضه العصبية والبدنية ولجنونه الأخير لا تحليلا لواقع العصر والثورة عليه . وقد فشل الكتاب أيضا من حيث منهجه فى التأليف اذ أنه يضم مجموعة هائلة من النصوص ربط ياسبرز بينها بعبارة أو بعبارتين كما يفعل طلابنا فى أوائل سنوات دراستهم الجامعية عندما يظنون أن مادة البحث هى البحث نفسه ولا يفرقون بين مادة البحث واخراج مدلولاتها. جمع ياسبرز أكبر عدد ممكن من «الفيشات» حول الموضوعات الرئيسية في فلسفة نيتشة وربط بينها حتى أصبح من الصعب قراءة الكتاب أو تتبعه ، ويعترف ياسبرز فى سيرته الذاتية بأن كتابه كان دراسة تاريخية محضة مع أن مايهمه كان الفلسفة لا التاريخ (١٨٦) . ولكن ما أن طغى هذا الخضم الكثيف من النصوص والوثائق على الهدف المزدوج المتناقض من تعامل ياسبرز مع نيتشة وهو تفسير نيتشة كحالة مرضية وفى نفس الوقت اثبات أن نيتشة فيلسوف صاحب مذهب وتبرير نظرياته فى صور متوازنة ومتعادلة حتى كشف ياسبرز عن غرضه الحقيقى من هذا الحوار فى كتابه الصغير عن « نيتشة والمسيحية » والذى يثبت فيه ببساطة تامة - مع الالتجاء الى بعض النصوص المتفرقة - أن نيتشة فى فلسفته كان يتبع دوافع مسيحية أصيلة وبالتالى فما يظنه الناس ألد أعداء المسيحية هو فى الحقيقة أحد أبنائها المخلصين !

ويكشف منهج ياسبرز فى كتابه الكبير « نيتشه » عن قصده وذلك باعلانه أن فهم الفيلسوف يتطلب رؤيته من خلال وجهات من النظر أكثر اتساعا وشمولا بحيث يمكن أن تضم وجهات نظر الفيلسوف الجزئية ، أى أن ياسبرز يريد ان يلم شتات نيتشة المبعثر حتى يعطينا تفسيره النهائى من وجهة نظر أشمل وهو نيتشة المؤمن بالرغم مما يصف به نيتشة نفسه من الحاد واعلان لموت الله . ويعتمد منهج ياسبرز هذا على مايسميه « التفسير الموضوعى من خلال الشخصيه التى تفهم » الذى يقوم على التسليم بدرجات متفاوتة فى الفهم أو بدرجات مختلفة فى العمق كما هو الحال فى تأويلات الصوفية والباطنية . فالحقيقة لها درجات : ان كان الظاهر هو الحاد نيتشة فقد يكون الباطن هو ايمانه ، وان كان الظاهر هو رفض نيتشة للعلو فقد يكون الباطن هو رغبته الكامنة فى اثبات هذا العلو ، أى أن الحقيقة بها التباس أو اشتباه أو غموض، فهى جمالة أوجه ، وبهذا المنهج يستطيع ياسبرز ان يقلب الحق باطلا والباطل حقا بدعوى تفسيرات على درجات متفاوتة من العمق ، وعلى هذا النحو يحق لياسبرز أن يحول السلب الى ايجاب والايجاب الى سلب ، فكل حكم سلبى يقوم على حكم موجب . فمثلا « ان الله قد مات » قد تعنى « ان الله حى » لأن نفى الله معناه خلقه من جديد بصورة أخرى . ويجد ياسبرز نصا لنيتشة يؤيده فى منهجه هذا اذ يقول نيتشة « يسمون ذلك (موت الله) تحلل الله من نفسه ، ولكنه عندما يحرك ... ستروله فوق الخير والشر (نيتشة ص ١٢٤) ومن ثم يجعل ياسبرز السلب هو الايجاب ، والتحلل هو الخلق ، والاعدام هو الانتاج .

يرفض ياسبرز التفسيرات الفلسفية والتاريخية والرمزية والنفسية لنيتشة ويطالب بتفسير يبنى النشاة génétique أى بتفسير يبدأ بنواة ينسج حولها حتى يتم اعادة بناء فكر الفيلسوف ، ولا يفترق هذا الفسير كثيرا عن التفسير النفسى الذى يجعل للأشياء ظاهرا وباطنا أو الذى يجعل لكل فكرة أساسا نفسيا . يؤدى التفسير النفسى الى تأكيد أن نيتشة لم يكن له أتباع وأن تابع نيتشة هو من يتبع نفسه : « كن انت لنفسك » فقد سمى نيتشة نفسه « عبقرى القلب » لانبيا لدين أو داعيا لطائفة أو مؤسسا لفرقة ، وبالتالى لن يفهمه الا عباقرة القلب مثله. يجعل ياسبرز نيتشة فريدا ، وحيد عصره ليس كمثله أحد استثناء ، حتى يجعل فلسفته هى شخصه وتتحول الفلسفة الى صناعة للتماثيل ! ولا يتحدث ياسبرز كثيرا عن نظريات نيتشة فى فقه اللغة والتى جعلت من نيتشة أستاذا لفقه اللغة وهو فى الرابعة والعشرين ولكنه يطيل الحديث عن عزلته وشذوذه ومرضه وجنونه حتى يضعف الثقة فى آرائه أو على الأقل يجعل أعماله تعبيرا عن أزماته النفسية وأمراضه البدنية (مرض عضوى فى المخ أدى به الى الشلل) ويجعل محور فلسفته « ان الله قد مات » تعبيرا عن احدى نوبات الجنون ! مع أن هذه القضية هى الحدس المسيطر على أعمال نيتشة الأخيرة اذ يقول « اما ان يميتنا هذا الدين أو نميت نحن هذا الدين » وانى أومن بهذه العبارة التى قالها قدماء الجرمانيين : « يجب ان تموت جميع الآلهة . (نيتشة ص ٢٤٧ ، كما يقول أيضا « أين هو الله ؟ ساقول لكم ، لقد قتلناه أنا وأنتم ! » يجعل ياسبرز الحاد نيتشة الحادا ذاتيا وجوديا نتيجة لازمة نفسية لا الحادا موضوعيا نتيجة لتدليل الطبيعة كما هو الحال فى عصر التنوير فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، بل ان ياسبرز يجعل الحاد نيتشة ايمانا مقنعا لانه بحث عن اله العصر والقوة والحياة والانسان المتفوق .

ويدافع ياسبرز عن نيتشة ضد منتقديه واتهامهم له بالتناقض وبمعاداته للعلم نتيجة لنقص فى ثقافته العلمية وبفرديته والحاده . ويخصص ياسبرز الفصل الأخير من كتابه الكبير للدفاع عن تهمة الالحاد واعادة تأويل عبارات نيتشة الصريحة مثل : « الايمان بالله سب للعالم » أو « ان الله مجرد افتراض » أو « الله اكبر خطرا » أو « الله يجب أن يموت » بأن ذلك يعنى رغبة الانسان فى البحث عن موجود أسمى وغاية أعظم ! كما يحاول تفسير رفض نيتشة للعلو على أنه ايمان بنوع من العلو المكبوت فى النفس ! وبالتالى يخفف ياسبرز من حدة نيتشة وجذريته ، ويقضى على انفعاله ، ويمتص غضبه ، ويجعله لا فرق بينه وبين كيركجارد

وأوغسطين وبسكال ، وبذلك يتحول فيلسوف العدم الى فيلسوف الوجود أو على الأقل **ينتهى** ياسبرز الى التعادل فى القضية ويعلن « لا يوجد أى برهان على وجود الله كما لا يوجد أى برهان على الالحاد » (نيتشة ص ٤٣٨) . وكفاه نصرا أن يثبت أن نيتشة ليس كما يظنه الناس ملحدا وأن كل فكره يدور حول موضوع واحد وهو «دين الوحى» ، وهو فكر لا يقود الى الله ولكنه لا يبعد عنه (ص ٤٤٠) الى آخر هذه العبارات التى لا تقول شيئا لان نصفها الثانى يلغى نصفها الأول والتى تدل على براعة فائقة فى التعمية . ومادام نيتشة يتفلسف أمام الالحاد فانه لا يكون ملحدا خالصا (ص ٤٤١) ، **وان كان نيتشة ملحدا فان الالحاد يرفض أن يكون نيتشويا !**

ومع أن نيتشة لم يقرأ سطرا واحدا من كيركجارد (لأن مؤلفاته لم تكن قد ترجمت بعد الى الألمانية) وعلى ما يعترف ياسبرز بنفسه فان ياسبرز **كلما ذكر نيتشة ذكر معه كيركجارد** ويعطى لكليهما نفس الدور فى الايقاظ حتى يوحى بأنه يتحدث عن **أهم مفكرين وجوديين فى** المسيحية على السواء لا فرق لديه بين كيركجارد ونيتشة ، أى بين مؤمن وملحد على ماهو متعارف عليه ، **أى أنه يستعمل كيركجارد للتعمية** ولا يقصد من ذكره الا تمييع مواقف نيتشة وتحويل الهجوم على المسيحية الى دفاع عنها . **واذا كان ياسبر يحاول أن يثبت ان الحاد نيتشة هو ايمان مقنع فالحقيقة أن ايمان كيركجارد هو الحاد مقنع** لأنه يرفض كل العقائد المسيحية الرسمية التى يطلق عليها اسم « **التمسح** » فى مقابل المسيحية الباطنية . ولكن ياسبرز يجعل كليهما تابعا للمسيحية ، فكلاهما تأثر بشوبنهور ، نيتشة **فى** أول حياته وكيركجارد فى آخر حياته ، وكلاهما فكر فى سقراط فاعتبره كيركجارد معلمه واعتبره نيتشة عدوه ، وكلاهما عارض المعرفة العقلية وآثر تحليل الوجود الانسانى ، كلاهما عدو لهيجل الذى فتح عالما جديدا فى الفلسفة ووضع لغة جديدة فى الفكر **الأوربى . كلاهما شاعر** ، عبقرى الفن ، نبى ، قديس . وهكذا يجعل ياسبرز من نصير المسيحية عدوا لها ومن عدو المسيحية صديقا لها ، ويجعل من قال « **ان الله قد مات** » كمن قال « **ان الله أمامى أراه** » ، كلاهما يرفض المعرفة الموضوعية ، يضع كيركجارد محلها الايمان ، ونيتشة ارادة القوة ، كلاهما فيلسوف الامكانية ، كلاهما فيلسوف الزمان يجعله كيركجارد فى اللحظة ، ونيتشة **فى** العود الأبدى ، الانسان عند كيركجارد تلميذ للمسيح ومعاصر له وعند نيتشة هو الانسان المتفوق . ينادى نيتشة بالاستجابة للحياة وينادى كيركجارد بتكرار اللحظة . كلاهما فيلسوف **الحلول وكلاهما يرفض العلو الدينى . كلاهما** فيلسوف انفعالى ذاتى يرى الحياة صراعا من أجل الموت . بل ان ياسبرز يجعل نيتشة أكثر مسيحية من كير كجارد لأن كير كجارد تعلم المسيحية من أبيه وتخصص فى اللاهوت

أما نيشة فقد شعر بالمسيحية بقلبه وانتهى الى أعماق اللاهوت بنفسه ، أى أنه قطع شوطا أطول مما قطعه كيركجارد . على أية حال يجعل ياسبرز كلا من كيركجارد ونيتشة كوكبين لامعين يتوارى فى أضوائهما فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين منذ هيجل (كيركجارد ص ١٨٤) فقد ظهرا فجأة واستحوذا على اهتمام العصر وان لم يكونا قد كشفا لنا الطريق . يثيران فينا العناصر الأساسية فى المورث القديم دون أن يقدما فلسفة متخصصة كما فعل فلاسفة القرن الماضى (ص١٨٧) . لقد ظلا فى ميدان الاشتباه والالتباس والغموض ينيران الطريق ويضلان فى نفس الوقت ، يثيران الجد والهزل ، يكشفان الحقيقة ويعميانها ، **يدعوان الى تأكيد** الذات والى العدمية (ص ١٨٣) . ان ما يميز العصر الحاضر هو اكتشاف كيركجارد ونيتشة بعد أن لم يلتفت اليهما أحد ، وبدء الفلاسفة التابعة لهيجل فى التوارى عن الأنظار (نيتشة ص ١٠) . لقد ظهر كيركجارد ونيتشة فى فترة كانت **الانسانية فيها على مفترق الطريق** على ما يقول ياسبرز فى كتابه ((**عن الحقيقة**)) ، كلاهما استثناء ، كلاهما نبى العصر (الروح الأوربية ص ٢٥) ، كلاهما أعلن افلاس المسيحية: فقد أعلن كيركجارد ((**لم تعد المسيحية الا مظهرا**)) وأعلن نيتشة « **ان الله قد مات وبدأت العدمية** » . ان كيركجارد ونيتشة هما بالفعل المنبعان الذى استقى منهما المفكرون المعاصرون مثل هيدجر وجابريل مارسل وسارتر نظراتهم . فاثارة الوجود عند ياسبرزهى تصور نيتشة للحقيقة على أنها استكشاف للوجود أو تفسيرات له أو فك لرموزه وتحليل كيركجارد للوجود الانسانى أو وصف هيدجر للعدم والقلق والوجود من أجل الموت ، وقد سئل هيدجر مرة عن أهم حدثين فلسفيين فى هذا القرن فأجاب : ظهور الطبعة الكاملة الألمانية لمؤلفات كيركجارد سنة ١٩١٤ وظهور كتاب « **الوجود والزمان** » سنة ١٩٢٧ !

ولا يوجد عمل واحد لياسبرز الا ويشير فيه الى نيتشة بصرف النظر عن ذكر كيركجارد معه أم لا ، ويجعله من أعمدة الحضارة الأوربية (شروط وامكانيات انسانية جديدة ص ٧٩ . ويتحدث فى احدى سيره الذاتية عن نيتشة قائلا : « لم تظهر لى أهمية نيتشة بالنسبة لى الا متأخرا ، عندما كشف لى كشفا عظيما وهو العدمية ووجوب تجاوزها ، وقد كنت أتجنب نيتشة فى شبابى وأنفر منه لما فيه من تطرف «السكر والبرقشة» (حول فلسفتى ص ١٤٠)فيجعله من بين ممثلى المثالية الألمانية مثل نيشتة وهيجل وشلنج (الايمان الفلسفى ص ٣٢) . كما لا ينسى الاستشهاد بأقواله فى المرض وطرق العلاج (العلاج النفسى ص ٢٥) ويستشهد بفقرة طويلة منه ثناء على الطبيب (المعالج النفسى) بعد **فشل القادة الروحانيين** ، فالمعالج النفسى هو الأقدر على مخاطبة القلوب ، ويستشهد ياسبرز بثورة نيتشة فى شبابه على تصور القرن التاسع عشر لعلم الانسان وجال



الفلسفة الاكاديمية وتبنيها مناهج العلوم الطبيعية وبعدها عن الحياة ويأخذها حجة لمهاجمة المطلب العلمى ذاته وكما يبدو عند فرويد وماركس (العقل والخبل فى عصرنا ص٧٦). ويقارن ياسبرز نيتشة بجوته ويجعل كليهما نموذج الانسان الحديث : الانسان المتعدد الجوانب ، انسان فترة ما بعد الخلق لا ما قبلها ! (انسانية جوته ص ٢٥٤) ، يؤرخ ياسبرز العصور بظهور نيتشة (المدخل الى الفلسفة ص١٧٠، ص ١٩١) ولكنه يفعل ذلك ليبين أنه لا يوجد فيلسوف أوربى فى الغرب بما فيهم نيتشة قد كون فلسفته غافلا عن التوراة ! (الايمان الفلسفى ص ١٤٨) أى أن الغرض من اشارة ياسبرز الدائمة الى نيتشة هو اثبات أن نيتشة هو أحد منابع التفكير المعاصر فى تأويله لحسابه الخاص حتى يجعل منه فيلسوفامسيحيا أوعلىالاقل ليس عدواللمسيحية بالمعنى الشائع اذ أن حب الانسان وكرهه لشىء واحد هو نفس الشىء . وقد سئل برجسون مرة عن سبب معاداته المستمرة لعلم النفس فأجاب : لأنى أحبه ؟

منهج ياسبرز فى عرض موقف نيتشة من المسيحية :

يتلخص هذا المنهج الذى وضح فى كتابه الصغير « نيتشة والمسيحية » فى جمع أكبر عدد ممكن من النصوص وتفسيرها لبيان المسيحية الكامنة فى النص بالرغم من المعنى الظاهر له الذى يدل على عداء نيتشة لها . يلجأ ياسبرز الى التأويل واعتبار رفض المسيحية هو المعنى الظاهر للنص والدافع المسيحى هو المعنى الباطن له . ويكثر ياسبرز من ذكر النصوص حتى يوحى بأنه لايخشى من نيتشة شيئا وبأنه يعرض افكاره بنصوصه بكل هدوء واطمئنان لا يحاول أن يخفى منها شيئا . يبدأ ياسبرز بعرض أهم النصوص المعادية للمسيحية عند نيتشة عرضا موضوعيا فى أول كتابه الصغير حتى يصدم القارىء ثم ينتهى فى النهاية الى أنه بالرغم من هذا العداء الظاهر المدعم بالنصوص فان نيتشة قد أخذ هذا الموقف بدافع مسيحى أصيل !

يقول نيتشة مثلا : « **لو علمت أن لأحد اليوم اتجاها مانعا بالنسبة للمسيحية فانى لن أعطيه مثقال ذرة من ثقتى اذ ان الاتجاه الوحيد الصحيح فى هذا الموضوع هو الرفض المطلق** . ولكن ياسبرز يجعل من هذا النص كشفا للمسيحية وازاحة للنقاب عنها وبالتالى يكون كشفا عن الحقيقة . والمسيحية فى جوهرها كشف عن الحقيقة ان لم تكن هى الحقيقة نفسها ، ومن ثم لايبعد نيتشة فى هذا النص كثيرا عن المسيحية بل يتبع أحدالدوافع المسيحيةالاصيلة الا وهو البحث عن الحقيقة ! ويقضى على ما يقصده نيتشة بالفعل من المعنى الواضح للنص الذى يراه ياسبرز تكرارا لأفكار قديمة معروفة لفلاسفة سابقين مشهورين بعدائهم للمسيحية ، فالمعنى الظاهر ليس بالجديد والمعنى الباطنى فيه نصرة للمسيحية ! بل انه يذكر نصا آخر من احدى رسائله يتحدث فيها نيتشة عن ايمانه بالمسيحية عندما كان طفلا ويأخذه

ياسبرز دليلا على تأييد نيتشة للمسيحية كما يذكر نصا آخر على أثر المسيحية فى تربية الشعوب الأوربية ويجعله دليلا على أن نيتشة من أنصار التربية الدينية !

وفى نفس الوقت الذى يعتبر فيه نيتشة القسس **أقزاما شريرة** » ، «**من جنس الطفيليات**» ، «**من حلت عليهم لعنة العالم**» ، «**عناكب سامة**» ، «**أمهر المنافقين نفاقا**» ، (نيتشة والمسيحية ص ٩) يذكر ياسبرز صفات أخرى لهم ذكرها نيتشة فى سياق آخر حتى يخفف من حدة النصوص الأولى ويعارض بعضها بالبعض الآخر حتى **يميع موقف نيتشه** ، فيذكر أن نيتشة يحتفى بعظمة نفوس القسيسين ويمدح هذه الارواح النبيلة الطاهرة اللطيفة البسيطة الجادة ، ويذكر أن نيتشة يعتبر نفسه من سلالة أكرم عنصر بشرى لان جديه كانا راعيين بروتستنتيين ، كما يذكر فضل المسيحية فى تهذيب الأخلاق وتقويم الشخصية ، يجمع ياسبرز كل هذه النصوص التى يذكرها نيتشة فى هذا المعنى والتى **ذكرها نيتشة على محمل السخرية والتهكم ويخرجها عن سياقها** .

فاذا تحدث نيتشة عن الكنيسة واعتبرها العدو المميت بكل ماهو كريم على الارض والداعية لاخلاق العبيد والرافضة لكل عظمة انسانية وأنها لا تتعدى أن تكون **مؤسسة من المرضى تقوم بتهريب العملات الزائفة** (نيتشة والمسيحية ص ١٠) فان ياسبرز يذكر حديث نيتشة عنها أيضا بانها وسيلة للسيطرة ترفع الناس الى أعلى درجات من الروحية تؤمن بقدرة الروح وتمنع الالتجاء الى العنف وبالتالى فهى مثل الدولة مؤسسة كريمة . وبعد أن يعارض ياسبرز نصوص نيتشة بعضها بالبعض الآخر يحاول تفسير هذا التعارض المقصود بالالتجاء الى تاريخ حياة نيتشة وتربيته الدينية **حتى يفرغ النصوص من معناها ويجعلها صدى لأزماته النفسية فى الطفولة المبكرة** ، وبالتالى فهى لا تدل على فكر صائب يهدف الى تغيير شىء بقدر ماتدل على عقدة نفسية يجب حلها ، أى أنه **يرجع النصوص الى الوراء** ويجعلها صادرة عن تاريخ نيتشة النفسى **بدل أن يضعها الى الأمام** ويجعلها حلا لكثير من مشاكل العصر التى عبر عنها نيتشة فى مواقفه الفكرية والعقائدية .

وبالاضافة الى معارضة النصوص بعضها بالبعض الآخر يلجأ ياسبرز **الى منهج التحليل النفسى** ويتعامل مع نيتشة كمحلل نفسى يرى أن عداءه للمسيحية نشأ منذ الصغر عندما وجد أن المسيحيين ليسوا مسيحيين كاملين وأن هناك تعارضا شديدا بين ماتتطلبه المسيحية من حياة فاضلة وبين مايراه من واقع مرير ، بين المثل الأعلى كما تتصوره المسيحية وبين حياة الأوربيين ، وان شئنا بين الروحانية والمسيحية والمادية الأوربية ، بين السلام المسيحى والنزعة الحربية الغربية ، بين المحبة المسيحية والعداء الاوربى ، بين الايثار المسيحى والأثرة الغربية ، لما نشأ الفيلسوف فى طفولته على التسليم بالعقائد انتهى الى الشك والرفض واللا أدرية . والحقيقة **أن عداء نيتشة للمسيحية لم يكن ارتباطا منه بها أو استجابة لمتطلباتها كما يقول ياسبرز بل رد فعل عليها. لم يكن موقف نيتشة منها موقف المتجاوز لها على مايقول ياسبرز بل موقف الرافض لها** .

ويفسر ياسبرز قول نيتشة « **لم نعد مسيحيين** » بان نيتشة أصدر هذا الحكم لاننا نريد أن نكون أكثر مسيحية مما نحن عليه الآن ، ولاننا اكثر تطلبا للتقوى وأقوى نزوعا نحو الخير مما نراه الآن . ويفسر رفض القيم الخلقية المتوارثة فيما وراء الخير والشر بأنه طلب لقيم خلقية أقوى مستشهدا بقول نيتشة « **نريد ان نكون ورثة الأخلاق بعد ان تقضى على الأخلاق** » ، أى ان ياسبرز يستعمل الحجة المنطقية النفسية المشهورة بأن الرافض للشىء مؤمن به لأنه يتحدث عنه ويفكر فيه ، فالرافض لله الذى يصوره الناس مؤمن بالله الذى ليس كمثله شىء ، وبذلك يكون **الملحدون هم المشتاقون حقا لله** على حد قول أحد كبار الصوفية (أنظر مقالنا أوناموانو والمسيحية المعاصرة » الفكر المعاصر ، العدد ٤٧ ، يناير سنة ١٩٦٩) ولكن الذى يتبع هذا المنهج لابد أن ينتهى الى أن **الالحاد هو الايمان الحقيقى** لانه هو الايمان الخالص من كل مظاهر الوثنية التى تشوب ايمان العوام . أما ياسبرز فلا ينتهى الى هذه النتيجة ويجعل من ارادة القوة دينا مسيحيا !

ان عداء نيتشة للمسيحية ومعركته ضدها قد ولد **توترا روحيا** على مايقول ياسبرز ولكن **هذا القلق ليس مسيحيا كفعل بل كرد فعل،** وبهذا المعنى تظل المسيحية «**شوكة فى الجسد**» على ما يقول كيركجارد **تؤرق الفكر الأوربى** وتدفعه لمناهضتها ورفضها والعمل ضدها . وبهذا المنهج يمكن اعادة تاريخ الفكر الأوربى كله : **بدء الفلسفة الحديثة ونشأة العلم وخروج موجات الالحاد على أنه رد فعل على المسيحية لا على أنه فعل له وأثر من آثاره على مايقول ياسبرز** .

يحاول ياسبرز تفسير نيتشة تفسيرا مسيحيا على مراحل ثلاثة أضعها فى صيغة تساؤلات ثلاثة :

أولا : هل قضى تفسير نيتشة لتاريخ المسيحية على المسيحية كاتجاه نفسى ؟

يعرض ياسبرز لتاريخ المسيحية كما يفسره نيتشة **بطريقة تراجعية** أى أنه يحلل أزمة العصر الحالى ثم يرد هذه الأزمة الى المسيحية ثم يحاول وضع تاريخ عام للمسيحية مبينا نشأتها وتطورها .

تتلخص **أزمة العصر الحاضر** عند نيتشة – كما يتصورها ياسبرز – فى انهيار الحضارة والمدنية اذ لم يبق منهما الا مجرد الخبر السطحى الذى لا جذور له ، وفقدان الفن لجوهره وتعويض ذلك فى التصنع والتعمية وتحول الحياة الى

« كان » أى فقدان الشيء نفسه والالتجاء الى المثل وضياع اليقين والوقوع فى الشك ، كما يبدو انهيار العصر فى الملل والهروب منه فى السكر والغربة والضجيج والكذب الروحى والجدب النفسى . كل انسان يتحدث ولا أحد يسمع ، الكل يبعثر كلماته ، خيانة لكل شيء ، روح تبحث عن الفائدة ، ينخر فيها العدم وتظهر آثاره فى الآلية ، فى آلية العمل وسيادة الدهماء . « **ان الله قد مات** » هذا هو الجديد الذى أتى به نيتشة والذى لم يفهمه الأوربيون حتى الآن ، لم يقل نيتشة « لا يوجد اله » أو « لا أعتقد فى وجود الله » لأنها قضية تتعلق بالوجود لا مجرد حكم نفسى . لقد مات الله عند نيتشة بسبب المسيحية التى قضت فى الانسان على أهم مكاسبه الأولى : **تراجيديا الحياة** التى عرفها الطبيعيون الأوائل السابقون على سقراط والتى وضعت المسيحية بدلها الأوهام : الله ، نظام العالم الخلقى ، الخلود ، الخطيئة ، الفضل الالهى ، الفداء ... الخ . حتى تأتى لحظة تتحول فيها النية الصادقة التى تتطلبها المسيحية الى اشمئزاز من كذب وبطلان كل تفسير مسيحى للعالم ، عندئذ ينخر العدم فى عالم المسيحية الوهمى ، فالعدمية هى النتيجة المنطقية لكل القيم والمثل .

يعرض ياسبرز نيتشة وموقفه من المسيحية على هذا النحو عرضا موضوعيا ولكنه لا يقصد به كيف ينخر العدم فى الوجود بسبب التصور الدينى للعالم بل يقصد منه كيف تستحيل الحياة الى جحيم بسبب انكار وجود الله . **يجعل نيتشة وجود المسيحية علة العدمية بينما يجعل ياسبرز غياب المسيحية علة العدمية !**

١ - **ان تاريخ المسيحية فى الفى عام هو اذن تاريخ مأساة طويلة تدل على انحراف المسيحية عن سيرتها الأولى** ، وتاريخ المسيحية هو تاريخ مأساة الانحراف . **والمسيح نفسه ليس مسئولا عن هذا الانحراف** ولا شأن له بما حدث باسمه فى التاريخ ، **المسيح مجرد نموذج من البشر** له تفسيره من الناحية النفسية فقد قدم المسيح طريقة جديدة فى الحياة ولم يعط معرفة جديدة أى أنه دعا الى تحول ذاتى لا الى عقيدة جديدة ، تتلخص هذه الحياة الجديدة فى البحث عن السعادة التى تكون فى استقلال العالم الداخلى للانسان عن أى ضغط خارجى. وكل ما قاله المسيح فى ذلك كان مجرد رموز ، فالسعاده هى الواقعة الأولى تند عن الصياغة ولاتكون الا حياة معاشة أقرب الى الغريزة منها الى الصياغةالعقلية كل مايقوله السعيد يكون رمزا وكل مايفعله يجانب به العالم لانه لايقاوم ولا يرفض بل يسلم بكل شيء ، وهذا هو ما أطلق عليه المسيح لفظ « **الحب** » . وما أن يفقد العالم واقعيته حتى يفقد الموت واقعيته أيضا ، ويصبح مجرد قنطرة الى عالم آخر بل يمحى وجوده على الاطلاق لأن الحياة الزمنية لا وجود لها عندما يعيش الانسان فى الخلود . وقد أكد المسيح ذلك بموته وبموقفه من القضاة وبموقفه أمام الصليب . لم يقاوم ولم يدافع عن نفسه بل صلى وتألم وأحب من ناصبوه العداء . ويسمى نيتشة هذا الموقف « **الموقف الفزيولوجى** » لأن مناصبة العداء بالعداء فيه قضاء على الذات أما اتخاذ موقف الحب من العداء ففيه محافظة على الذات وابقاء عليها ، وهو الموقف الذى يختلط فيه الجليل والمميت والصبيانى ، وهو موقف بعيد كل البعد عن البطولة أو العبقرية كما يدعى البعض بل هو أقرب الى موقف « **الأبله** » فى رواية دستويفسكى .

يرى نيتشة أن موقف الانهيار هذا موقف صادق بلا نفاق أو مداراة يصدر من غريزة تدفع نحو العدم ولكنه موقف نفسى لا تاريخى لانه يستحيل معرفة **مسيح التاريخ** كما قال النقاد من قبل (روبنسون مثلا) ولا يمكننا الا معرفة **مسيح الدعوة.** يرى نيتشة أن **صورة المسيح فى الأناجيل صورة مضطربة متناقضة فهو** يعظ على الجبل وعلى البحيرات وفى المرعى ، ويشبه تجليه ماحدث لبوذا ، وهو فى نفس الوقت مناهض متعصب ، عدو لدود للاهوتين والقسس . فالصورة الأولى -المسيح الطيب- أقرب الى المسيح الحقيقى ، أما الصورة الثانية فهى اضافة من التاريخ ومن الجماعة المسيحية الأولى ، فالمخلص لا يكون متعصبا أبدا ، **لا يمكننا اذن ان ناخذ الأناجيل كوثائق تاريخية صحيحة ناخذ منها صورة للمسيح التاريخى** كما أننا لا نستطيع أن نعتبر الأساطير التى ينسجها الشعب حول الأولياء والقديسين مصادر تاريخية عنهم ، لا تعطى الأناجيل الا مسيح الدعوة ، أى المسيح كما فهمته الجماعة المسيحية الأولى أى مسيحا نفسيا يضع مسيحية لا تصح الا فى الحياة الخاصة وتفترض مجتمعا مغلقا منعزلا لا شأن له بالسياسة ولا تليق الا بالأديرة .

لم يحاول ياسبرز تطوير هذه الملاحظات التى أبداها نيتشة ومقارنتها **بنتائج علم النقد الحديث** وبالدراسات المقارنة عن نشأة المسيحية، خاصة وأنه على دراية بالموضوع كما وضح فى رده على بولتمان بشأن منهجه فى **القضاء على الأساطير** فى تفسير الكتب المقدسة ، بل ينتهى الى هذه النتيجة اجابة على السؤال الأول المطروح وهى ان **قضاء نيتشة على مسيح التاريخ لم يقض على المسيح كنموذج للحياة** وبالتالى تظل المسيحية ممكنة كعقيدة وتصور ، ويكون كبار الصوفية مثل فرنسوا الأسيسى وكبار المؤمنين من أمثال بسكال ، يكون هؤلاء على حق عندما يتحدثون عن الايمان المسيحى وعن الطريق المسيحى الى الله . وبالرغم من قضاء نيتشة على العقائد واعتبارها انحرافا عن المسيحية الأولى تظل المسيحية - فى رأى ياسبرز - ممكنة باعتبارها **دافعا روحيا قلبيا خالصا** وهو ما قاله كانط من قبل (أنظر مقالنا عن « الدين فى حدود العقل وحده لكانط » تراث الانسانية ، المجلد السابع ، العدد الثانى ، أغسطس سنة ١٩٦٩) .

٢ - يرى نيتشة انالمسيحية قد انحرفت عن المسيح، **ولم يكن فى التاريخ مسيحى الا شخص واحد وهو المسيح وقد مات على الصليب !** وكل ما ألصق به بعد ذلك كان نتيجة

للمصادفة التاريخية المحضة أو لدوافع ومآرب شخصية ، المسيح هو المسيحى الوحيد أما الجماعة المسيحية الأولى فهى عدوة للمسيح ، ونيتشة نفسه عدو للمسيحية وعدو للمسيح بالرغم من اخلاصه وصدقه ، وعدو للجماعة المسيحية الأولى ابتداء من الحواريين حتى آباء الكنيسة ، ليس المسيح اذن مصدرا للمسيحية بل نواة لها استغلتها المسيحية لنسج مجموعة من العقائد التاريخية الصرفة حتمتها الظروف والحوادث. لقد انهارت المسيحية بعد المسيح وانهار الغرب بعد تغلغل المسيحية فيه . ويبدو الانحراف عند نيتشة فى تحويل المسيحية من قاعدة للحياة الى **اعتقاد** ، مع أن المسيح مثل بوذا رجل عمل لا رجل عقيدة ، ثم تحويل الاعتقاد الى **عقيدة** أى واقعة مغلقة يختلط فيها الهوى والظن والحوادث التاريخية فى ثوب رمزى مثل **اسطورة الفداء** التى نسجت حول بعض الألفاظ مثل « الآن والى الأبد » أو « هنا وفى كل مكان » ، ومثل **اثبات المعجزات** حول بعض الرموز النفسية كشفاء المرضى، وأسطورة الخلود حول تأكيد المسيح لفناء كل ماهو شخصى وفردى ، أو **اقامة كنيسة** تدعو لله وتبشر بملكوته وجناته أو بابن له يكون الشخص الثانى فى التثليث ، كل ذلك مجموعة من **الرموز الفاضحة** حولت المسيحية الى نقيضها ، فعبد الناس الشيطان بدل الاله . **لقد انحرفت المسيحية عندما تحولت من مجرد ايمان قلبى فردى الى عقائد تاريخية** هى فى الحقيقة رموز تدل على هذه الحقائق الروحية البسيطة ، فالايمان يعنى الشعور، والله الانسان يعنى أن التفسير الوحيد لله محو الانسان وبالتالى الاعتراف بالانسان كواقعة مكتفية بذاتها أو كحقيقة أولى ، وبالتالى يكون الالتصاق بالرموز انحرافا للبشرية : « **ألم تضل الانسانية طريقها ألفى عام بهذا** الوهم ؟ » .

كان يمكن لياسبرز ابتداء من هذا التحليل التاريخى للمسيحية الذى قام به نيتشة تتبع تاريخ المسيحية وكيف أنها أصبحت رومانية مقنعة ، فأصبح القيصر هو البابا ، والمعبد هو الكنيسة ، والطقوس قداسا كما فعل **هارناك** فى « **جوهر المسيحية** » وهو ما أثبته لوثر قبل ذلك بخمس قرون وأصبح من الحقائق التى تعترف بها جميع الطوائف المسيحية وجميع الاتجاهات اللاهوتية محافظة كانت أم متحررة ، ولكن ياسبرز يصور نظريات نيتشة فى نشأة المسيحية وتطورها وانحرافها على أنها **اسقاط من ازمة نفسية لديه على التاريخ** ، وبالتالى **يقضى على** صدقها وموضوعيتها ويجعلها مجردهوى أو جنون مع أن نظريات نيتشة ، وان كانت قائمة على الحدس السريع **ونفاذ البصيرة** ، **لا تفترق كثيرا** عن نظريات دارسى تاريخ المسيحية خاصة فى القرن التاسع عشر الذين تتبعوا نشأة المسيحية وتطورها فى خط مواز لنشأة العقيدة وتطورها وكلاهما فى خط مواز ثالث لنشأة النص الدينى نفسه وتطوره مع اثبات انحراف المسيحية التاريخية عن المسيحية الأولى واختلاف العقائد الكنسية المتأخرة عن الدعوات الخلقية الاولى وعدم احتواء النصوص الدينية لكل ماقاله المسيح واحتوائها لاشياء أخرى غيرها حدثت من بعد فى الجماعة المسيحية الأولى منذ نشأتها وفى تطورها حتى القرن الرابع حين بدأ ظهور الأناجيل الأربعة في مجموعات متسقة مرتبة عن « **أقوال المسيح وأعماله** » كما يذكر مؤرخو المسيحية الأوائل من أمثال بابياس والقديس ارينيه واوزب السيزارى .

٣ — وينشأ الانحراف التاريخى — على مايقول نيتشة — **من الشعور بالحقد** الذى يتولد عند الفاشلين والمضطهدين وهو الشعور الذى درسه **ماكس شيلر** بعد ذلك بالتفصيل . ويعنى به نيتشة الحقد الناشىء عن العجز عن ارادة القوة ، وقد يكون خالقا للقيم والمثل . فالعاطفة الخلقية تدل على رغبة فى الاستعلاء ، والعدالة تدل على رغبة مكبوتة للانتقام ، والمثل العليا قد تشير الى معركة كامنة ضد من يحتلون المناصب العالية ، فهذه الدوافع التى تظهر فى مظهر روحى عال تحتوى على انحرافات شديدة ، وقد يدل هادىء الطبع على ثورة وقسوة ، كما كان كبار السفاحين يخافون مناظر الدماء ، وكثيرا ما كان يتم ذبح الخصوم باسم الله والحق والعدل ، وقد يكون المؤمن قاسى الطبع لأنه يطمئن الى شرعية أفعاله ، وهذا يفسر لنا **كيف أصبح الايمان المسيحى فيما بعدايمانا أبيقوريا وكيف تحولت المسيحية عدوة الوثنية الى وثنية صديقة للمسيحية** . وكما ولدت الوثنية اليونانية من قبل اتجاهات معادية لها عند سقراط وأفلاطون كانت المسيحية وليدا طبيعيا لظروف العصر القديم ، وأخذت لحسابها كل الأسرار القديمة والرغبات فى الخلاص وأفكار التضحية واتجاهات الزهد وفلسفات العالم الآخر ، كما احتوت على عبادة مترا mithra . **وكانت المسيحية رد فعل على اليهودية** فهى ظاهرة يهودية . **آثر اليهود اختيار الوجود على العدم وانقلبت الآية فى المسيحية التى تحتم فيها اخذ العدم وترك الوجود كرد فعل على الاختيار الأول** ، وكان الثمن تزييف كل شىء من قيم ومثل وأخلاق . وبالتالى خلقت غريزة الحقد عالما جديدا تصبح الاستجابة فيه للحياة شرا . ويفسر نيتشة اليهودية كما يفسر المسيحية بغريزة الحقد ، فيرى أن اليهودية قد أدانت القوة والسيطرة والنجاح فى الأمور الدنيوية ولذة الحياة مما اضطر اليهود الى انكار الوقائع والتنصل من تاريخهم الماضى الملىء بالحروب والمغامرات .

ذلك تسرب حب الحياة الى اليهود من ممرات سرية داخلية ، وبهذا المعنى تصبح المسيحية هى اليهودية فى أبعد حدودها . لقد أصبحت اليهودية مسيحية وقضت على آخر صورة لها وهى الشعب المختار . **ومع هذا الانحراف التاريخى ينشأ التعويض الخلقى عن العجز وتنشأ الأخلاق المثالية لتغطية هذا العجز فنجد** فى تصور المسيح ميلادا وصلبا رغبة فى الانتقام !

ومع أن **تفسير نيتشة يصدق على المسيحية أكثر من صدقه على اليهودية** لان اليهودية تختلف عن المسيحية فى جوهرها ، فلم تكن ديانة روحية أبدا ، **ولم تدع التوراة الى الروح المجردة الطاهرة كما هو الحال فى المسيحية بل كانت دعوة الى القوة والارتباط بالأرض** وهو ما اتضح فى تاريخ بنى اسرائيل القديم — مع أن تفسير نيتشة قد يصدق على المسيحية الا أن

ياسبرز لا يرفضه ككل لأنه يسمح بارجاع كل مظهر من مظاهر الحياة الأوربية الى مسيحية مقلوبة أي الى أحد أوجه المسيحية وهو مايريد اثباته ·

٤ ـ وقد استمرت المسيحية في تطورها تغزو النفوس المتوسطة التي انحرفت منذ اللحظة الأولى : تقتنعها وتظل في صراع معها حتى تنشأ **التشكلات الكاذبة** للمثل المسيحية تؤثر في الشعور الأوربي بالرغم من رفضه لها ، ويعتبر نيتشة **فرقة الجزويت** أيضا من هذه التشكلات الكاذبة فالدخول في العالم وهو ما يميز الجزويت رد فعل على الخروج عنه وهو ما تتطلبه المسيحية ·

ويتضح هذا التشكل الكاذب أيضا في **وسائل نشر المسيحية** . فتخلت عن الحقيقة وفضلت الأثر والفاعلية ، فاذا كانت الأمانة العقلية تنقصها كما هو واضح في العقائد فانها تلجأ الى عدم الصدق للتأثير على الناس ولاثارة انفعالاتهم حتى أصبحت الوسائل المتبعة وسائل غواية أكثر منها وسائل لنشر الدعوة ، اذ أنها ترفض كل ما يمكن أن يثير المقاومة مثل العقل والفلسفة والحكمة والشك وتصر اصرارا عنيدا على أن العقيدة من عند الله وأنه لا مجال اذن للنقد والفحص بل للتسليم والاعتقاد ، وتبث روح التعصب والغرور لدى الفقراء وتصفهم بأنهم « حس الأرض وملحها » على مايقول الانجيل ، وتتعامل مع المتناقضات وكل مايثير الغربة والدهشة وتمجد الاضطهاد وخدمة الآخرين ·

والعجب أن الأقوياء قد تمثلوا أيضا هذه القيم لأنها تصلح لكل مظاهر الجبن ولكل مظاهر الغرور على السواء ، يجد فيها الضعيف التعويض والسكينة ويجد فيها القوى الغلبة والسلطان ، يصارعها الضعيف ان أرادت الابقاء على حالته ويصارعها القوى ان أرادت الحد من قوته ··

وفضلا عن الجزويت ظهرت التشكيلات الكاذبة في بعض الاتجاهات المعاصرة مثل **الليبرالية والاشتراكية والديموقراطية** كرد فعل على المسيحية وللقضاء عليها في نفس الوقت ، فهي صور للمسيحية المنهارة بعد أن خارت قواها وفرزت أشكالا أخرى تعيش من خلالها بطريقة الالتواء والمداراة ، وكذلك الفلسفة والأخلاق وكل مثل العصر الحديث في المساواة ـ كل ذلك **قيم مسيحية مقنعة** : مساعدة الضعيف من حيث هو موجود بيولوجي بصرف النظر عن غبائه أو ذكائه ، رفض استعمال العنف ، كل ذلك **انحرافات اصلية من اليهودية والمسيحية في عصورها القديمة** ، تظل هذه المثل دليلا على النفاق وبعيدة عن الواقع فاذا انهدمت انكشفت العدمية كأساس لكل شيء · فالعدمية نتيجة للمسيحية التي انحرفت منذ نشأتها لا لمسيحية المسيح ·

ومن مظاهر التشكل الكاذب أيضا عقيدة **الموت السعيد** Euthanasie التي تعتنقها البرجوازية التي تود أن تموت في سعادة وهناء ورضا وسكينة بعد أن تدفع الزكاة على ماكنزته وجعلت في كل عقار مصلى في الدور الأرضي وهي تعتقد أنها في السماء ستنال خلودا فرديا متميزا كما كانت متميزة على الارض ·

لذلك يجب رفض كل الأشكال الكاذبة من أخلاق وفلسفات مثالية باعتبارها معادية للحياة وعلى أساس هذا الرفض يقوم التصور الجديد للحياة ·

وأخيرا ، تساعدنا المسيحية على **فهم تناقضات العصر** : القوة والعجز ، الانهيار والصعود ، السيد والعبد، القسيس والعلماني ، الوجود والعدم ، وهي التناقضات الموجودة أيضا في فترات أخرى من التاريخ في الاسلام أو في المانوية · ولكن **التناقضات في المسيحية هدامة لا بناءة** فقد قضت على الامبراطورية الرومانية ، وحدت من انتشار الاسلام وجاء لوثر فأضاع مكاسب عصر النهضة وهو العصر الذي نهض فيه الانسان الحقيقي · لقد أرادت المسيحية كغيرها من ظواهر التاريخ خلق الانسان المتفوق فهي اذن حلقة في تاريخ الانسانية العام · ولما كان العصر الحاضر هو عصر العدمية تستطيع المسيحية أن تكون له بمثابة الحطر أو العون ·

ويوافق ياسبرز على هذا العرض الذي يقوم به نيتشة لتاريخ المسيحية ولكنه يؤوله لحسابه ويقول ان هذا العرض ولو أنه يقضي على تاريخ المسيحية الا أنه لا يقضي على المسيحية ذاتها التي تظل **مهمازا حضاريا للغرب وسببا من أسباب توتره النفسي** وكفاها بذلك فعلا !

ثانيا : هل هناك دوافع مسيحية في تصورات نيتشة للتاريخ وللانسان وللمعلم ؟

على الرغم من قضاء نيتشة على العقائد بصراحة ووضوح فان ياسبرز يحاول اثبات أن نيتشة قد اتبع في ذلك دوافع مسيحية أصيلة ويرى وضوح هذه الدوافع في **نظرة نيتشة للتاريخ العام وفكرته عن الانسان كموجود ناقص وتصوره للعلم باعتباره ارادة لا حدود لها للمعرفة** وهو التصور الذي كان أحد أسباب عدائه للمسيحية ·

١ ـ يرى ياسبرز أن **تصور نيتشة للعود الأبدي هو نفسه النظرية المسيحية المشهورة عن الخطيئة والفداء** ، وأن هذه النظرة الشاملة للتاريخ صارت ممكنة بفضل النظرة الشاملة المقابلة التي تعطيها المسيحية · يرى نيتشة أن التاريخ يعيد نفسه وأن مايحدث في عصر يحدث في كل العصور وان هناك عودا مستمرا للاشياء حيث يوجد علاقة ثابتة بين الخلود والزمان وكأن الاشياء كانت على حالتها هذه منذ الازل وستكون كذلك الى الابد ، وهذا مايفسر لنا تكرار الظواهر والمواقف. وهذا التصور لا يعني بالضرورة التصور المسيحي للخطيئة والفداء فقد كان هو **التصور السائد لدى القدماء في فلسفاتهم للتاريخ** كما هو الحال عند اليونان والرومان في **التصور الدائري لحركة التاريخ** ، فهو تصور موجود قبل المسيحية ثم تسرب الى المسيحية في تصورها للكون بحركتيه ، **حركة الهبوط وحركة**

الصعود ، الهبوط الذى تمثله الخطيئة والصعود الذى يمثله الفداء ، وهو التصور الأفلوطينى للكون ، بحركتى **الذهاب والاياب** Aller Retour على مايقول برجسون شارحا افلوطين ، وهو التصور الذى خلده أوغسطين فى مدينة الله وصراع مدنية الارض التى تمثل الهبوط والطرد والخطيئة معمدنية السماء التى تمثل الرفع والخلاص والفداء عن طريق الأنبياء حيث يتم بالفعل على يد المسيح . هذا التصور ليس مسيحيا بالضرورة بل هو التصور القديم للتاريخ قبل المسيحية وبعدها ، وهو التصور الذى ساد الحضارة الاسلامية والذى خلده **ابن خلدون** أيضا فى تصوره لدورات التاريخ من البداوة للحضارة ثم للبداوة من جديد . **لم ينشأ تصور التاريخ كسهم يرمز للتقدم الا فى العصور الحديثة ابتداء من فلسفات التاريخ فى القرن الثامن عشر عند كوندرسيه وفيكو وتورجو وفى القرن التاسع عشر عند هيجل وكورنو** . كان التصور القديم للحضارة **هو الكهف** على مايقول **شبنجلر** وهوالتصور الذى ساد قبل المسيحية وبعدها وتدتبنى نيتشه هذاالتصور نظرا لعدميته لا لأنه يتبع دوافع مسيحية أصيلة على مايقول ياسبرز الذى يعتبر أيضا فلسفة التاريخ فى العصور الحديثة عند **هردر وكانط وفشته وهيجل وماركس** تصورات مسيحية تصدر عن دوافع مسيحية أصيلة مع أن التصور المسيحى للتاريخ يتلخص فى حركتى **اللعنة والغفران** أى فى حركتى الصدور والرجوع لا فى تصور السهم الذى يرمز للتقدم والذى يعتبر مكسبا أصيلا من مكاسب العصور الحديثة .

ومع أن **التصور التراجيدى للحياة** ليس تصورا مسيحيا صرفا فقد عرفه **الشعراء اليونانيين** من قبل كما عرفته الأساطير اليونانية وبعض الفلسفات مثل فلسفة أفلاطون وعرفه **الرومانسيون** فى عواطفهم وانفعالاتهم والمعاصرون فى احساسهم بالقلق والتوتر (أونامونو مثلا) خاصة نيتشة بعد قلبه للقيم وانتهائه الى العدمية — فان ياسبرز يرى أن هذا التصور التراجيدى للحياة تصور مسيحى محض يتبع دوافع مسيحية كامنة .. مع أن نيتشه نفسه يعتبر التصور التراجيدى للحياة سابقا على المسيحية وموجودا فى العصر التراجيدى فى الفلسفة اليونانية قبل سقراط ثم انهارت الفلسفة اليونانية بعد ذلك، وقد ساعدت المسيحية على هذا الانهيار .

ولا يترك ياسبرز نيتشة حتى يجعله مسيحيا لا فرق بينه وبين أوغسطين أوبسكال. فسواء كان نيتشه من أنصار النظرة الشاملة للتاريخ فهو مسيحى لأن المسيحية تعطينا أيضا هذه النظرة ، وان كان من أنصار النظرة الفردية للتاريخ فهو مسيحى كذلك لان المسيحية تعترف أيضا بالزمان الفردى وبالحياة الزمنية المحددة بالميلاد والوفاة . فاذا لم يكتف نيتشة بالنظرة الكلية الشاملة للتاريخ وأراد أن يوجهه أيضا واكتفت المسيحية بانقاذ الفرد وحده واعتبار التاريخ أحد المعطيات الموجودة سلفا والتى لايمكن توجيهها فان نيتشة يكون أيضا مسيحيا — فى نظر ياسبرز — **مع أن نيتشة قد استبدل بالله الخالق الانسان الخالق وجعل الانسان دون الله خالقا للتاريخ ومسيرا لمجراه .**

وعندما يشعر ياسبرز بتعارض تصور نيتشة والمسيحية للتاريخ فانه يدافع عن التصور المسيحى باعتباره الأصل الذى خرج منه تصور نيتشة حتى وان كان معارضا له ، فاذا كان لنيتشة نظرة شاملة الى التاريخ العام فان ياسبرز يرى ان هذه النظرة مستحيلة لأن المسيحية تضعنا فى « الكل » Tout دون أن نعرفه وكل معرفة للكل تكون مجرد افتراض ، فاذا كان تصور نيتشة للتاريخ مسيحيا من حيث رد الفعل فان تصور ياسبرز له مسيحى من حيث الفعل لأن « الشامل » L'Englobant من حيث هو اتصال الذات بالموضوع أقرب الى الواقع والتجربة وبالتالى فهو تصور مسيحى لأنه لا يغلف الحياة فى النظرة الشاملة للتاريخ كما يفعل نيتشة . واذا كان نيتشة من أنصار توجيه السلوك للتاريخ العام فان ياسبرز يرى أنه من المستحيل السلوك طبقا لخطط شاملة تضم التاريخ الانسانى كله لأنه يقتضى المعرفة به وهذا مستحيل اذ لا يتم السلوك الا فى زمان ومكان معينين أى فى موقف محدد كما لا تتم المعرفة الا من باطن النفس لا من التاريخ .

٢ — يرى ياسبرز أن تصور نيتشة للانسان على أنه موجود ناقص ، مهشم ، ساقط ، هو نفس **التصور المسيحى للخطيئة الأولى** ولكن هذا التصور موجود أيضا عند الفلاسفة الوجوديين المعاصرين الذين يرفضون المسيحية ، فالانسان عند **هيدجر** وجود للموت ينخر فيه العدم من خلال الثرثرة وحب الاستطلاع والاشتباه والسقوط والهذيان ، والانسان عند **سارتر** دودة فى ثمرة كما هو عند نيتشه «مرضي الارضى» هش ، يتسرب اليه العدم من خلال النفى وسوء النية والشك والتساؤل ، صحيح أن الخطيئة الاولى عند **كيركجارد** هى مصدر لافكاره عن القلق ولكنها عند نيتشة وسارتر وهيدجر شعور بالعدم وهو شعور **ناشىء من روح العصر لا من تراث الماضى** . يفسر ياسبرز هذا الانسان الناقص الذى لا يريد أن يعلو على ذاته بأنه العلو الدينى المعروف المسجين فيه ، **وفرق بين العلو الدينى والتعالى الفلسفى** (ويدل لفظ Transcendence عليهما معا) **فالعلو الدينى** هو اثبات موجود مفارق للعالم خارج عنه ، وهو وقوع فى التصور الأفلاطونى لله ، وكان رفضه أساسا رد فعل على هذا التصور الأفلاطونى الدينى وايمانا بالحلول وبالطبيعة . **أما التعالى الفلسفى** وهو ما يقصده الفلاسفة المعاصرون فيعنى أن تتعالى الذات على نفسها وبالتالى تتعالى على الموضوع لأن الذات ليست موضوعا ، وهو رد فعل على الموضوعية فى العلوم الانسانية خاصة فى علم النفس وعلم الاجتماع. هذه الموضوعية التى أرادت تحويل الذات العارفة الى موضوع للمعرفة ، ولكن **ياسبرز يفسر التعالى الفلسفى على أنه العلو الدينى** ولا يبقى من **اللفظ الا وظيفته الدينية ، وهكذا يضع** ياسبرز **الله وراء نيتشة فى تفسيره للتاريخ ، وفى داخله فى تفسيره لفلسفته ، ومن فوقه فى تصوره للانسان سواء اراد ذلك نيتشة أم لم يرد** ، وبالتالى يصبح الانسان المتفوق عند نيتشة

– على حد قول ياسبرز – انسانا يتطلع نحو الكمال ، والله هو الكامل الحق !

٣ – يرى ياسبرز أن **رغبة نيتشة فى العلم وفى الحقيقة** مطلب مسيحى أصيل مع أن نيتشة يرى أن المسيحية عدو للعلم اذ أنها لا ترتكز على الواقع الذى يصدر العلم عنه ، ويرى أن الايمان المسيحى معارض للعالم خاصة **لعلمى التفسير والطب** اللذين يمكن بواسطتهما القضاء على كل الخرافات فى النصوص الدينية: **التفسير** لانه يبين نشأة النص وتطوره وانه يعبر عن معتقدات الجماعة المسيحية الأولى ولا يحتوى على اى كلام للمسيح ، **والطب** لأنه يبين أسباب الشفاء التى ظنها المسيحيون معجزات . ومع ذلك يصر ياسبرز على أن رغبة نيتشة العارمة نحو العلم واقع مسيحى أصيل لأن المسيحية بحث عن الحقيقة والعلم كذلك !

يريد نيتشة الحقيقة نفسها دون أغلفة من الرواة أو من التاريخ ويستعمل لذلك **مناهج النقد الحديث** ولكن ياسبرز يرى أن هذه الارادة نابعة من الاخلاق المسيحية التى نمت على العلم والمعرفة ، لذلك ظهر العلم الحديث بشموله ووحدته فى الغرب وحده ، فى وطن المسيحية ، أما العلم اليونانى – فى رأى ياسبرز – فكان علما خاصا ينقصه التفكير المنهجى لاقامة علم شامل كما هو واضح فى طب **ابى قراط** أو نظرات عامة كما هو واضح فى العلوم الرياضية عند **اقليدس وارشميدس** وذلك لأن اليونان تنقصهم الدوافع الروحية والبواعث الخلقية ! ظل العالم لديهم مغلقا وظل هذا التصور عند **أرسطو وديموقريطس وتوما الاكوينى وديكارت** ، ولكن التصور الحديث للعلم – أيضا فى رأى ياسبرز – يرى فى العالم مجموعة كبيرة من الخبرات نتيجة لتصور المسيحية لخلق العالم حتى استطاعت عقلانيته أن تواجه كل ماهو لا عقلانى وأصبح أساس العلم هو خالقه ! ولما كان الله خالقا للعالم ومسئولا عنه **نشأت نظريات العدل الالهى** تحث على البحث وتثير العواطف وترفض السكينة والطمأنينة ودعاة صبر **أيوب** .

وهكذا **يفسر** ياسبرز العلم الحديث على أنه بحث عن الله وعن تدبر فى العالم المخلوق ! مع أن **العلم الحديث لم ينشأ الا بعد أن انفصل عن اللاهوت وأعطى العالم استقلاله وللطبيعة كفايتها الذاتية** . ينتهز ياسبرز فرصة هجوم نيتشة على العلم اليونانى النظرى وتفضيله التراجيديا فيهاجم العلم اليونانى أيضا المنفصل عن الله ويفضل العلم الحديث **ويفسره تفسيرا الهيا** . كما أن تصور نيتشة لارادة الحياة باعتبارها باعثا على العلم ليس تصورا للعلم الحديث كما يظن ياسبرز بل تصور فلسفى محض يقوم على أساس حيوى وبيولوجى ولا شأن له بتصور العلم . كما أن **وظيفة نظريات الجدل الالهى هى تبرير الشر فى العالم** كما هو الحال عند **ليبنتز واثبات طيبة الله المطلقة** وليس الحث على البحث واثارة العواطف **والا لما ثار سارتر على برنشفيج** آخر ممثلى المثالية والتفاؤل الألمانى فى فرنسا فى هذا القرن .

يتصور ياسبرز العلم الحديث قائما على ثلاثة أفكار: **فكرة الخلق ، صورة الألوهية ، مطلب الحقيقة !** وتظهر هذه الأفكار كدوافع باطنية تحرك العلم حتى ولو اهتز بالايمان التقليدى كما حدث ابان عصر النهضة . لقد استطاع اليونان تأسيس العلم بقدر ماسمحت لهم الحرية الطبيعية ولكن الغرب استطاع تأسيس العلم – فى رأى ياسبرز – بدافع لا نهائى وهو البحث عن الحقيقة كدافع مسيحى أصيل وهو العلم الذى يأخذ « الشامل » موضوعا له يغوص فيه الموضوع والذات معا . **تصور ياسبرز للعلم هو التصور اللاهوتى الذى يجعل العلم وسيلة لكشف الذات الباطنة حتى يجد الله قابعا فيها أى أنه علم الاخلاق لا علم الطبيعة** أو علوم التصوف التى تؤدى الى الله لا علم الاصول الذى يشرع للواقع كما هو الحال عند المسلمين . **يريد ياسبرز القضاء على أهم مكاسب عصر النهضة والعصور الحديثة وهو تصور العلم الطبيعى وتأسيسه على العقل والتجربة** . يمكن القول ان العلم الغربى هو بحث عن العقلانية والتنظير بعد أن أضاعهما اللاهوت وهو كشف للواقع بعد أن غلفه اللاهوت برموزه وعقائده وأن الفلسفة الغربية كشف للعقل النظرى وقدرته على الادراك **واتخاذ نظرة حلولية للطبيعة ورفض كل علو وتجاوز ، ولكن العلم الحديث** يرفض تسمية مكاسبه **بالمسميات الدينية القديمة والا وقعنا فى التصور اللاهوتى للعالم** Théologisme ، ويرفض اعتبار ثورته دافعا دينيا كافيا ولا يرضى الا بمفاهيمه الجديدة العقلانية الشاملة المفتوحة . يريد ياسبرز بدل أن يفتح العالم عينيه على الطبيعة أن يقيم علما وجوديا يدرس أعماق الذات وبدل أن يكتشف قوانين الطبيعة **يضع قواعدا للسلوك فى الحياة.** يتهم ياسبرز العلم بأنه قد ألغى الله من حسابه حتى يظن العالم بلا خالق ولا يكون أمام الانسانية حينئذ الا احتمالات ثلاثة : الولاء للبحث العلمى وللعالم المكتفى بذاته دون أن يكون له أى أساس خارجى ، أو عدم احتمال هذا العالم والرغبة فى البحث عن الحقيقة دون الحصول عليها والانتهاء الى العدمية أو عدم احتمال هذا العالم والرغبة فى البحث عن الحقيقة والحصول على سند يقينى ، وهذا الاحتمال الثالث هو الذى يعمل ياسبرز على تحقيقه ويراه فى التصور المسيحى العام !

ثالثا : هل فلسفة نيتشة فلسفة مسيحية ؟

عرض ياسبرز فلسفة نيتشة بطريقتين : **طريقة النفى** التى يرفض فيها نيتشة كل أخلاق وكل حقيقة ، فنقد الاخلاق مستوى رفيع من الأخلاقية ، وانتحار الأخلاق مطلب خلقى أسمى ، والشك فى كل حقيقة فعل صادق . **وطريقة الاثبات** وهو فى رأى ياسبرز طريق نيتشة الصحيح يضع فيه تصورا جديدا للعالم لا يبعد كثيرا عن التصور المسيحى ، يحاول ياسبرز عرض هذا التصور فى عدة نقاط موضوعية ومنهجية يفسرها تفسيرا مسيحيا خالصا وينتهى الى أن نيتشة ، بالرغم من عدائه الظاهر للمسيحية ، فانه يتبع فى الحقيقة فى كل مايقوله دوافع مسيحية أصيلة ، استعمل هذه الدوافع للصراع مع المسيحية ثم رفض كل العناصر الايجابية التى توصل اليها لمعارضة المسيحية ، وأهم هذه النقاط هى :

١ – يرى ياسبرز أن **المسيح هو نيتشة وأن نيتشة هو المسيح** ولما كان نيتشة هو ديونيزوس يصبح **المسيح هو ديونيزوس، وديونيزوس هو المسيح**، كان المسيح مخلصا لقواعد السلوك فى الحياة وكذلك كان نيتشة. كلاهما لم يرد أن يكون بطلا، كلاهما قضى على الأخلاق وجعل الله فيما وراء الخير والشر، كلاهما بحث عن السعادة، وجدها نيتشة فى العود الأبدى أى فى انكار الغائية التى يؤمن بها المسيح. ومع مايبدو من عدواة ديونيزوس للمسيح ونيتشة معا فان نيتشة فى نهاية حياته فى احدى نوبات جنونه كان يسمى نفسه «**ديونيزوس المصلوب**». والحقيقة أن التعارض بين نيتشة والمسيح، وبين ديونيزوس والمسيح أكبر من أن يستطيع ياسبرز الغاؤه، فموت المسيح على الصليب يرمز لنهاية الحياة ويكون اتهاما لها أما تقطيع ديونيزوس اربا فانه يرمز الى **الحياة المتجددة** بلا انقطاع ويشير الى عنصر الدراما فى الحياة الانسانية. وبمنهج ياسبرز هذا يستطيع كل فرد أن يكون هو المسيح سواء كان معه أو ضد.

٢ – يرى ياسبرز أن **نيتشة ينتهى من صراعه مع المسيح الى الاتحاد به** وهو خصمه بالرغم من صيحة نيتشة «امحتوا هـــذا الوضيع!» ومن ثم لا يبقى خصـــما له ويصير نيتشة وخصمه شخصا واحدا! وبهذا المعنى تكون الماء نارا والملاك شيطانا.

٣ – بعد أن يعرض نيتشة مجموعة الأشياء المتعارضة ينتهى برفضها أو التوفيق بينها **وجمع المتناقضات فى شىء واحد** وهو مايتصف به المسيح مثل: الله والانسان، الادانة والبراءة، الموت والبعث، قيصر والمسيح! يرى ياسبرز أن هذا الاتحاد يتم لحساب الله والادانة والبعث والمسيح ويرى العصر الحاضر أن هذا الاتحاد يتم لحساب الانسان والبراءة والموت وقيصر.

٤ – يرى ياسبرز أن **نيتشة فى نفس الوقت فيلسوف التطرف وفيلسوف الوسط المناسب**. هو من أنصار التطرف لأن التعارض يؤدى الى التطرف يحتاج اليه الضعفاء ولذلك كان الله «فرضا متطرفا للغاية يلجأ اليه الضعفاء» (نيتشة والمسيحية ص ١٠٥). أما أنصار الوسط فهم لا يحتاجون الى شىء من عقائد الايمان ولايحتاج رافضة الاخلاق الى أى كذب أو تمسح بالاخلاق والدين، وهكذا يقضى ياسبرز على دعوة نيتشة ويجعله من أنصار أنصاف الحلول والسلام والسكينة وبالتالى يمكن تقبل المسيحية باعتبارها حلا وسطا تضع الله والانسان معا فى حسابها.

٥ – بعد أن جعل ياسبرز نيتشة من أنصار الاعتدال **نسب اليه مذهبا شاملا يجمع كل شىء ولا يفضل المسيحية على العدمية أو العدمية على المسيحية**، ويحتج لذلك بأن عمله لم يتم نظرا لمرضه وموته المبكر. وفكر نيتشة هو الحركة نفسها أى الفكر الذى لا ينتهى الى نتيجة ما، يتجول فى كل مطلق. يفسر ياسبرز نيتشة على هذا النحو ليبرر عدم وضع نيتشة لقيم ومثل جديدة وليخفف من قلبه القيم والانتهاء الى العدمية.

٦ – يفرق ياسبرز بين **فلسفة نيتشة الظاهرة** التى هى أقرب الى التحليل النفسى الذى يهدف الى ازاحة الأقنعة وبين **فلسفته الباطنة** التى يمكن التعرف عليها بعد جمع العبارات المتناثرة حول موضوع واحد حتى ولو كانت متعارضة **للتعرف** على طريقة التفكير ووضع المشاكل. ومن ثم يتضح أن عداء نيتشة للمسيحية ليس كعداء غيره بل يقوم على دوافع فلسفية قوية. لذلك لا يجب الوقوف على نظريات نيتشة الواحدة بعد الأخرى بل يجب التعرف على مسار فكره. يطالب ياسبرز بعدم الالتفات الى نقد نيتشة للمسيحية ويكفينا لذلك مسار فكره العام وعلى هذا النحو يكون نيتشة أقرب الى الدفاع عن المسيحية من الهجوم عليها!

٧ – تعترض الدراسة على هذا النحو صعوبتان: **الاولى العبارات المتناثرة** التى قد تحتوى احداهما على بيان ايمان نيتشة بالمسيحية، **والثانية اعماله الفلسفية التى تعبر عن مرضه** وعن انفعالاته الحادة ومن ثم يمكن الشك فى جديتها وأصالتها النظرية وبذلك يصعب الخروج منها برأى واحد لنيتشة من هذا الخضم المتناثر. ولكن كيركجارد وبسكال وأوغسطين فلاسفة من نفس الطابع وأمكن الوصـــول الى نظريات متسقة لهم وليس نيتشة بدعا بينهم.

٨ – لا يعتبر ياسبرز نيتشة نموذجا للفلاسفة بل **استثناء** وبالتـــالى فكل ما يقـــوله يكون فـــريدا شـــاذا عجيبا غريبا لا يتفق عليه الجميع ولا يصدر عن عاقل! وهؤلاء الفرادى يجرون العالم معهم الى كارثة على مايقول ياسبرز! فنيتشة لديه مغامر يعرض نفسه للأخطار دون حماية كافية، دوامة لا تهـدأ مثل فاجنر، لا يريد الا التوتر مثل دستويفسكى ولوثر. فبعد أن جعل ياسبرز نيتشه شاذا على القاعدة يذكر له نظراء ليخفى غرضه وهو التشكيك فى شخصه كفيلســوف وفى أعماله ككاتب وفى آرائه كمفكر وفى آثاره كنبى للعصر.

٩ – يذكر ياسبرز أنه **مثل نيتشه** وله مثل تجاربه ولكنه ليس من أتباعه أى أنه يريد أن يقاسم نيتشه فى الثناء عليه من أنصاره ثم يتجنب الهجوم عليه من أعدائه.

١٠ – كل من يعكف على نيتشه لابد أن تكون لديه الثقة الكافية بنفسه وأن تكون له الحرية التى يستطيع بها مقاومة اغرائه لان نيتشه يوقع فى الغواية وتصيب اللعنة من يقرؤه: «لا أريد أن أكون نورا لأناس اليـــوم، ولا أريد منهم أن يســموني نـــورا بل أريد أن أفقأ أعينهم، بريق حكمتى يفقؤها» وهكذا يحذر ياسبرز القراء من نيتشه الذى جعله مسيحيا رغما عن أنفه حتى لا يقعوا فى غوايته وحتى يحافظوا على ايمانهم بالتراث القديم بكل مافيه من عقائد وقيم متوارثة. **لم يكن غرض ياسبرز من تفسير نيتشه مسيحيا دفاعا عنه وارجاعا له الى حظيرة المسيحية بل ودفاعا عن المسيحية التاريخية ضد هجمات نيتشه عليها مع أن نيتشه لم يبغ الا تصفية الايمان مرة واحدة والى الأبد بعد ان حاولت الفلسفة الحديثة اصلاحه مع الابقاء عليه.**

ولايسعنا أخيرا الا أن نقول ان الفرق بين موقف نيتشه **وياسبرز من المسيحية هو الفرق بين الصراحة والنفاق.**

حسن حنفى

فكر اشتراكى

دور الإعلان فى مجتمعنا الاشتراكى

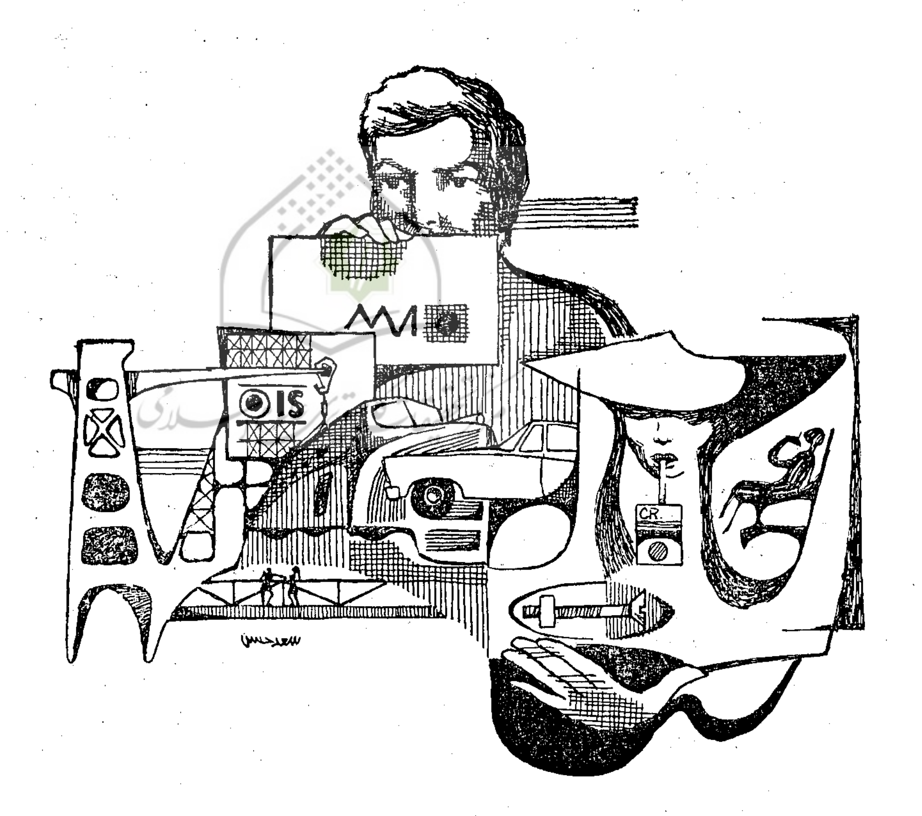
د. سمير حسين



شهدت السنوات الأخيرة التى أعقبت التحول الاشتراكى فى مصر عام ١٩٦١ خلافا فكريا بين خبراء الاقتصاد والاعلان فيما يتعلق بالدور الذى يمكن أن يقوم به الاعلان فى المجتمعات الناميه التى تتبع الأسلوب الاشتراكى مثل جمهوريتنا ، بل بالنسبة لضرورة وجود الاعلان أو عدم ضرورته ، وانقسم هؤلاء الخبراء الى فريقين متعارضين يذهب الفريق الأول منهما الى ان الاعلان ليس ضروريا فى الدول الاشتراكية النامية لأنها تعتمد على التخطيط وتتوازى أو تقل فيها كمية الانتاج عن الاستهلاك ، كما أن ظروف الدول الاشتراكية النامية ــ خصوصا فى المراحل الأولى من عملية التنمية ــ تحتم زيادة فى العمالة، يستتبعها زيادة فى الاجور . وبالتالى زيادة فى الاستهلاك ، مما يخلق فى هذه المجتمعات موقفا يكون فيه العرض أقل من الطلب ، وتصبح المشكلة مشكلة ندرة ويصل هذا الفريق من الخبراء الى نتيجة مؤداها أن الاعلان فى مثل هذه الظروف ينتفى دوره ، ويعتبر ــ فى حالة اتباعه ــ تبديدا للموارد فى وظيفة ليس لها هدف ثابت أو مؤكد فى هذه المرحلة من النمو .

ويذهب الفريق الثانى من هؤلاء الخبراء الى أن الاعلان فى المجتمعات الاشتراكية النامية ضرورة من ضرورات تحقيق التنمية الاقتصادية، وان الاعلان جزء من وظيفة التسويق التى تقوم بها الدولة الاشتراكية النامية لتصريف منتجاتها فى الداخل والخارج بطريقة تؤدى الى احداث التوازن بين الانتاج السريع والمتزايد فى ظل ظروف التنمية السريعة ، وبين امكانية تسويق وتصريف هذه المنتجات فى الأسواق الداخلية والخارجية ، ومحاولة التحكم فى المتغيرات العديدة التى تطرأ على هذه الاسواق وتتحكم فيها ، والرغبة الدائمة فى توسيع رقعة هذه

والخارجية التى يتوقع تصريف الزيادة فى الانتاج فيها ، ومن هنا ينبع المنطق القائل بأن مشكلة الدول النامية هى مشكلة انتاج وليست مشكلة تسويق أو دراسات تسويقية ، وهو نوع المنطق الساذج المتضارب ، اذ أن من أولى مقتضيات زيادة الانتاج القومى وضروراته تحديد نمط الزيادة المرغوبة فى الانتاج ووضع أو تخطيط التوقيت الزمنى لأحداث هذه الزيادة على أساس دراسة الأسواق الداخلية والخارجية ، وتقدير احتياجاتها ، وقياس مدى قدرة الجهاز الانتاجى الحالى والمستقبل على استيفاء هذه الاحتياجات .



الأسواق لتفادى أزمات تراكم المخزون التى تهدد عملية التنمية الاقتصادية التى تقوم بها الدولة .

ويذهب هؤلاء الخبراء الى أن معظم الدول النامية تتجه الى تركيز جهودها فى زيادة الانتاج القومى ، ويصاحب هذا التركيز عادة قلة الاهتمام باجراء دراسات الأسواق الداخلية

ومن هنا تبدو أيضا ضرورة الاهتمام بوظيفة التسويق ومعالجة مشاكلها بنفس الأهمية التى نعالج بها مشاكل الانتاج حتى نضمن توجيه الموارد حسب الطلب الحالى والمستقبل ، لكى لا يزيد العرض على الطلب زيادة كبيرة ومتراكمة فينشأ عنه تعطيل الطاقة الانتاجية وضياع الجهد والتكاليف التى تؤدى الى خسارة

المشروعات أيضا من جراء فقدان الارباح التى كان يمكن تحقيقها اذا وصل الانتاج الى حجم الطلب .

وينتهى هؤلاء الخبراء الى ضرورة وضع تخطيط تسويقى فى مجتمعنا يهدف الى ضمان اشباع حاجات ورغبات الأفراد الموجوده والمستقبله من الطاقات الانتاجية الموجودة والمستقبلة أيضا باعتبار أن ربط الخطة التسويقية بالخطة الانتاجية امر اساسى وجوهرى ييسر على المستهلكين استيعاب الانتاج المتزايد ، فيسهم بطريق مباشر فى دفع عجلات الانتاج .

والواقع أن الصراع بين هذين الرأيين يجعلنا نتساءل عن حقيقة الدور الذى يلعبه الاعلان فى المجتمع الاشتراكى ، ومدى فعالية هذا الدور ، والشكل والمضمون اللذين يجب ان يتخذهما الاعلان لتحقيق الأهداف التى تسعى الدولة الاشتراكية ومنشآت الانتاج والخدمات والتوزيع بها الى تحقيقها .

وفى تقديرنا أن النظرة السلبية الى الاعلان من بعض الخبراء ناتجة من الخلط بين النظر اليه باعتباره غاية في حد ذاته أو باعتباره وسيلة، ذلك أن الاعلان فى حقيقة الأمر ليس غاية ولكنه وسيلة لتحقيق عدد من الغايات والأهداف وعلى هذا الأساس فلا يعتبر الاعلان اداة رأسمالية او اداة اشتراكية ، وانما يعتبر — فى حقيقة الأمر — اداة محايدة يمكن استخدامها استخدامات تحقق الأهداف التى يسعى اليها المجتمع ككل والمنشئات المعلنة فيه وفق الظروف والسياسات العامة .

وبالتأمل فى سجل التطبيق فى عديد من الدول ذات النظام الاشتراكى يمكن أن نحدد ثلاثة اتجاهات متعاقبة حكمت نظرة هذه الدول الى الاعلان وامكانية استخدامه فى النظم الاشتراكية

ويرتبط الاتجاه الأول ببداية مرحلة التطبيق الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الشرقية بوج عام حيث كانت النظرة السائدة الى الاعلان فى المرحلة الاولى نظرة سلبية للدور الذى يمكن أن يقوم به ، باعتبار أن الاعلان يقترن بالرأسمالية وبالتالى فان نظرة السياسة الحكومية له لا تعدو واعتباره ظاهرة أو وسيلة رأسمالية لا محل لها فى المجتمع الاشتراكى .

أما الاتجاه الثانى فيرتبط بالمراحل المتوسطة فى عملية التطبيق الاشتراكى حيث تدل سجلات هذا التطبيق فى الدول الاشتراكية على أنه فى الوقت الذى عارضت فيه السياسه الحكوميه مبدا الاعلان التجارى عموما واجهت تجربه التطبيق الاشتراكى عددا من المشكلات كالاختناقات ، والاختلال فى التوازن فى بعض الاسواق ، والصعوبه فى الوصول الى اهداف معينه ، وميول بعض الجماعات العامله فى اتجاهات لا تحابى خطه التنميه الاشتراكيه ، ولم يكن من سبيل لمواجهه هذه المشكلات الا بالاستعانة بالاعلان وبأسلوب الحملات الاعلانية المركزية التى تقوم بها الدوله ، وعلى هذا يمكن القول بأن راسمى السياسة الاشتراكية فى هذه الدول — على مستوى الايديولوجيه — اعترضوا فى بادىء الامر على الاعلان كأداه ، ثم اكتشفوا بعد دخولهم فى غمار التطبيق الاشتراكى ومواجهتهم لمشاكل التنفيذ حاجتهم الى الاعلان فى شكل سلسلة متلاحقة من الحملات لمواجهه هذه المشكلات ، وذلك بغرض القضاء على الاسراف مثلا ، أو لضغط استخدامات معينة من المواد الخام النادرة ، أو للتأثير على سلوك المستهلكين أو العاملين فى اتجاهات معينة ، أو لتشجيع انواع معينة من الاستهلاك لمواجهه مشكلات معينة تتمثل فى تراكم انواع معينة الواضح لمبدأ الاعلان التجارى ، واستبعاث من المخزونات .

أما الاتجاه الثالث — وهو الاتجاه الحديث فى النظرة الى الاعلان — فيرتبط بحركة الاصلاح الادارى فى هذه الدول ، ويبدو فيه القبول الواضح لمبدأ الاعلان التجارى ، واستخدام الاعلان كأداة أساسية من أدوات التخطيط الاشتراكى ، مع تحديد الاستخدامات الجديدة للاعلان كأداة من هذه الأدوات .

دور الاعلان فى مجتمعنا الاشتراكى :

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن ظروفنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تتطلب ضرورة تغيير الدور الذى كان الاعلان يقوم به فى مجتمعنا قبل عام ١٩٦١ واستخدامه — كوسيلة — استخداما رشيدا فى خدمة اهداف خطة التنمية مع الايمان بأهميته باعتبار اننا قد بدأنا التطبيق العربى للاشتراكية فى وقت متأخر نسبيا عن التجارب الاشتراكية الأخرى فى العالم ، مما يتيح لنا فرصة الميزة النسبية لمن يتخلف فى الاستفادة من أخطاء الآخرين

وبالتالى في النظر الى الاعلان النظرة الصحيحة — التى أخطأتها التجارب الاشتراكية الأخرى فى بداية التطبيق — منذ البداية وتوجيهه الى الاستخدامات التى تتفق واحتياجات مرحلة التنمية التى يمر بها مجتمعنا ، ويتطلب هذا بالضرورة رسم حدود معينة للدور الذى يمكن أن يقوم به الاعلان فى مجتمعنا بما يتمشى مع الأهداف القومية التى رسمتها الدولة فى تخطيطها القومى اقتصاديا واجتماعيا ، وسياسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية المتبعة ويمكن أن نبلور حدود الدور الذى يمكن أن يقوم به الاعلان في مجتمعنا فى الوظائف التالية :

١ — الاعلان يؤدى الى تطوير الأنماط الاستهلاكية وترشيد الاستهلاك :

يقصد بالأنماط الاستهلاكية الطريقة التى تنفق بها كمية من النقود على أنواع السلع والخدمات ، ويقصد بتطوير الانماط الاستهلاكية تغيير تركيب الانفاق الاستهلاكى الكلى بمعنى زيادة الانفاق أو نقصانه على مجموعة من مجموعات السلع والخدمات بشكل يساعد على زيادة معدل التقدم الاقتصادى ، ويؤدى تطوير الانماط الاستهلاكية أو ترشيد الاستهلاك الى تحقيق عدة أهداف أولها توجيه الأنماط الاستهلاكية — خاصة القوة الشرائية الجديدة — الى أنواع أخرى من السلع والخدمات التى لا تقبل عليها ، بغرض أحداث التوازن بين مجموعات السلع والخدمات التى تقدمها الدولة، وبما يؤدى الى تقليل حدة الانفجار الاستهلاكى بالنسبة لمجموعة معينة من السلع أو الخدمات كالسلع الغذائية مثلا ، وثانيها توسيع الآفاق الاستهلاكية بمعنى تعريف مجموعات السكان التى تعيش تحت ظروف معينة كظروف الأمية وتغلغل العادات والتقاليد كما هى الحال فى الريف المصرى بالأنواع الجديدة من السلع والخدمات بما يتيح لهم امكانية استخدامها ، وادراك قيمتها ، والمنفعة المترتبة على استعمالها. وثالثها توجيه الاستهلاك الى المنتجات العربية التى تحل محل الواردات الأجنبية ، مع العمل على تدعيم الثقة بهذه المنتجات ، خاصة بعد قفل باب الاستيراد بالنسبة لمعظم مجموعات السلع والمنتجات الأجنبية ، بما يؤدى الى تدعيم حركة التصنيع المحلى ، ورابعها حل بعض مشكلات تراكم المخزون بالنسبة لأنواع معينة من السلع والمنتجات عن طريق زيادة الاعلان عنها بما يؤدى الى توجيه المستهلكين الى الاقبال عليها واستخدامها وبالتالى تحقيق التوازن بين السلع المنتجة وتسهيل توزيع هذه السلع .

٢ — الاعلان يعمل على زيادة التصدير :

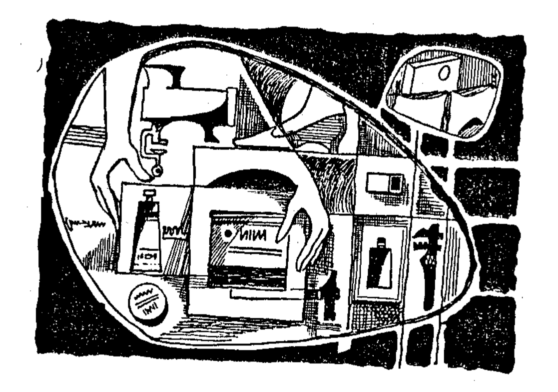
تهدف الدولة الى زيادة صادراتها الى الخارج ، وتوسيع رقعه الأسواق الخارجية التى تتعامل معها ، وارتياد أسواق خارجية جديدة الى جانب الأسواق التقليدية التى تتعامل معها.

ويلعب الاعلان دورا هاما فى الدعاية لمنتجاتنا فى الخارج ، وتقديمها للمنشآت المشتغلة بالاستيراد فى الدول الاجنبية ، وتقوية مركز منتجاتنا العربية فى الأسواق الخارجية سواء التقليدية منها أو الجديدة أمام السلع الأجنبية المنافسة لنا — عن طريق الحملات الاعلامية المنظمة — ومحاولة فتح أسواق جديدة أمام صادراتنا .

ولا شك أن هذا الدور يزداد أهمية أمام عدد من المتغيرات من أهمها اختلاف ظروف السوق الخارجية عن ظروف السوق الداخلية بالنسبة **لانواع المنتجات المطلوبة ، وخصائص المستهلكين** ومستويات التسعير وطرقه ، وأشكال ودرجات المنافسة وطرق الترويج المستخدمه وظهور التكتلات الاقتصاديه كالسوق الأوروبية المشتركه وغيرها قبل أن تسنح لمنتجاتنا فرصة توطيد أقدامها فى البلاد المنتميه الى هذه الأسواق . وفضلا عن ذلك فان مركزنا بالنسبة لأسواق البلاد المستقلة حديثا — ومعظمها من البلاد المتخلفة اقتصاديا — لا يتمتع بنفس القدرة التنافسية التى تملكها البلاد الصناعيه المتقدمة ، مع الأخذ فى الاعتبار بالجهود التى تبذلها اسرائيل في النشاط التجارى والتغلغل الاقتصادى فى أسواق أفريقيا وبعض دول آسيا بغرض عرقلة النشاط التجارى العربى وفرض سيطرتها على معظم هذه الأسواق .

وقد أوصى مؤتمر الانتاج بعدة توصيات بشأن تنمية الصادرات من أهمها ضرورة اضافة سلع جديدة الى السلع التى يتم تصديرها حاليا ، وضرورة تخصيص حصة من انتاج كل شركة — كلما أمكن — للتصدير وعلى أن يوجه جانب منها الى أسواق العملات الحرة ، وهذا ليس فقط بغرض زيادة حصيلة صادراتنا وانما أيضا لتطوير المنتجات المحلية وجعلها فى مستوى الانتاج العالمى من حيث الجودة والسعر .

ومن هنا يبرز الدور الهام الذى يمكن أن يؤديه الاعلان فى زيادة صادراتنا وفتح الأسواق الخارجية امامها .



٣ ــ الاعلان يحقق عوائد اقتصادية :

تتمثل أهم العوائد الاقتصادية التى يمكن أن يحققها الاعلان فى عائدين اولهما سرعة وسهولة تصريف المنتجات مما يؤدى الى عدم احداث فجوة زمنية بين الانتاج والتوزيع بحيث يقلل من فترة التخزين ومصاريفه ، كما يقلل من نسبة الاضرار الناتجه عن تراكم المخزون ، اما العائد الثانى فيتمثل فى زيادة توزيع المنتجات وزيادة رقم المبيعات مما يؤدى الى تخفيض ثمن الوحدة المباعه نتيجة لتوزيع التكاليف الثابتة على عدد أكبر من الوحدات ، ويؤدى التخفيض فى تكاليف الانتاج الى تخفيض سعر السلعة للمستهلك ، وبالتالى الى زيادة الاستهلاك بالنسبة للسلع عامة، وللسلع التى يمكن تصديرها بصفة خاصه الى درجة تسمح بجعل الانتاج المحلى اقتصاديا لدرجة تمكن من التصدير وتضعه فى مركز ممتاز بالنسبة للسلع الأجنبية المنافسة .

٤ ــ الاعلان يساعد القطاع الخاص على تأدية دوره فى خطة التنمية : ــ

نص الميثاق الوطنى على أن الأهمية الكبرى المعلقة على دور القطاع العام لا يمكن أن تلغى وجود القطاع الخاص ، ان القطاع الخاص له دوره الفعال فى خطه التنمية من أجل التقدم ولا بد له من الحماية التى تكفل له أداء دوره ، والقطاع الخاص الآن مطالب بأن يجدد نفسه، وبان يشق بعمله طريقا من الجهد الخلاق لايعتمد ــ كما كان فى الماضى ــ على الاستغلال الطفيلى .

وقد رسم الميثاق دور القطاع الخاص فى الانشطة الاقتصادية على أساس أن يسهم فى الصناعات الخفيفة وأن يتحمل عبء ربع الصادرات ، أما بالنسبة للتجارة الداخليه فيتحمل عبء ثلاثة ارباعها ليكون المجال فسيحا فى ميدان التجارة الداخلية للنشاط الخاص والتعاونى .

والواقع أن قيام القطاع الخاص الى جانب القطاع العام أمر ضرورى لخلق جو من المنافسة البناءة بين القطاعين تستهدف زيادة الانتاج وتحسينه وتنويعه وخفض التكاليف والأسعار، وهكذا نجد أن الاعلان يلعب دورا كبيرا فى امكان قيام القطاع الخاص بالمنافسة المطلوبة ،وبالتطوير اللازم ، خاصة وان مجال التصدير ــ الذى يسهم فيه بنسبة الربع ــ يستدعى ضرورة القيام بالحملات الاعلانية المستمرة للدعاية لمنتجاتنا فى الخارج ، وتثبيت أقدامها أمام المنافسة الأجنبية، وفتح الأسواق الجديدة أمامها .

ولما كان القطاع الخاص يضطلع بثلاثة رابع التجارة الداخلية ، والتى تمثل سلع الاستهلاك اليومية والشائعه الاستعمال والسلع المعمرة فان الاعلان يعتبر ــ بالنسبة له ــ من الزم الضروريات لتسهيل تصريف هذه السلع وتسويقها ، ومد الخدمة التسويقية فى مجال التجارة الداخلية الى معظم انحاء الجمهورية .

٥ ــ الاعلان يؤدى الى زيادة المدخرات :

يمثل نقص المدخرات القومية مشكلة من أهم المشكلات التى تعانى منها الاقتصاديات المتخلفة ــ ومنها الاقتصاد المصرى ــ كما يعتبر توفير المدخرات اللازمة شرطا أساسيا للقيام بعملية التنمية الاقتصادية حتى يمكن القول أن عملية

التنمية تعتبر ــ بصفة أساسية ــ عملية تراكم المدخرات ، وأن نظرية النمو لا تعدو أن تكون بصفة أساسية نظرية لتراكم رأس المال .

وان احدى الشعب الحيوية التى تشكل المعادلة الصعبة هى كيف يمكن ان نزيد المدخرات من أجل الاستثمارات الجديدة ، والاعلان ــ الى جانب الوسائل والاجراءات الأخرى التى تقوم بها الدولة ــ يمكن أن يؤدى دورا تعليميا كبيرا فى هذا المجال عن طريق توعية الجماهير على الادخار ، وبيان الفائدة التى يمكن أن تعود على الفرد والمجتمع نتيجة زيادة المدخرات ، وتدل البيانات التى خلصنا اليها من أحد البحوث الميدانية لنا عن تحليل الانفاق على الاعلان فى الصحف على ازدياد نسبة الانفاق الاعلانى على الادخار سواء فى قطاع التأمين أو البنوك ، أو صندوق توفير البريد ، مما أستتبع زيادة المدخرات بنسبة كبيرة ، مما يؤكد أهمية الاعلان وفعاليته فى امكان زيادة المدخرات .

٦ ــ الاعلان فى المجتمع الاشتراكى يؤدى وظيفة اعلامية :

لا يقتصر الدور الذى يقوم به الاعلان فى مجتمعنا على الاعلان عن السلع والمنتجات والخدمات فقط ، وانما ينبغى أن يتعدى ذلك الى اعلام مختلف فئات الشعب بالمشروعات الجديدة التى تنشأ ، والمصانع الجديدة التى تفتتح ، والتطوير المستمر للمشروعات القائمة ، ومدى ماتسهم به هذه المشروعات فى تقدم المجتمع ونموه ورفاهيته ، وهكذا يسهم الاعلان الاعلامى فى توصيل فلسفة العمل الوطنى التى ينص الميثاق على أنها يجب أن تصل الى جميع العاملين فى الوطن فى كافة المجالات ، بل يجب أن تصل اليهم بالطريقة الأكثر ملاءمة لكل منهم ، والاعلان ــ بوسائله المختلفة من صحف ومجلات ودوريات وكتيبات ونشرات وسينما وراديو وتليفزيون وملصقات وبريد مباشر ــ يؤدى الى توصيل هذه الفلسفة بالطريقة الملائمة لجموع المواطنين فى مختلف أنحاء جمهوريتنا .

أخطاء سياسة الاعلان الحالية :

هذه بصفة عامة هى الوظائف الأساسية للاعلان فى المجتمعات الاشتراكية النامية ، وهى نوع الوظائف التى تقابل احتياجات أو مشكلات معينة مثل تلك التى يتعرض لها مجتمعنا فى فترة تحوله الاشتراكى .

على أن هناك الى جانب ذلك مجموعة أخرى من الاعتبارات الأساسية التى تتمثل فى كون القطاع العام فى مصر هو المعلن الأول فى وسائل النشر المختلفة ، وان استخدامه للاعلان يتزايد باستمرار نظرا لقيامه بالعبء الاكبر فى الانشطة الاقتصادية المختلفة ، وان الدولة ــ باصدارها قانون تنظيم الصحافة ــ قد نقلت ملكية الصحف الكبرى من الملكية الفردية الى الملكية العامة بغرض تحرير الصحافة من سيطرة رأس المال واعطائها الحرية الكافية لممارسة نظرية المسئولية الاجتماعية مع غيرها من وسائل الاعلام الأخرى ، فضلا عما دلت عليه التجارب السابقة فى النظم الاشتراكية من أن الدولة هى التى تتولى الاعلان وفق سياسات مركزية تتمشى مع أهداف خطة التنمية بعكس الاعلان فى المجتمع الرأسمالى الذى يتولاه الافراد وأصحاب رءوس الأموال وفق سياسات المشروع الرأسمالى وأفراده .

فاذا نظرنا الى الحقائق السابقة مجتمعة سنجد ان الدولة هى التى تضع خطة التنمية على المستوى المركزى وتشرف فى الوقت نفسه على ادارة القطاع العام بغرض تنفيذ هذه الخطة عن طريق التنظيمات الخاصة به ، فضلا عن اشرافها على الصحف وتوجيهها لها وفق ما تقتضيه المصلحة العامة فى اطار من نظرية المسئولية الاجتماعية التى تنتهجها الصحافة .

ولما كان الاعلان وسيلة من وسائل الاسراع فى تنفيذ خطة التنمية ومعالجة بعض العيوب التى تعترض تطبيقها ، فضلا عن الاستخدامات الهامة له ، فلقد وجب أن تقوم الدولة بنفسها بالاشراف على الاعلان وتوجيهه الوجهة الصحيحة التى تتيح الاستفادة من الاستخدامات الجديدة له وفق سياسات مركزية ، ولكن الملاحظ انه حتى الآن لم تبادر الدولة الى تنظيم الاعلان وتوجيه استخدامه ــ كما تفعل فى سائر الأنشطة الأخرى كالصناعة والزراعة والتجارة والمال وغيرها ــ مما يدل على قصور السلطة المركزية لدينا عن ادراك أهمية الاعلان ودوره فى هذه المرحلة التى يمر بها مجتمعنا . ونحن بهذا لا نطالب بالحد من الاعلان أو تقييده ، بل على العكس نطالب بتغيير مفاهيمه وبعض وظائفه ، واستخدامه بطريقة ملائمة ومركزة ومتوازنة للاسهام بدوره كوسيلة هامة وفعالة . فقد لاحظنا أن الاعلان يتعارض ــ فى بعض الحالات ــ مع أهداف خطة التنمية ومع قيم مجتمعنا كأن يدعو الى اغراء المواطن بمزيد من الاستهلاك

بالنسبة لبعض السلع والمنتجات فى الوقت الذى تدعو فيه الدولة الى الحد من الاستهلاك منها **وتوجيه الاستهلاك نحو سلع بديلة أخرى، بالاضافة الى تزايد اعلانات المكاسبات ذات الصبغة الشخصية على حساب الاعلانات التجارية مما يتنافى مع مبادىء الاعلان وأهدافه ويؤدى الى انفاق المال العام فى غير المصلحة التجارية للمشروع، هذا فضلا عن اتخاذ الاعلانات الاعلامية نمطا فى التحرير يختلف عما يجب أن تهدف اليه من نشر الحقائق عن المشروع المعلن عنه، واصطباغها فى عدد كبير من الحالات بالصبغة الشخصية دون الموضوعية مما يقلل من فعالية الاعلان الى حد كبير، ويؤدى الى فقد ثقة القراء فى مثل هذه المشروعات وهو عكس ما يستهدفه الاعلان الاعلامى .**

وعلى هذا فان واجب الدولة اذن أن تتدخل فى رسم سياسة الاعلان وتوجيهها مثلما تتدخل فى رسم سياسة التخطيط والتنمية وتوجيهها بحيث ترتبط السياسة الاعلانية بسياسة التخطيط الاقتصادى والاجتماعى للدولة — سواء التخطيط طويل الأجل أو قصير الأجل — بالأهداف التى ترمى الدولة الى تحقيقها من ورائه والتى تسهم فى الاسراع فى تنفيذ الخطة ومعالجة بعض العيوب والانحرافات التى تصادفها أثناء التطبيق .

ويتطلب نجاح هذه الخطة المركزية ضرورة تضافر جهود المؤسسات العامة والشركات وأجهزة الاعلان فى هذا المضمار، بحيث تقوم المؤسسات العامة بالاعلانات الجماعية والتى تستهدف تنشيط الطلب الاولى على مجموعة السلع والخدمات التى تقوم الشركات التابعة لها بانتاجها وتقديمها بدلا من اقتصارها على القيام باعلانات المناسبات أو الاعلانات الاعلامية أو الرسمية، بالاضافة الى دورها فى رسم خطة جزئية للاعلان بالنسبة لكل شركة من شركاتها بحيث تتكامل — فى النهاية — الخطط التفصيلية للاعلان فى مختلف الشركات التابعة للمؤسسة فى خطة واحدة ترتبط أيضا بالأهداف المرسومة للمؤسسة لكى تتولى تحقيقها ضمن اطار الخطة القومية الشاملة، هذا فضلا عن الدور الرقابى الذى يجب أن تقوم به المؤسسة على اعلانات شركاتها من حيث نوعية الاعلان ومدى ملاءمة الوسيلة الاعلانية المستخدمة وكثافة الحملة الاعلانية، ولا يعنى ذلك تدخل المؤسسة في تفاصيل الاعلان فى شركاتها، وانما يستهدف تقييم الجهود الاعلانية التى قامت بها ومدى تحقيقها للنتائج المتوقعة أو قصورها وانحرافها عن الدور المرسوم للخطة الاعلانية .

أما دور الشركة فيتمثل فى تنشيط الطلب الثانوى أو الاختيارى على مجموعة السلع أو الخدمات التى تقدمها وذلك بابراز المزايا والفوائد الخاصة بالماركات المعينة التى تنتجها او بنوع الخدمة التى تقدمها وذلك في اطار الأهداف العامة للخطة العامة والخطط التفصيلية **دون جنوح بالاعلان الى استخدامات تتنافى مع هذه الخطط أو تزيد الاستهلاك بدرجة أكبر من الانتاج المتاح، مع التزام الاعلان بأخلاقيات معينة تستهدف عدم التغرير بالمستهلكين وعرض المزايا الحقيقية للسلعة أو الخدمة دون التهويل فى هذا المجال مما قد يخلق أثرا عكسيا لدى المستهلكين .**

أما وسائل الاعلان — وأهمها الصحافة — فانها تحتل الجانب الأقوى فى العلاقة مع المعلنين، وبهذا تستطيع أن تفرض عليهم بعض المبادىء او الأخلاقيات التى يجب أن تتوافر فى الاعلانات المنشورة أو المذاعة، **فتستطيع وسائل الاعلان — على سبيل المثال — أن تتفق فيما بينها على الاعراض عن نشر اعلانات المناسبات — الا فى بعض الحالات النادرة — والاعراض عن نشر بعض الاعلانات الاعلامية المبالغ فيها والاعلانات التى تتخذ الطابع الراسمالى فى تحريرها، فضلا عن اعراضها جميعا عن نشر الاعلانات الخاصة بالمعلن الذى يحاول ان يفرض آراءه على أية صحيفة أو وسيلة اعلانية منها أو أن يتحكم فى سياستها التحريرية بشكل أو آخر .**

كما نضيف الى ذلك ضرورة وجود قسم بكل وسيلة اعلانية للرقابة على الاعلان والتأكد من صحة ما جاء به من بيانات أو معلومات قبل نشره حتى لا يصبح الاعلان وسيلة للخداع أو الاحتيال أو ابتزاز الأموال، فكما تتأكد الصحيفة من صحة الاخبار السياسية والاجتماعيه قبل نشرها، عليها أن تتأكد أيضا من صدق الاعلانات التى تنشرها باعتبار ان الاعلان هو اخبار التجارة والمال والاقتصاد فى الصحيفة .

وعلى هذا الأساس يمكن أن يتكامل الجهد التخطيطى والتنفيذى والرقابى على الاعلان بين الحكومة والمؤسسات والشركات ووسائل الاعلان كل فى مجاله فى حدود الاطار العام لدور الاعلان فى مجتمعنا الاشتراكى، وفي ظل نظرية المسئولية الاجتماعية التى يجب أن تعمل وسائل الاعلان والاعلام فى اطارها .

سمير حسين

في اللحظة التى وطأت قدم « أرمسترونج » أول انسان أمريكى يهبط فوق القمر سطحه ، ترك العلم الحديث والتكنولوجيا بصماتهما عليه ، وأخرج الرائد لوحة عليها عبارة مختصرة لتكون دليلا على سلامة نية القادمين الى الكوكب ،وتصير قولا مأثورا يبقى مع آثار الامكانيـــات العلمية المتروكة ، وهى « لقد أتينا فى سلام من أجــل

ماذا جرى للحلم الأمريكى ؟



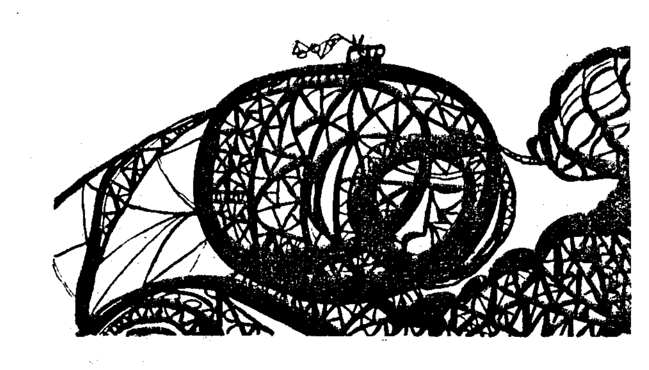
محمد على بركات

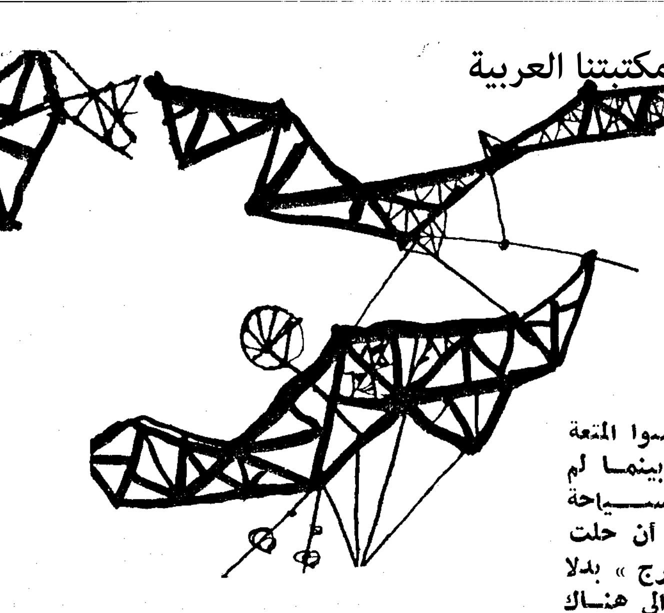
البشرية جمعاء » ، وذلك جريا مع العرف الامريكى الذى اعتاد خلق الأقوال الموجزة الملخصة لتجربة كبيرة فى ألفاظ قليلة تبسيطا للأمور ، ومن ثمة قال وهو يهم بالهبوط « انها خطوة قصيرة للانسان ووثبة عملاقة بالنسبة للبشرية » ، وبذلك رمزوا لتجاور العلم والحكمة ٠

وكان ما حدث فى حقيقته تحقيقا لأحد جوانب الحلم الأمريكى ، وكشـــفا عن طبيعـــة عصر التكنولوجيا الذى يحيا فى ظله ، ويخضع لسلطانه المواطن الامريكى ٠

ان حلم الأمريكى فى الوصول الى القمر صادق، وهو أحد التوقعات التى كان يتطلع اليهـا عبر المستقبل ، والتى نسجت خيوط الحلم المعبـــر عن آمال لا حدود لها ٠

لقد أمكن رواد الفضاء أن يقوموا « بمغامرة » دون « مخاطرة » ، وحينما هبط رائدا الفضـاء فوق الـكوكب ، كانت معهم وســائل التكييف والتأقلم والاجهزة التى نشروها وسرعان ما صار المكان « متأمركا » ، ونقلت شاشات التليفزيون





... الحدث العلمي الى جميع الامريكيين فأحسوا المتعة والسعادة لأنهم انتقلوا الى « هناك » بينما لم يبرحوا « هنا » ، وقصدوا وكالات السياحة ليحجزوا أماكنهم لزيارة القمر بعد أن حلت « السياحة » محل « الرحلة » و « التفرج » بدلا من « الاستكشاف » ، حيث يذهبون الى هناك ويشاهدون ما توقعوا أن يشاهدونه ، وكأنهم على معرفة مسبقة بما سيرون. وخرجت الصحف تحمل أنباء الحدث فى انفعال ، بعد أن ران على العالم سكون ورتابة وخلو من الشيق المثير ، وطول الف لأخطار الأرض ومنازعاتها ، فتكفلت التكنولوجيا الامريكية بخلق الحدث المحرك للفضول والمثير للانتباه ، والمفجر للحماس ، وخرجت « النيويورك تايمز » بأكبر حروف لعناوينها منذ صدورها قبل ١١٨ عاما لتحمل نبأ هبوط الانسان على القمر . وحل « أرمسترونج » فى ذيوع الاسم وانتشاره محل آخرين ، وبذا صنع لفترة اخرى مشهورا من المشاهير ليحل فى المجتمع الامريكى محل البطل العظيم بالمعنى التقليدى ، وعمت الفرحة الجميع لأنهم عاشوا هذا الحدث ، ودخلوا « الصورة » فصار لهم حق المباهاة والتفاخر بأنهم عاصروا هذه اللحظات ،

لكن ماذا وراء التكنولوجيا التى تحمل الانسان على اقتحام الفضاء والهبوط فوق القمر ؟ ما رد فعل الامكانيات الحديثة الوفيرة على عقل المواطن الامريكى ووجدانه ؟ هل تحققت آماله ؟ أشبعت تطلعاته ؟ هل « الصورة » التى يحلم بها اكتملت ؟ هل تحقق الحلم الامريكى أم ماذا جرى للحلم الأمريكى ؟ .

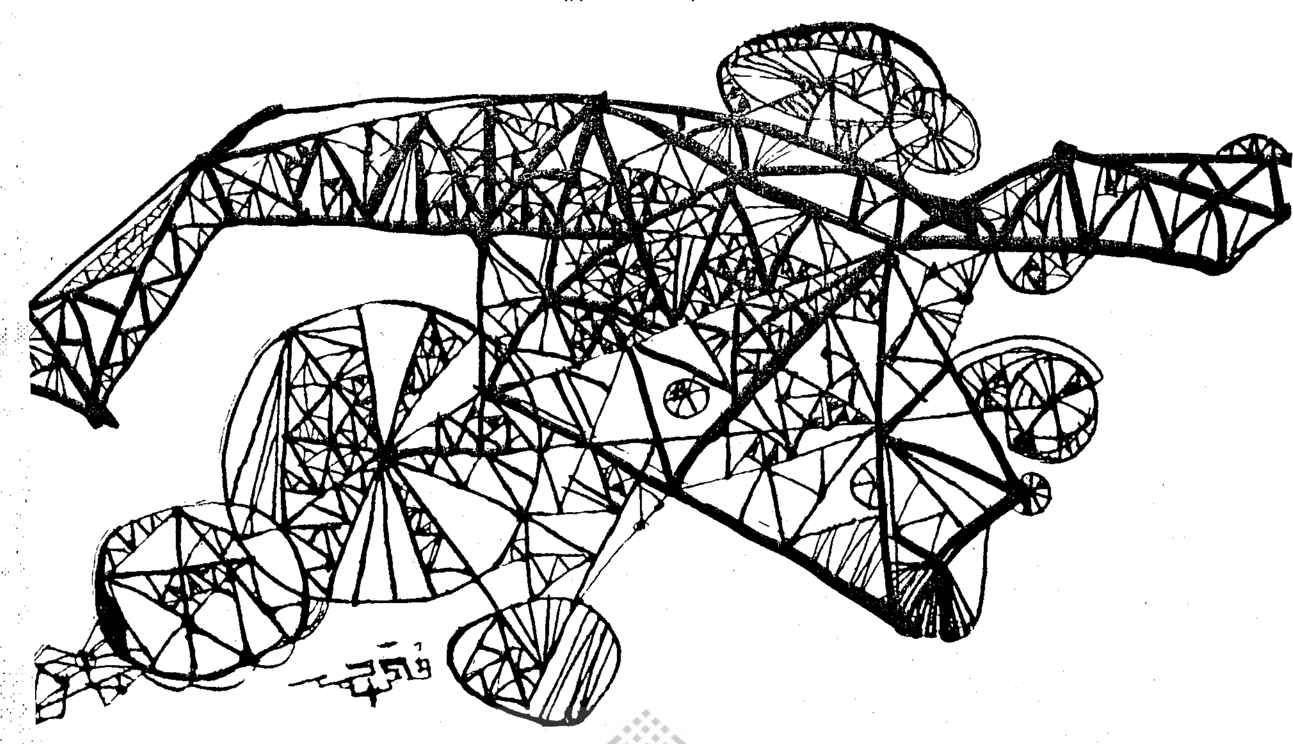
هذا التساؤل طرحه يوما « ادوارد البى » الذى اتخذ منصة يضع فوقها أمراض المجتمع الامريكى ويسلط عليها قلمه ليظهر التفسخ والتهافت ، ففى مسرحيته « الحلم الامريكى » يتناول بعض جوانب الحلم الامريكى الخادع ليبين الانفصام الفكرى والانشطار الوجدانى ، ويسخر من المثل العاطفية الكاذبة فى الأسرة الامريكية ، ويجسد الحلم الامريكى فى صورة شاب قوى العضلات ممشوق القوام جذاب الطلعة الخارجية ، خاو وسطحى الأعماق ، يلهث وراء المال ، يرمز للمثل الزائفة المنهارة التى طغت على القيم النبيلة الصادقة وقامت محلها .

فاذا كان هذا تفسير « الحلم الامريكى » عند « ادوارد البى » ، فان باحثا أمريكيا يقدم كتابا يتضمن دراسة فاحصة يغوص فيها أغوار المجتمع الامريكى ، ليستخرج أسباب الخداع والزيف الذى يسوده ، وعنوان كتابه « الصورة أو ماذا جرى للحلم الأمريكى ؟! » .

والمؤلف يواجه بصراحة عيوب مجتمعه ، ويجهر بمثالبه ، فتحس فى عرضه أنه « دراسة اعترافية » يعبر فيها عن حقيقة حال شعب فى جرأة ونزاهة ودون مواربة أو طمس لحقيقة . ويمحص خداع الذات الامريكى ، وكيف يخلق رجال الصحافة أخبارا لا وجود لها ، وتقدم السينما أبطالا « مفبركين » ، وتعد وكالات السياحة مغامرات دون مخاطرة ، وتضخم الاعلانات « اللا شىء » لتجعل منه « أى شىء » ويتحول النكرات الى أعلام ومشاهير .

والكتاب تحليل من الداخل لعقلية المجتمع الامريكى التكنولوجية ، حيث يبذل المواطن طاقته لتوفير الوسائل التى يخدع بها ذاته ، ويشارك فى خلق « الصور » التى تكونها الصحف ، والتليفزيون ، والسينما ، والاعلانات ، والكتب المختصرة ، والمجلات الملخصة وغيرها .

ومؤلف الكتاب دانيل ج. بورستين ، أستاذ



التاريخ الامريكي في جامعة شيكاغو ، وشغل عامي ١٩٦١ و١٩٦٢ منصب أستاذ كرسي مادة التاريخ الامريكي بالسوربون · وعمل محررا في المعارف البريطانية ، ويشرف على نشره « تاريخ الحضارة الامريكية » ، وحصل على جائزة «نانكروفت» لمؤلفه «أمريكا وتجربة الاستعمار» ، وله مصنفات هامة مثل «قانون العلم الغامض» ، و « عالم توماس جيفرسون المفقود » ، وغيرها ، وكلها أثارت الجدل عند صدورها · وهيأت له زياراته لمختلف الدول أن يصطبغ فكره بالعالمية ورأيه بالموضوعية التي مكنته أن يقف من أمريكا موقفا غير متحيز ·

والمؤلف يبحث عن جذور الاباطيل التي تعم المجتمع ، ويحلل أنواع الزيف والخدع التي تقدم للمواطن الامريكي ملبية رغباته ، ومشبعة تطلعاته ويحدد موضوع كتابه ومقصده ، انه « خداع الذات ، وكيف نواري الحقيقة عن أنفسنا ، انني لست في حاجة لأن أكون طبيبا لأعرف أن شخصا ما مريض ، ولكنني أعرف حالة الوهم عندعرضها أمامي ، وأميز الصورة الزائفة حينما أراها » ·

فالكتاب محاولة لكشف الخداع والغش ، وتحليل أخلاق المواطن الامريكي الذي يرى العالم من خلال انعكاسات مرايا الأجهزة الاعلامية التي تخلق « الصورة » وتمسخ « الحقيقة » ·

ان عملية افساد مفعول السحر ليست مهمة الكاتب ، ولكنها واجب القارىء ، واذا لم يستطع أن يزيل بعض الضباب ، فانه ربما استطاع مساعدة القارىء على كشف طريقه بنفسه ورؤية المنظر ليشق طريقه الذي يختاره ·

آمال جشعة

ان المجتمع الذي يترك أطماعه تمتد دون حدود ويتطلع الى المستحيلات ، يفضي به الامر الى تضخيم آماله ، واستفحال تطلعاته ، ومن ثمة يندفع في تهور سعيا وراء اشباع المطامع ، ويسوده الخداع والوهم الذي يتواطأ الجميع على اغماض الطرف عنه ، والمؤلف يعترف بذلك حينما يقول « انني أصف عالما من صنعنا ، وكيف استفدنا من ثروتنا ، وثرائنا ، وتكنولوجيتنا ، وتقدمنا ، في خلق الاباطيل التي ساقتنا الى خداع أنفسنا بشتى الوسائل ، التي تساعد على نمو أوهامنا النابعة من آمالنا الجشعة والمسرفة التي تتجاوز حدود العقل والاعتدال · اننا نتوقع أن نجد أشياء كثيرة في العالم ، نريد أن نتزود بالأخبار لحظة بلحظة ، من الجرائد في الصباح والراديو في سياراتنا ومكاتبنا ، وان يكون بيتنا مأوى للدفء والراحة والاستمتاع بالموسيقى والهوايات · نريد أن يكون المكان الذي نرحل اليه بعيدا عن وطننا « متأمركا » ، ونرى أبطالا كل موسم ، وتحفة أدبية كل شهر ، وعرضا دراميا كل أسبوع ، ونأمل أن نكون أثرياء وأقوياء ورحماء ومتناحرين ، ونأكل بشراهة ، ونحافظ

على رشاقتنا ، ونعم بالعزلة بين جيراننا • ان آمالنا تجمع بين التناقضات والمستحيلات ، وتسوقنا الى طلب الوهم الذى يؤدى الى خداع أنفسنا ، وندفع للآخرين كى يخدعوننا• وأصبحت صناعة الأوهام «مهنة» أمريكية من أعظم الأعمال احتراما • أنا نعيش أوهامنا التى ألفناها وأصبحت هى الحقيقة ، انها عالمنا الذى صنعناه ، انه عالم من « الصور » التى حلت محل « الحقيقة » •

أحداث مزيفة

فى عرض المؤلف لأنواع الاوهام التى يعيشها المجتمع الامريكى ، والتى تشكل « الصور » التى تخلق الحلم الامريكى ، يتناول الحوادث المزيفة التى ترتبت على الانتقال من انتقال الأخبار وجمعها الى صناعتها • فقد انقضى الزمن الذى كان فيه قارىء الصحيفة يعبر عن سخطه وضيقه اذا لم يجد فيها جديدا بقوله « كم هو عالم سخيف وممل اليوم ! » ، وأصبح يقول : « يا لها من صحيفة سخيفة ومملة ! » • وبعد أن كان المسئول عن وجود الاخبار القدر أو الشيطان ، أصبح المسئول عن اضفاء الاثارة والتسلية على العالم هو الصحفى فاذا لم تكن هناك أخبار بالفعل ، كان على الصحفى أن يضعها • وصناعة الحوادث المزيفة تشغل مكانة هامة فى تغذية الأوهام ، حتى يصير العالم أكثر ملاءمة ، وعلى الصحفى ألا ينتظر الظروف المواتية ولكن واجبه خلقها •

وصناعة الحوادث المزيفة تدخلت فى أكثر الامور اعتمادا على التلقائية كنقل الاستقبالات الشعبية للقادة والزعماء بالتليفزيون ، اذ يصاحب الكاميرا اخصائيون فى اثارة انفعالات الجماهير ، وتتفرق الكاميرات فى أماكن متعددة ، حتى تنقل اللقطات « الدراماتيكية » المشحونة بالحماس والحركة والصياح ، وهى تكون غالبا تعبيرات صادرة من جمهور يركز اهتمامه على الكاميرا ذاتها حتى يظهروا على شاشة التليفزيون ، وسرعان ما يعودون مهرولين الى بيوتهم حتى يشاهدوا أنفسهم ، وهكذا يشترك المواطن نفسه فى صناعة الحوادث المزيفة التى تمتعه أكثر من مشاهدة الواقع الذى يتعارض مع مايتوقعه فالمواطن لم يعد فى حاجة الى أن يكون ممثلا محترفا كى يرى نفسه فى مشهد غوغائى ، انها ليست عفوية ، بل يخطط لها وتعد لتتحول الى مادة صحفية ، ويقاس نجاحها بمدى اهتمام الصحافة والناس بها ، وهى غامضة لا تعطى تفسيرا كاملا لكل شىء • ومع ظهور الثورة فى الفنون فيما يطلق عليها المؤلف ، والتى شملت الرسم والنحت والتصوير والطباعة والنشر ، وظهور مخترعات هامة مثل التليفون (١٨٧٦) والفونوغراف (١٨٧٧) وبكرة الفيلم (١٨٨٤) وكاميرا كوداك (١٨٨٨) والراديو (١٩٠٠) ، وازدياد أهمية التليفزيون تجاريا عام ١٩٤١ ، فرضت الحوادث المزيفة أهميتها ، وتحول التقاط وجمع الاخبار الى صناعتها ، حتى يمكن أن تستمر هذه الأجهزة مع تطورها فى عمل مستمر •

واذا كان « ابراهام لنكولن » قال : « يمكنك أن تخدع كل الناس بعض الوقت ، وتخدع بعض الناس كل الوقت ، الا أنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت » ، فان المواطن الامريكى يعيش فى عالم الخيال فيه أكثر من الحقيقة ، والصور أكثر من الواقع ، بحيث أصبح من المتعذر عليه التمييز بين الحقيقة والزيف الذى يعيش فيه كل المواطنين كل الوقت •

من الأبطال الى المشاهير

ونتيجة للبهتان والتضليل الذى يسعى اليه المواطن الامريكى امتدت صناعة الزيف والخداع الى عالم البطولة والشهرة • واذا كان « شكسبير » قسم عظماء الرجال الى ثلاث أنواع الذين ولدوا عظماء ، والذين يكتشفون العظمة ، والذين تهبط عليهم العظمة ، فانه لم يذكر الذين يستأجرون خبراء العلاقات العامة ، والسكرتيرين الصحفيين ليظهروهم فى مظهر العظماء • وهذا يرجع الى القدرة على احاطة الانسان بهالة الشهرة ، بعد أن مضى الوقت الذى كانت فيه الشهرة تعنى العظمة ، ولم يكن الرجل يصير مشهورا الا اذا تحلى ببعض الصفات البطولية من شجاعة ونبل وقدرة على اتقان الاعمال العظيمة ، وكانت الشهرة تتحقق ببطء ، ولكن فى أمريكا اليوم يمكن الفرد أن يصير مشهورا بين يوم وليلة ، عن طريق « فبركة » الشهرة التى يساعد على نشرها التليفزيون ، والسينما ، والاذاعة والصحافة • واذا كان فى الامكان اضفاء الشهرة على أى رجل أو امرأة ، الا انه لايمكن عدهم من العظماء ، اذ يمكن صناعة الشهرة ، ولا يمكن صناعة الابطال لأنهم يصنعون أنفسهم •

والانسان الذى يبلغ الشهرة يجد هوى فى نفس المواطن الأمريكى لأنه يرغب فى القراءة عنه ، ومشاهدته فى التليفزيون ، والاستماع الى صوته• وهكذا بعد أن كان البطل يتميز بانجازاته،

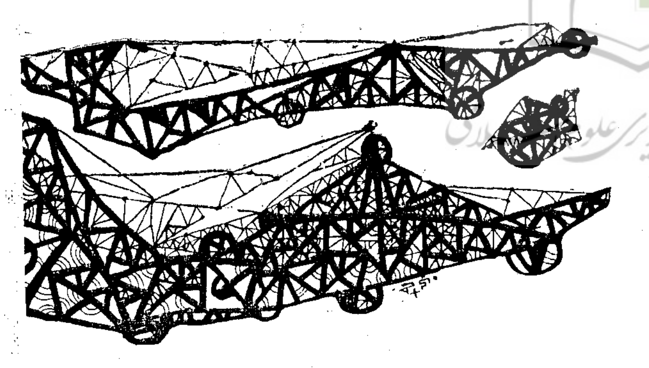
صار المشهور يتميز بصوته أو علامته التجارية . فالبطل انسان عظيم ، والمشهور اسم كبير ، والمشهور اليوم يولد فوق الصحف ، وهي التي تقتله وتقضى عليه ، بينما موت البطل يحقق له الخلود ، ويصير أكثر حياة فوق صفحات الزمن، والمشهور يمكن أن يتحول فى حياته الى شىء من الماضى ويخمد اسمه بسرعة ليظهر محله عدد كبير من المشاهير .

من الرحلة الى السياحة

ثم ينتقل المؤلف الى تحليل أثر التطورات التكنولوجية على مفهوم «المغامرة» و « الرحلة » ، فيقول : لقد حسبنا أن التكنولوجيا ستنقذنا من الملل والرتابة ، وتصورنا أنه بفضل الآلات الحديثة سيمكننا أن نطوف العالم فى رحلات . ولكن كلمة « مغامرة » التى كانت مقترنة برغبة الانسان فى رؤيته للأشياء لأول مرة ، واكتشافها ومشاهدة ما هو غير مألوف ، وحرية اختيار الاماكن ، أصبحت فارغة من مدلولها الأصلى ، فالمغامرة تتم وفق خطة تخلو من المصادفات والمفاجآت . ان كثيرا من الامريكين يرحلون خارج أوطانهم ، ولكن رحلاتهم أكثر التصاقا بوطنهم ، ذلك أن كل ما تقدمه اهم وكالات السياحة يقوم على الحوادث المزيفة التى تهىء للمواطن الأمريكى مشاهدة أشياء غريبة ، ومألوفة في وقت واحد ، ويعيش مخاطرات دون أخطار حقيقية وفعلية ، ويجد الراحة التى يلقاها فى بيته تنتظره فى أدغال أفريقيا .

ان المواطن الامريكى يطلب رؤية عالم قد أعد على مسرحه مجموعة من الحوادث المزيفة . لقد كان الرحالة فيما مضى ايجابيا بتعرضه لأخطار حقيقية ، ومواجهته المصاعب ، وصراعه اليقظ للتغلب عليها ، واليوم أصبح سلبيا وتحول الى مجرد مشاهد ، وابتعد عن الأخطار والمصادفات التى تعكر صفوه وتقتضيه بذل الجهد ، وتحمل القليل من المشقة ، وانهار عصر « الرحلة » ليبدأ عصر « السياحة » . والسائح يقوم برحلته للمتعة ، والرحالة يشغله شىء ما يتكبد فى سبيله المتاعب . واليوم تقدم كافة التيسرات للقيام بالسياحات منذ أن قام « توماس كوك » (١٨٠٨ – ١٨٩٢) فى الأربعينات من القرن التاسع عشر بتنظيم أول سياحة جماعية . وفى الغالب يشاهد السائح أماكن لا تعنيه ، لمجرد أن وكالات السياحة ضمنتها برامجها لشهرتها ، وانعدمت الأخطار فى الرحلات . وكان الرحالة يلتقى بالمواطنين ، فأصبحت مهمة الوكيل السياحى أن يحول دون ذلك . ولم يعد السائح الامريكى يواجه أية متاعب ، أو يلقى مشاقا ، فحيثما يحل يجد نفسه فى فندق سياحى يتوفر فيه كل الوسائل المرفهة ، ولذا فانه مهما تعددت الفنادق التى ينزل بها فكلها على الطراز الامريكى الحديث سواء أكان فى الكاريبى هيلتون أو استنبول هيلتون ، فكلها لا يمكن التمييز بينها من حيث التصميم الداخلى ، كأنك فى شركة خطوط جوية أمريكية ، ما عدا المناظر التى تراها من النوافذ، والتى لولاها لما عرفت أين أنت .

وتقوم الشركات السياحية « بفبركة » الأخطار ، وتصميمها ، وتخطيطها ، وجعلها شيئا حيا يعاش ، ويقبل التصديق ، وبذلك تلعب الحوادث المزيفة دورها فى طرد التلقائية، والعفوية وتوفير الاخطار فى سلام ، والمتاعب فى أمان ، ثم تلتقط الصور التى تعبر عما توقع السائح الامريكى مشاهدته ، ولذا فكأنه ينظر فى المرآة ، ويرى نفسه ، وصارت السياحة تحصيل حاصل



ذوبان الأشكال الأدبية

ان المجتمع الامريكى يسوده احساس بالقدرة على سيادة عالم مرن طيع ، يسهل تشكيله وفق الارادة ، وحسب مشيئته ، ويمكن صبه فى القالب المحقق للآمال الجشعة ، والتطلعات النهمة.

والمؤلف يكشف عن التغيرات التي ترتبت على هذا الوهم . فيرى أن الجهود اتجهت فى أول الامر الى جعل الفن والأدب فى متناول ادراك العامة ، حتى يمكن لمن لا يعرف اللغات القديمة أن يعثر على المؤلفات المبسطة التى تعينه» على القراءة ، فظهرت قصص « شكسبير عام ١٨٠٧ من اعداد تشارلس لامب ومارى لامب ، وقدم توماس بودلر عام ١٨١٨ ، عشر مجلدات لأعمال شكسبير لتقرأ فى وسط العائلة بصوت مرتفع ، ثم «انحلال

وسقوط الامبراطورية الرومانية « لجيبون فى صورة مبسطة ٠

واشتقت من اسم Bowdler كلمة Bowdlerize بمعنى التهذيب فى النصوص ، وحذف الصعب ، واستبعاد ما لا يليق ٠

وامتد الاتجاه نحو نشر الأعمال الأدبية وجعلها شعبية الى الأعمال الفنية ٠

وأدى التنافس بين المجلات مع تطور الطباعة الى نشر المسلسلات الروائية بها ، ثم صدرت فى ملاحق خاصة، وصار فى الامكان بدولارات قليلة شراء اللوحات الفنية ، واقتناء نماذج معدنية ، وبلاستيكية لقطع مصرية أثرية ورومانية ٠ومكنت الثورة فى الفنون من الانتاج بالجملة للأعمال المقلدة والفرق بين التقليد والأصل فى السعر ، ولا يمكن تبينه الا لعين الخبير ، وقيمة العمل فى مدى انتشاره والاقبال عليه ، وتيسير اقتنائه ٠

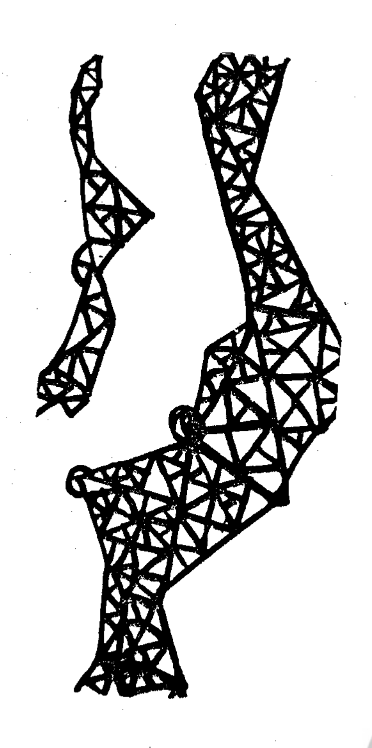
ولم تكن الرواية الانجليزية حتى القرن الثامن عشر ذات شعبية ، أو واسعة الانتشار ، ولم يكن من المتيسر الحصول عليها الا باسعار غالية ،ولطبقة معينة ، ونقل أحداث الروايات بمشاهدها ومعاركها على المسرح أو السينما كان متعذرا ٠

ولكن كامرا السينماحطمت العقبات التى فرضت على الاعمال الروائية أن تظل حبيسة الورق ، ملتصقة بالحروف ، وصار للسينما مكانتها فى نقل المشاهد الضخمة الفخمة منذ أن قدم « جرافيث » الفيلم السينمائى « ميلاد أمة » (١٩١٥) الذى جذب الملايين ، وعقب الرئيس « ويلسون » على الفيلم بعد مشاهدته عرضه فى البيت الابيض بقوله : « انه مثل كتابة للتاريخ بالأضواء » ٠

ومنذ ذلك الحين أمكن نقل كثير من الروايات ذات القيمة الادبية الى السينما ، كما يسرالمسرح والتليفزيون مشاهدة روائع الاعمال الادبية ، وانتشارها ٠

وأدى « الايجاز » و « التلخيص» الذى كان يعتبر يوما ما شكلا أدبيا رفيعا الى رواج المختصرات والملخصات الشعبية لأعمال كبار الكتاب والأدباء٠

وشعر المواطن الامريكى مع كثرة عدد المجلات وازدياد عدد الكتب التى تنشر ، بحاجته الى تلخيص ثقافة العالم وأفكاره وأحداثه ، وتدفقت المختصرات والملخصات مع تاسيس « الريدرزديجست » عام ١٩٢٢ وأصبحت أوسع المجلات انتشارا لاعتمادها على الملخصات التى هى صور الاصول ٠ ولم تخل المختصرات من



اصطناع حوادث الزيف، اذ كانت الريدرزديجست تطلب من بعض الكتاب نشر مقالات معينة فى المجلات ، ثم تقوم بتلخيصها كمادة سبق نشرها ، ومن ثمة انتفت العفوية فى الموضوعات التى تكتب ، وتوارت التلقائية فى اختيار المادة ، وأصبح الامر يعتمد على المقالات المزيفة ٠

والمختصرات تقدم للقارىء - فى الغالب - الأفكار الأساسية دون الاهتمام بالقالب أو الشكل ، وبالتالى تعرض الاعمال الادبية بطريقة غير أدبية وأفضى ما يعرض فى مجلات المختصرات والملخصات الى نوع من التلاشي والذوبان للأشكال والقوالب الأدبية التى تصاغ فيها الأفكار ، كما افتقدت المهارة الأدبية فى أعمال العلماء كما عهدناها فى أعمال دارون ووليم جيمس وفرويد٠ ثم أصبح التلخيص مشكلة نظرا لزيادة عدد الموضوعات المطلوب تلخيصها ، وتضخم عدد الكتب التى تصدر ، ولذا اخترع هـ ٠ بيتر ٠ لوهن جهازا حاسبا « للتلخيص الذاتى » ، يقوم بتحليل احصائى للمعانى التى يحتويها المقال أو الكتاب، ويحذف الكلمات الزائدة « اذا » و « ولكن » ، وبعد ذلك يقوم بجمع الجمل ذات المعانى المركزة وبالتالى يتم التلخيص الذاتى ٠ ولما كانت الترجمة لها أهميتها ، وكثير من الاعمال تكتب بلغات مختلفة ولها قيمتها ، فقد الحق بجهاز التلخيص

الذاتى جهاز آخر هو « جهاز الترجمة الذاتية »، ومهمته أن ينقل من اللغات المتعددة الى الانجليزية وان كانت انجليزية رديئة تذهب ببلاغة اللغات الاخرى ، الا أنها تعبر عن المعنى وتؤديه ٠وأصبح لا يهم القارىء أيضا قــراءة الروايات مطبوعــة ما دامت تعرضها السينما ، وهذه الروايات تشد المتفرج لأنها تستمد نجاحها من نجوم الافلام ، وشهرتهم التى تقوم على ذيوع الاسم وشعبيته٠ وليس على المهارة فى التمثيل ، والمنتجون ينفقون بسخاء على « صورة » النجم لتظل محتفظة بجاذبيتها وهذا يدفعهم الى استغلال نجومهم الى أبعد مدى، وأصبح التركيز على شهرة الممثل لا على قيمــة عمله أو اجادته ، وشمل ذلك التقييم عالم الكتب فالقارىء يبحث عن الكتاب المشهور الذى تتضمنه قائمة الكتاب الطائر أو أحسن الكتب رواجــا « بست سيلر » ، وهذا الكتاب ينشر فى هذه القائمة لا لقيمته الجمالية أو الأخلاقية٠ وهنا يظهر دور الحوادث المزيفة، اذ يلجأ الناشر الى تخفيض سعر الكتاب عند صدوره فى طبعته الأولى ، ويبيعه بخسارة ، حتى يكتب له الرواج والانتشــار ، وبالتالى الشهرة ، فاذا تحققت أقبل عليه القــراء ليتباهوا بأنهم حصلوا على هذا الكتاب ٠

ولم تسلم الموسيقى من التزييف الذى ساد الفنون ، فبعــد أن كان المســتمع يجد لذة فى الاستماع الى الموسيقى من فرقة موسيقية يقودها الموسيقار العظيم ، صارت أجهزة التسجيل تؤدى المهمة ، وأمكن تسجيل القطعة الواحدة على فترات واختيار المناسب من التسجيلات ثم توصل ببعض كمونتاج السينما ، وأصبح عدد الذين يشــترون المسجلات الموسيقية أضعاف الذين يشــترون الكراسات الموسيقية المطبوعة ٠

من المثل الى الصور

وبعد أن يستعرض المؤلف وهم المجتمع الامريكى وخداعه فى قدرته على « فبركة » الخبرات والاخبار والمشاهير ، والمغامرات ، والاشكال الفنية والادبية يقول « ان القيم التى هى أخلاق المجتمع خلت من المضمون ، فالمثل التى مصدرها التقاليد ، والعقل والله ، حلت محلها «الصور» كما حلت «المختصرات» محل « الأصول » ٠ تلك الصور المركبة ، والتى يخطط لها لتخدم غرضا معينا ، صارت مصدقة لدى كل شخص ، وحقيقية لأنها عامة ، وترضى من يحاول أن ينسجم معها ٠ و « الصورة » فى مصدرها اللاتينى مشتقة من « التقليد » و «المثل» من « الفكر » ، وهى تصور شيئا فى أكمل حالاته والفرق بين التفكير فى المثال ، والتفكير فى الصورة هو فرق بين تفكيرنا قبل وبعد الثورة فى الفنون والمثل تتعارض مع الصور ، ويصعب تصديقها ، أما الصور فتقد على قدنا لتكون وسائل لنا فيها مآرب ٠

وخلال القرن العشرين ظهرت الصور واضمحلت المثل ، تلك الصور التى كونتها الصحافة ،والاذاعة والتليفزيون ، والسينما ، والملخصات ، وساعد على انتشارهــا وفرة الاعــلانات فى الطرقات والميادين الواسعة حيث تخطف الأبصار وتصب فى وعى الانسان ٠

اننا لا نجرؤ على الاعتراف بأننا نخدع أنفسنا ولذا نبحث عمن نتهمه بخداعنا وغشنا ٠

والاعلانات فى تاريخ أمريكا نوع من الحوادث المزيفة ، فبعد أن كان الاعلان يعتمد على التلقائية صار يعتمد على صناعة الأخبار ، وتميزت الاعلانات الناجحة بأنها ذات صبغة اخبارية ٠

اننا نسعى الى صناعة أشياء كاذبة لتبــدو حقيقية ٠ انه فن اخفاء الحقيقة واختراع الزيف ، وابتكار وسائل جديدة للخداع ٠ والجهود تبذل لجعل الحلم الامريكى وهما وليس حقيقة ٠ ورجال الاعلانات المهرة يصنعون وهمنا ، ثم يجعلونــه يأخذ صورة الحقيقة ٠

فالثورة فى الفنون ساوت بين الاعلانات ،وخلق الأخبار ، وصناعة المشاهير ، ووكالات السياحة ، وأفلام السينما ٠

ونؤمن بأن ما يقدمه المعلن هو الحقيقة ، وهو يجيد تكنيك النبوءة التى تحقق المطامع الذاتية ، ونقرأ الاعلان لتزيد رغبتنا ونكتشف مــا نريده وكنا لا نعرفه على وجه التحديد ٠

ومع الســعى نحو تلبية الرغبات والاحتياجات زادت الصور ، ودفعت الى الاهتمام بالرأى العام واتجاهاته ٠

ويؤرخ لكلمة الرأى العام بنهاية القرن التاسع عشر عندما استخدمها « جيفرسون » ولكنما ينشر على أنه رأى عام فى الواقع لا يعبر عن رأى كل فرد ، ولكنه بعض السمات ، التى يؤخذ بهــا لتدل على الحقيقة ٠

وفى كتاب «الرأى العــام » (١٩٢٢) « لوالتر ليبمان » تعريف للرأى العــام يوضح الأمر عندما يقول : « ان الصور داخل عقــول الناس ، صور أنفسهم ، وصور الآخرين ، وصور احتياجاتهم ، وأهدافهم ، وعلاقاتهم ، كل هــذه تشكل الرأى العام ٠ هذه الصور تفرض سيطرتها جماعة من الناس ، أو فرد يمثل الجماعة » ٠

والصحافة تروج لخلق الصور التى تقول عنها فيما بعد انها الرأى العام • وبالتالى صار الرأى العام نوعا من الحوادث « المفبركة » يدفع بها الى الوجود ، حتى تكتب عنها التقارير •

واذا لم يكن هناك راى تلقائى ، فان المسئولين يصنعون الآراء ، حتى يكتب عنهــا المتتبعون لاتجاهات الرأى العام ، فالرأى العام أصبح المادة التى تعد سلفا لتسرى بين الناس ، وبذلك نكون كمن ينظرون الى انفسهم فى المرايا •

من الحلم الى الوهم

ثم يتساءل المؤلف ، امكتوب علينا أن نحول أحلامنا الى أوهام ؟ • وفى اجابته يقرر أن الحلم رؤيا أو الهام يمكن مقارنته بالواقع •

والاحلام التى تكون عادة مشرقة ، ونضرة ، تنبهنا الى أن الواقع مغاير للأحلام •

وكانت أمريكا أرضا « للأحلام ، حيث رحل اليها كل حالم بالثروة ، والملكية والارستقراطية وحرية الرأى ، ثم حاولوا أن يحولوا الحلم الى حقيقة •

ولكننا فوجئنا باننا مهددون بخطر احلال الوهم الامريكى محل الحلم الامريكى ، والصور محل المثل • ونحن اكثر الشعوب وهما فى العالم ، ولا نجرؤ على العيش دون أوهام ، لأنها بيئتنا الذى نعيش فيه ، وهى أخبارنا ، وأبطالنا ، ومشاهيرنا وأشكالنا الفنية ، وخبراتنا •

اننا نعيش بالصور ، بينما تعيش الشعوب بالمعتقدات ، ومع ذلك نريد أن نسقط صورنا على العالم •

لقد أصبحنا مشغولين بخلق « الصور »المحبوبة والمرغوبة والمقبولة ، لأمريكا ، ونحاول نشرها خارج أمتنا ، بشرائنا ، وتكنولوجيتنا ،وكفاءتنا والأقلام الجذابة• ورغم مايبذل لنشرالصور المشرقة فان النتيجة تأتى عكسية ، ولذا يجب علينا أن نشاط الآخرين البحث عن أمريكا •

ومن أهم العقبات التى تحول دون ذلك ، ايماننا المسرف بنفوذنا ، وسلطاتنا ، وسطوتنا ، وهيبتنا التى نبذل الجهد للمحافظة عليها ، ونأمل من العالم أن تجذبه صورتنا ، وأن « تزغلل » عيون أبناء الشعوب الأخرى •

وتجاوزت كلمة « الهيبة » حدود معناها ، وفى أصلها اللاتينى تعنى الوهم والخداع ، والشخص ذو الهيبة عادة لديه نوع من الافتتان بذاته ؛ ويكون فى حالة عماء ، و « زغللة » بصورته •

وحديثنا عن هيبتنا فى الخارج ، حديث عن أنفسنا ، وجاذبية صورتنا • واختلطت الصورة بالحقيقة • اننا نحاول اصلاح الصورة بدلا من أنفسنا ، لأننا اعتدنا أن نعيش فى عالم من الحوادث المزيفة •

اننا نعيش فى عالم من صنعنا ، ونريد أن يعيش الآخرون فى عالمنا اننا نعيش فى عالم تحد حدوده حوائط من المرايا التى تعكس صورتنا •

اننا نبحث عن المشاهير بين الرجال والنساء ، وكذلك بين الكتب والمسرحيات والافلام ، وكل خبراتنا مصدرها القراءات المختصرة ، حيث نقرأ فقط مانريد أن نقرؤه نحن ، وليس مايريد أى شخص أن يكتبه •

اننا نعانى من « النرجسية الاجتماعية » التى أوقعتنا فى حب « صور » ذواتنا ، وهى من صنعنا ، وصار عالمنا مجرد مرايا عاكسة والصور أصبحت انعكاسات ظلال مرايا ، وكلها تشكلها الروايات ، والتليفزيون ، والاذاعة ، والكتب الفكهة ، والطريقة التى نتصور بها أنفسنا عبارة عن استجابات لانعكاسات المرايا •

وفى ختام الكتاب يحاول المؤلف أن يكشف الطريق الذى يخلص المجتمع الأمريكى من أوهامه وأباطيله ، ويقرر أن الحلول الوهمية لن تستطيع أن تشفى وتعالج أوهامنا •

ولكن على كل منا أن يؤاخذ نفسه ، ويطلق سراحها من قيود الاوهام ، لأننا نشارك الآخرين فى صناعة الوهم الذى نخدع به أنفسنا • ومن الخطأ علاج الأوهام باخفائها ، وعلاج أمراض الاعلانات بابتكار مزيد منها ، ويجب أن يتيقظ المواطن الأمريكى، ويعد نفسه لاستقبال رأى العالم فينا ، اذ أن هناك عالما خارج عالمنا ، كما يجب الا يستغرقنا الانشغال بتصدير الصور الامريكية، واغراء الآخرين لمشاركتنا أوهامنا التى من بينها وهمنا بالايمان فى العلاج بينما لا يوجد علاج ، بل فرص للشفاء ، وعلينا أن نستيقظ قبل أن نسير فى الاتجاه الخاطىء ، ونكشف أوهامنا قبل أن نستيقن من أننا كنا نسير نياما • والأهم أن نؤمن بقدرة كل منا على أن يخترق غابة الصور الكثيفة التى نمارس فيها حياتنا اليومية • ومن ثمة يمكننا أن نكتشف أين تنتهى الاحلام ، وأين تبدأ الاوهام •

ترى هل يمكن أن يخرج المجتمع الأمريكى من الكهف الذى حفره لنفسه ، وأصبح لا يرى فيه من معالم العالم الخارجى الا الظلال ، ومن نفسه الا الصور ، هل يمكن أن يحطم الاصنام التى صنعها بيديه ، ثم آمن بها ، فعبدها ، واتبعها لأنها تهب القوة اللامتناهية الموهومة ؟

محمد على بركات

روزا لوكسمبورج وحركة الفكر الاشتراكي

محيى الدين خطاب



في مثل هذا العام منذ خمسين عاما ، أى فى سنة ١٩١٩ ، لقيت روزا لوكسمبورج مصرعها في طرقات برلين برصاصات غادرة من بعض الضباط الالمان الرجعيين ٠ ويقول المؤرخ الاشتراكي الكبير ج٠هـ٠كول في تعقيبه على هذا الحدث : « كان لقتلها وقع مؤلم فى جميع أنحاء أوربا ، وتحدث الناس عنه باعتباره عملا فظيعا » ٠٠ وقبل ذلك مباشرة يقول : « كانت روزا لوكسمبورج مخلصة باستمرار « للثورة » وعاشت من أجلها ، وفى ألمانيا كانت هى القوة الفكرية الكبرى الوحيدة فى الجانب الثورى ، وكذلك كانت الشخصية الدولية الكبيرة الوحيدة فى الجيل الشاب من الاشتراكيين ، والى جانب تفوقها السياسي والاقتصادى كانت أيضا امرأة لها اهتمامات ثقافية واسعة وعميقة » ٠٠ وهو بعد هذا يقيمها بوجه عام فيقول : « ان روزا لوكسمبورج من بين جميع الاشتراكيين الثوريين هى وحدها التى يمكن مقارنتها بلينين » (تاريخ الحركة الاشتراكية ، مجلد٣ ٠ جـ٥ ص١٦٧) ٠

كذلك فان لينين ، الذى وقع فى خلاف حاد معها فى وقت من الأوقات ، قد وصف حادث اغتيالها ، فى خطابه أمام المؤتمر الأول للدولية الشيوعية فى مارس ١٩١٩ ، بأنه « حدث تاريخى عالمى الأهمية » ووصفها ، هى والاشتراكي الألمانى الشهير كارل ليبنخت الذى اغتيل معها ، بأنهما « زعيما الدولية الشيوعية البروليتارية بحق ، وخير ممثليها » (مختارات لينين مجلد٣ ٠ ج ١ ٠ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) ٠

وبالرغم من أن روزا لوكسمبورج قد قامت بدورها الثورى الحاسم ، وجولاتها الفكرية الكبرى ، فى ألمانيا ، ولقيت مصرعها فى هذه البلاد ، الا أنها لم تكن ألمانية الأصل ، فقد كانت بولندا هى موطنها الأصلى ، وهى التى شهدت باكورة نشاطها الاشتراكي ، كما ظلت تستقبله باستمرار بعد نزوحها عنها ؛ ومن ثم فعلينا أن ندخل الى تاريخها من خلال بولندا ، أو بالأصح، من خلال الحركة الاشتراكية البولندية ٠

كانت بولنـــدا حتى الحرب العـــالمية الأولى مقسمة الى ثلاثة أجزاء خاضعة لثلاث دول كبرى: مملكة بولندا وتخضع للحكم الروسى ، واقليم بوزان ويخضع للحكم الألمانى ، واقليم غاليسيا ويتبع الامبراطورية النمساوية المجرية ، الا أن مملكة بولندا كانت كبرى الأجزاء وأدلهـا على الوطن البولندى ــ وسنذكرها فى هذا الحديث باسم بولندا مجردا ، مع ذكر الاقليمين الآخرين بأسمائهما السـالفة ، كمـا كان المتبع فى ذلك الوقت ٠

ولم يكن للاشـتراكية ، كحركة منظمـة ، وجود داخل بولندا حتى السبعينات من القرن الماضى ، وقبل ذلك كان الاشترا ليون فيهـا قلة مبعثرة فرادى أو جماعات صغيرة وليس لها من النشاط أو الاثر ، سواء فى ميدان الحياة العامة أو فى مجال العمل الثورى، مما يستوقف النظر، كما لم يكن للأفكار الاشـتراكية من النفوذ فى الأوساط الفكرية البولندية سوى الشيء القليل الصادر عن المفكرين الاشتراكيين اليوتوبيين ، خاصة الفرنسى شارل فورييه (١٧٧٢ـ١٨٣٧) ، الذىتأثر به كثيرا يواكيم لويل (١٧٨٦ـ١٨٦١)، أبرز دعاة الاشـــتراكية فى بولندا فيما قبـل السبعينات ، والذى نفر من بولندا سنة ١٨٣١ ، وأنفق عمره دون أن يتمكن من تأسيس حـركة اشـتراكية بها ، رغم نشـاطه الوافر فى منفاه ببلجيـكا وتأثيره الكبير على الفـكر الاشـتراكى هناك ٠

وانما بدأت الاشتراكية تظهر كحركة شعبية لها وزنها فى بولندا فى سنة ١٨٧٨ ، عنـدما قامت الطبقـة العاملة فى هـذه البـلاد بتنظيم صفوفها وتحـديد أهدافهـا فى ضـوء المبـادئ الاشـــتراكية ٠٠ وكان معظم الفضل فى ذلك يرجع الى لودفيج وارينسكى (١٨٥٦ـ١٨٨٩) ، الذى تشرب المذهب الاشتراكى فى روسيا أثناء دراسته فى جامعة بطرسبرج ، ولما عاد الى وطنه بولندا سعى بكل ما استطاع من وسائل الى بث الوعى الثـورى فى طبقتها العاملة وانشاء تنظيم اشـتراكى يمثلها ويقود كفاحها ، ولكنه اضطر الى الفرار الى الخارج لمحـــاولة السلطات القـاء القبض عليه ، ثم عاد الى وارسو ، سنة ١٨٨١ ، ليؤسس هنـــاك منظمة اشتراكية تحت اســـم « بروليتاريا » ، مقيما أسلوبها فى الكفاح ضد النظام الاجتماعى القائم على دفع العمال باستمرار الى القيام بالاضرابات ، واثارة القلاقل من كل نوع فى مختلف مؤسسات هذا النظام ، مما يؤدى الى خلخلته وانهياره فى النهاية ٠٠ وكان فى ذلك مخالفا أسلوب المنظمة الروسية الثورية المشهورة « نارودنايا فوليا ــ ارادة الشعب » ، التى كان على صلة وثيقة بهـا ، وهو أسـلوب الاغتيـال والارهاب ٠ ولكنه لم يلبث حتى قبض عليه ، سـنة ١٨٨٣ ، ثم مات فى السجن بعـد ست سنوات من هذا التاريخ ٠

وقد تمكنت السلطات الروسية ، فى سـنة ١٨٨٥ ، من تسـديد ضربة قاصـمة الى هـذه المنظمة ، لم تفق منها الا بعد ثلاث سنوات ، حين عادت من جديد تزاول نشاطها فى اثارة العمال والتحريض على الشغب والاضرابات ، على أن المنظمـة قد شهدت فى سنى محنتها هـذه ، وبالتحديد فى سنة ١٨٨٦ ، حدثا كبيرا ، وان لم تشعر به فى ساعتها ، وذلك هو انضـمام فتاة فى سن السادسة عشرة الى صفوفها ، كان اسمها روزا لوكسمبورج ٠

***

كانت فتاة جمة النشاط ، مشتعلة الحماس للقضـية الاشتراكية ، فباشرت عملها على الفور كعضو عامل فى المنظمة ، وقامت بدور كبير فى احياء نشاطها ، الى حد أن صدرت أوامر السلطات بالقبض عليها ، ففرت الىسويسرا ، سنة ١٨٨٩، واستقرت فى مدينة زيورخ للدراسة فى جامعتها. وهناك تعرفت الى عدد من الزعماء الاشتراكيين الروس ، من بينهم جورجى بليخانوف (١٨٥٦ ــ ١٩١٨) ، الذى أخـذت على يديه المـذهب الماركسى وصارت من أشد المؤمنين به، كما التقت أيضـــا برفيقى كفاحها المستقبل الاشـتراكيين البولنديين ليويوجيشس وأدولف وارسكى ٠

وعندما تم ببولندا ، سنة ١٨٩٢ ، اندماج القوى الاشتراكية ، بما فيها منظمة بروليتاريا ، فى تنظيم واحد تحت اسم « الحزب الاشـتراكى البولندى » بزعامة يوجيشس ووارسكى ، فوض

الحزب الجديد روزا لوكسمبورج أن تمثله فى « المؤتمر الاشتراكى الدولى » الذى عقد فى زيورخ سنة ١٨٩٣ ضمن وفد أرسله لهذا الغرض ، وبالرغم من أن الاشتراكيين البولنديين المنفيين ، الذين ألفوا لأنفسهم تنظيما خاصا هو « اتحاد الاشتراكيين البولنديين فى الخارج » ، أنكروا حق هذا الوفد فى حضور المؤتمر ، ونجحوا بالفعل فى ابعاد معظم أعضائه عنه ، الا أن المؤتمر سمح لروزا لوكسمبورج بصفة خاصة بحضوره ، وكلفها بتقديم تقرير عن الموقف الداخلى فى بولندا اليه ، وانتهزت روزا هذه الفرصة لتبسط أمام المؤتمر آراءها الخاصة بصدد الحركة الاشتراكية فى بولندا : فدعت الى تكوين حزب ثورى منظم على أساس ديموقراطى ، يعمل على بث روح الثورة فى نفوس العمال ، وخلق حركة نضالية جماعية بينهم ، على أن يحتوى الحزب هذه الحركة بتبنيه لمطالب العمال الاقتصادية وتنظيمه لاضراباتهم ، ودعت الى أن يشارك الحزب فى الوقت نفسه فى الكفاح السياسى من أجل تحقيق الحريات الديموقراطية، حتى تتهيأ له حرية العمل على أوسع نطاق ، ولكن على ألا يكون ذلك سببا لأى تحالف أو تهادن بينه وبين الأحزاب البرجوازية ، التى كانت تكافح هى الأخرى من أجل هذا الهدف .

وكانت روزا لوكسمبورج تهدف بهذا التشديد على الانفصال عن الاحزاب البرجوازية الى ابعاد الحركة العماليه البولنديه عن الانفصال بالحركة القومية ، التى تطالب باستقلال بولندا عن روسيا ، وتتبناها هذه الاحزاب .. فقد كان رايها أن النضال الاشتراكى عموما ينبغى أن يكون بمنأى عن النزعات والأفكار القومية ، وأن نضال الاشتراكيين البولنديين ينبغى أن يسير موحدا مع نضال العمال الروس وسائر القوى العمالية الاشتراكية فى مختلف أرجاء الدولة الروسية للقضاء على النظام الرجعى القيصرى بثورة دولية الطابع والشعارات لا أثر فيها لنزعة أو عصبية قومية من أى نوع .

وبهذا الرأى وقفت روزا لوكسمبورج ، ومعها يوجيشس ووارسكى ـ اللذان كانا يتفقان وإياها تماما فيما ذهبت اليه ـ موقفا سافر العداء والتناقض من موقف « اتحاد الاشتراكيين البولنديين فى الخارج » الذى كان يؤيد بكل قواه الحركة القومية البولندية ، كما أحدث هذا الموقف انقساما داخل الحزب الاشتراكى نفسه ، انتهى بانفصال مؤيديه عن هذا الحزب وتأليفهم حزبا جديدا ، باسم « الحزب الاشتراكى الديموقراطى للمملكة البولندية » ، تحت زعامة يوجيشس (١٨٦٧ ـ ١٩١٦) .

وبلغ هذا النزاع بين الاشتراكيين البولنديين ذروة موسعه فى المؤتمر الاشتراكى الدولى الذى عقد بلندن ، سنة ١٨٩٦ ، حينما اتهم مندوبو الحزب الاشتراكى البولندى روزا لوكسمبورج ووارسكى بأنهما عميلان للسلطة القيصرية أوكلت اليهما مهمة تخريب الحركة الاشتراكية البولندية من الداخل ، ولكنهما برئا من هذه التهمة ، واشتركت روزا لوكسمبورج فى المؤتمر لممثلة لبولنديى بوزان . الا ان حزبهما ، الحزب الاشتراكى الديموقراطى ، قد تعرض لاضطهاد شديد فى ذلك الوقت داخل بولندا ، وزج بعدد كبير من اعضائه فى السجون ، مما تسبب فى انهيار نشاطه وتوارى نفوذه لسنوات امتدت حتى سنة ١٨٩٩ .

***

وكانت روزا لوكسمبورج لا تزال خارج بولندا منذ أن فرت منها . وقد أصبحت تقيم فى فرنسا بصفة رئيسية منذ سنة ١٨٩٦ . وفى سنة ١٨٩٨ أخرجت أول مؤلفاتها الهامة وهو رسالة للدكتوراه عن نمو الصناعة فى بولندا . وفى نفس العام تزوجت برجل ألمانى ، يدعى جوستاف لوبيك ، حتى تكتسب الجنسية الألمانية وتستطيع اطلاق نشاطها داخل ألمانيا ، مركز القوة والكفاح الاشتراكيين وقتئذ .

وهاجرت فور زواجها الى ألمانيا ، وانضمت الى الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى ، وعملت بهمة كبيرة فى نشاطه ، وظهرت مقالاتها فى التو فى عديد من الصحف الاشتراكية الالمانية ، وسرعان ما أصبحت الكاتبة الرئيسية لصحيفة الاشتراكيين فى ساكسونيا .

وقد دارت مقالاتها فى هذه الفترة ، بصفة رئيسية ، حول أهمية جذب النقابات العمالية الى الطريق الكفاحى وصهرها فى الحركة الاشتراكية .. وذهبت فى ذلك الى نبذ التفرقة الشائعة بين النقابة العمالية والحزب الاشتراكى ، التى أقيمت على اعتبار أن النقابة لاتمثل سوى فئة معينة من العمال تعبر عن مصالحها الخاصة دون أن تهتم بما عداها من مصالح سائر الفئات العمالية أو قضايا العمال العامة بينما الحزب يحمل الرسالة

التاريخية للبروليتاريا ويكافح من أجل الطبقة العاملة ككل دون ما ارتباط بمصلحة فئة معينة من هذه الطبقة .. ومع أن هذه التفرقة قد وردت فى البيان الشيوعى ـ الذى كتبه ماركس وانجلز، الا أنها رفضت بشدة أن تكون أساسا للسياسة الاشتراكيه : فالحركة البروليتارية فى اعتبارها لن تكتمل وتكتسب الفاعلية الا بالتوحيد بين هذين الطرفين ، أى الحزب الاشتراكى والنقابة العمالية ، وذلك يتم عن طريق تبنى الحزب لأهداف النقابات ، كتقليل ساعات العمل ورفع الأجور ، من جانب ، واشراك النقابات فى الكفاح الاشتراكى وجعلها القاعدة العريضة للحزب من جانب آخر ؛ فهذا التوحيد ، كما كانت تجزم ، شرط لازم كى تتمكن الدعوة الاشتراكية من نفوس العمال وتجذب جماهيرهم فى طريقها الثورى ، وكى تتعمق جذور الأحزاب الاشتراكية ويتأكد صوتها البروليتارى ، وكذلك كى تتمكن هذه الأحزاب من السيطرة على الاضرابات العمالية وتوجيهها بما يتفق وقضية الثورة التى تعمل من أجلها . واجمالا ، كانت روزا لوكسمبورج ترى الاندماج الكامل بين الحركة الاشتراكية والحركة النقابية العمالية .. وكان هذا الرأى أساسا جوهريا من بين الأسس التى أقامت عليها فكرها الثورى كله ، كما كان من أبرز اسهاماتها فى حقل الفكر الاشتراكى .

ولم تدم اقامتها فى ساكسونيا طويلا ، فقد أدى موقفها المعادى من العناصر اليمينية فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى الى الخلاف بينها وبين رئيس تحرير الصحيفة التى تعمل بها ، وكان يمينى الميول ، فاستقالت من منصبها فى الصحيفة ، ورحلت الى برلين .

وفى برلين تعرفت الى كارل كاوتسكى (١٨٥٤ ـ ١٩٣٨) فيلسوف الحزب ، والمنظر الأول للدولية الثانية ، وجعلت تكتب بانتظام فى صحيفة الحزب المذهبية الرئيسية « دى نوى زايت ـ الأزمنة الحديثة » التى يرأس كاوتسكى تحريرها ، كما كانت تكتب أيضا فى غيرها من الصحف الألمانية الاشتراكية ، وتراسل بمقالاتها الصحف الاشتراكية فى بولندا . أما الهدف الرئيسى لكتاباتها وقتئذ فكان اليمينيين من أعضاء الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى ، الذين كانت آراؤهم تثير فى ذلك الوقت أزمة حادة داخل الحزب، وداخل الحركة الاشتراكية جمعاء ، فتصدت لهم هى بحملة عنيفة الى أقصى حدود العنف .

وكان هؤلاء اليمينيون يطالبون بأن تقلع الاشتراكية عن فكرة الثورة فى الانتقال من النظام الرأسمالى الى النظام الاشتراكى وأن تستبدل بذلك أسلوب التحول السلمى التدريجى من هذا النظام الى ذاك .. وكانوا فئتين : الاصلاحيين ، والمنقحين .. أما الاصلاحيون ، ورائد حركتهم هو جورج فولمار (١٨٥٠ ـ ١٩٢٢) ، فكان اهتمامهم يدور أساسا حول السياسة العملية للحزب ، فكانوا يطالبون بأن يتعاون مع الاحزاب البرجوازية الليبرالية ، وأن يتعامل مع الدولة القائمة بحثها على اصدار التشريعات التى تحسن من أحوال العمال وتصلح من الأوضاع الاجتماعية السائدة .. وأما المنقحون ، وأحيانا يدعون بالمراجعين أو التحريفيين ـ وهم الأشد خطورة ـ فكانت حركتهم تستهدف هدم عدد من المبادىء الأساسية للمذهب الماركسى، منها حتمية انهيار الرأسمالية، وحتمية تركز رأس المال ، والدكتاتورية الطبقية للبروليتاريا ، وكان منير هذه الحركة ادوارد برنشتاين (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢) ، الذى زاد على مادهب اليه اتهامه لماركس بالدوجماطيقية وبأن همه كان منصبا على تكييف الوقائع العملية مع القالب النظرى الذى ارتضاه بداءة أمره وليس تجرى هذه الوقائع على ماهى كائنة عليه واخضاع هذا القالب النظرى لحكمها .

من هؤلاء وقفت روزا لوكسمبورج موقفا معارضا متشددا الى أبعد الحدود ، ذاهبة الى أن الثورة هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على المجتمع الرأسمالى ، وأن التحول التدريجى الى الاشتراكية مستحيل لاعتبارات كثيرة أبسطها أنه سيجرى فى ظل الدولة القائمة ، وهى دولة برجوازية : فهذه الدولة لا تعرف الا مصالحها ، وهى ان أقدمت على بعض الاصلاحات أو التنازلات ، فما ذلك الا لتخدير الطبقة المستغلة واطفاء مشاعرها الثورية ضدها ، أى لتعزيز مركزها هى وحماية سيطرتها ، واذا ما حدث

وسارت الأمور حقا فى غير صالحها ، فلديها سلطتها ، من جيش ورجال أمن ، فتبطش بمهدديها وتعيد كل شيء الى نصابه الأول ٠٠ فمن المحال أن تتنازل هذه الدولة عن سيادتها ومصالحها طواعية ؛ ومن ثم فليس للاشتراكى أن يتحدث الا عن قلبها عنوة ، ودفعة واحدة ، أى بطريق الثورة ، واقامة دولة البروليتاريا على أنقاضها ٠٠ فهذا هو فقط ، فى نظرها ، الأسلوب الوحيد الممكن للتحول الى النظام الاشتراكى ٠

وكانت فى هذا الاصرار على مبدأ الثورة ، ومحاربة آراء الاصلاحيين والمنفحين الذاهبة الى الاستعاضة بمبدأ التحول التدريجى ، ما تقفه موقفا موحدا مع كل من أوجست بايبل (١٨٤٠ – ١٩١٣ – زعيم الحزب – وكارك كاوتسكى ٠

وقد اشتركت معهما أيضا فى مهاجمه رأى الاصلاحيين فى التعاون مع الأحزاب البرجوازيه الليبراليه، على أساس أن تعاون الحزب الاشتراكى مع احزاب غير اشترالية من شانه أن يضعف معنوويته ، ويفقده طابعه الطبقى وأصالته الكفاحية ؛ وكذلك فى مهاجمة رأيهم الداعى الى تشجيع الاشتراكيين للدولة القائمة على اصدار تشريعات اصلاحيه ، على اعتبار أن هذا العمل من شانه أن يغير من الملامح الرجعية لهذه الدوله ازاء الجماهير الخاضعه لها ، كما يوسع من وظائفها وسلطاتها فتزداد بذلك قوة ورسوخا ، الأمر الذى يؤخر من انهيارها ويزيد من صعوبة العمل الاشتراكى ضدها ٠

وكذلك نزلت مع بايبل وكاوتسكى ساحة المعركة ضد برنشتاين ، ممثل حركة «التنقيح» ، واشتركت واياهما فى تفنيد حججه ، ونعته بالانتهازية وخيانة المذهب الماركسى٠٠وأصدرت، سنة ١٨٩٩ فى الرد عليه كتابها « الاشتراكية اصلاح أم ثورة » ، وتناولت فيه ، ضمن ما تناولت ، موضوع انهيار الرأسمالية ، الذى أنكره برنشتاين ، فأصرت على حتمية حلوله ، ولكنها ذهبت فى ذلك مذهبا مجددا خرجت فيه عن الأسلوب الماركسى التقليدى بهذا الصدد ، اذ ذهبت الى أن هذا الانهيار سيكون منبعثا عن التنافس الامبريالى بين الدول الرأسمالية أكثر مما سيكون متولدا عن متناقضات الرأسمالية الداخلية ٠

وقد هزم الاصلاحيون مرات عديدة فى مؤتمرات الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى، كما منى برنشتاين بهزيمة ساحقة فى مؤتمر الحزب بهانوفر ، سنة ١٨٩٩ ، ووجه اليه اللوم المطريقة التى عبر بها عن آرائه ، الا أن روزا لوكسمبورج لم تقتنع بهذا ، وأصرت على أن يتخذ الحزب ضد هؤلاء ، خاصة برنشتاين ومشايعيه ، اجراء حاسما هو طردهم من صفوفه؛ فكان ذلك سببا لاصطدامها ببايبل ، الذى خشى أن يؤدى هذا الاجراء الى تفتيت جبهة الاشتراكيين. وأخذ الحزب برأيه ، فأبقى على برنشتاين وسائر اليمينيين فى عضويته ، رافضا طلب روزا لوكسمبورج ٠ ومع ذلك ، فقد أصبحت روزا لوكسمبورج منذ ذلك الوقت احدى القوى الكبرى داخل الحزب الألمانى ، وأصبحت زعيمة الجناح اليسارى فيه والمتحدث الأول بلسانه ٠

وما لبثت روزا لوكسمبورج بعد ذلك حتى دخلت فى صدام جديد كان طرفه المضاد هذه المرة كارل كاوتسكى ، وذلك حول مسألة على غاية من الأهمية هى « كيفية قيام الثورة الاشتراكية » ٠٠ فقد ذهب كاوتسكى الى امكان أن تكون هذه الثورة «ثورة سلمية» تتم بالوسائل القانونية ، ودعا على أساس ذلك الاشتراكيين أن يلتزموا فى نشاطهم بالطريق الدستورى ، ويؤجلوا ثورتهم المزمعة الى ما بعد حصول الحزب الذى يمثلهم على الأغلبية البرلمانية ، فتتم الثورة حينئذ بهدوء ، فلا تكلفة أكثر من التفاوض مع النظام القديم على الاستسلام ٠٠ أما روزا لوكسمبورج فكان للثورة الاشتراكية عندها كيفية واحدة هى « العنف » ، وقد ردت على كاوتسكى بأن الأقرب احتمالا من الاستسلام السلمى الذى يتوقعه للنظام البرجوازى أن ينقض هذا النظام على الاشتراكيين حالما يلوح له أنهم سيظفرون بتلك الأغلبية ، فيضربهم بوسائله البوليسية ، أو بقوانين تحظر نشاطهم ، أو يعدل نظام الانتخاب بما يكفل الحيلولة دون ظفرهم بتلك الأغلبية ٠٠ وكل هذه الاحتمالات لها سوابق عملية ترجحها بل وتجزم بها ، وعليه فالواجب الأول والأخير للاشتراكيين فى رأيها أن يركزوا عملهم فى الاعداد للثورة الحقيقية ، الثورة العنيفة ، آخذين بالسبل غير القانونية التى يتطلبها هذا الاعداد ، وأن يقوموا بها بلا توان حالما تواتيهم الفرصة على ذلك ٠

على أن ذلك لا يعنى أن روزا لوكسمبورج قد أصبحت تقصر اهتمامها بالحركة الاشتراكية على ألمانيا وحدها ، فقد كانت تتابع مجريات هذه الحركة فى كل مكان توجد فيه ، وقد هاجمت بعنف زعماء الاضراب البلجيكى العام ، سنة

١٩٠٢ ، وعلى رأسهم اميل فاندر فيلد (١٨٦٦ ـ١٩٣٨) زعيم حزب العمال البلجيكي، وحملتهم جريرة فشله لعدم طبعهم اياه بطابع ثوري وانحرافهم الى التفاهم مع الليبراليين ؛ وعضدت لينين بقوة في الحملة التي شنها ، فيما بين سنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٢ ، ضد « الاقتصاديين » ، وهم جماعة منشقة من الاشتراكيين الديموقراطيين الروس ذهبوا الى حصر المهمة النضالية للطبقة العاملة في المجال الاقتصادي وحده واعتبار أن النضال السياسي من شأن الأحزاب البرجوازية الليبرالية .

***

وخلال هذه المجادلات الحامية ، التي دامت حتى سنة ١٩٠٤ ، حضرت روزا لوكسمبورج المؤتمر الاشتراكي الدولي الذي عقد بباريس ، سنة ١٩٠٠ ، كممثلة عن اشتراكيي بولندا ، وقد شاركت خلال انعقاده ، بحمية كبيرة ، في الحملة العنيفة على الاشتراكي الفرنسي ألكسندر ميليران (١٨٥٩ ـ ١٩٤٣) لاشتراكه ، دون تصريح من حزبه ، في حكومة والدك روسو البرجوازية .. وكانت في ذلك لا تعارض فقط اشتراك الاشتراكيين في الحكومات الرجعية ، بل كانت تعارض ، بصفة مطلقة ، دخول الاشتراكيين في أية ائتلافات وزارية ، سواء مع رجعيين أو تقدميين ، حيث أن قبول الاشتراكيين لمبدأ الائتلاف الوزاري انما يعني مباشرة قبولهم لمبدأ أنصاف الحلول ، وتخليهم عن مفهوم الثورة الاشتراكية الذي يتضمن تركز السلطة في أيدي ممثلي البروليتاريا وحدهم .

والى جانب هذا طرحت روزا على المؤتمر موضوع النزعة العسكرية ، التي كانت ريحها تهب على أوربا في ذلك الوقت ، وأثارت مناقشة كبرى بين أعضائه حول الواجبات التي ينبغي على الاشتراكيين القيام بها في مواجهة هذه النزعة ، كما تحدثت باستفاضة عن التنافس الامبريالي بين الدول الكبرى ، وما سيؤدي اليه حتما من اندلاع الحرب فيما بينها ، وضرورة تعبئة جهود العمال وتوجيه كفاحهم في مواجهة هذه الظروف .. وقد ترك هذا كله انطباعا عميقا في أذهان أعضاء المؤتمر ، وكان أثره مباشرا في القرارات التي أصدرها هذا المؤتمر .

***

ودخلت روزا لوكسمبورج السجن في ألمانيا، سنة ١٩٠٤ ، بتهمة اهانة الامبراطور ، ثم أطلق سراحها في أوائل العام التالي . فانضمت الى هيئة تحرير صحيفة « فورفارتس – الى الامام » لسان حال الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، التي تصدر في برلين . وبينما هي في برلين ، اندلعت ثورة سنة ١٩٠٥ الروسية . فالتهبت حماسا لها ، ولكن المرض أقعدها عن الاشتراك فيها ، فوجدت بعض السلوى في كتابة نشرتين، صدرتا مع نشرة ثالثة فيما بعد تحت عنوان : « الثورة دقت : ماذا بعد ذلك ؟ » ، لاجلاء معالم هذه الثورة وتعريف الشعب الألماني . وما أن واتاها شيء من القوة ، في ديسمبر من ذلك العام، حتى عبرت الى بولندا للاشتراك في الثورة التي نشبت هناك ، صدى للثورة الروسية ، ولكنها ما ان بلغت وارسو حتى وجدت الثوار هزموا والثورة أخمدت .

والحقيقة أنها لم تفاجأ بهذه النتيجة ؛ فقد كان حكمها مسبقا بالفشل على الأسلوب الثوري الذي كان ينتهجه الحزب الاشتراكي البولندي – مثير هذه الثورة ، وهو أسلوب التمرد المسلح ، أي قيام جماعات مقاتلة بأعمال ضد الدولة شبيهة بأعمال حرب العصابات : فعندها أن الجماهير هي وحدها الأساس الحقيقي للحركات الثورية ، ومن ارادتها الثورية الجماعية فقط ينطلق العمل الثوري الذي يقدر له النجاح .

والواقع أن روزا لوكسمبورج كانت تعول على الحركة الذاتية للجماهير العاملة في قيام الثورة الى أقصى الحدود ، مما عرضها للاتهام من جانب بعض زملائها الاشتراكيين بأنها تجنح نحو مذهب المفكر الفوضوي ميشال باكونين (١٨١٤ ـ ١٨٧٦) في « تلقائية » الثورة الجماهيرية ، وقد اتهمها زينوفيف (١٨٨٣ ـ ١٩٣٦) بقسوة بأنها تنكر أهمية الدور الثوري للحزب ـ الاشتراكي طبعا ـ وحاجة الجماهير الى زعامة

حزبية تقود كفاحها وتوجهه . لكن هذه الاتهامات فى الحقيقه لم تكن صحيحة ، فهى كانت تؤمن بضرورة وجود حزب منظم قوى يعمل كرأس حربة للحركة الجماهيرية ويرسم لها خططها الثورية ، لكن بشرط أن يكون هذا الحزب حزبا ديموقراطيا مسئولا مسئولية مباشرة أمام أعضائه جميعا ، وبوساطتهم ، أمام جمهرة الطبقة العاملة ؛ كما كانت تعتنق فكرة دكتاتورية الحزب فى الدولة البروليتارية ، ولكن على ألا يكون الحكم فى هذه الحالة حكما للحزب على الجماهير وانما حكما للجماهير ممثلة فى الحزب الذى لا تتجاوز مهامه تنفيذ رغباتها .

وكانت تعتقد أن الجماهير تنطلق الى الثورة بوحى من مشاعرها الغاضبة واحساسها بالاضطهاد لا عن طريق أوامر مفروضة عليها سواء كان مصدرها حزبا أو زعماء ؛ وفى اعتبارها أن السلاح الثورى الحاسم الذى تمتلكه هذه الجماهير انما هو الاضراب الشامل ، ذلك الذى يثير القلقلة والفوضى فى جميع مرافق الدولة ومؤسساتها الصناعية والحيوية .. فبانتفاضة الجماهير على هذا النحو تبدأ حقا الثورة ؛ أما دور الحزب فى الثورة فيأتى كخطوة تالية ، أو مصاحبة ، لهذه الانتفاضة ، فعليه أن ينتهز ، بلا توان ، جو الاضطراب الناجم عنها ، وفق مخطط مرسوم سلفا ، فى الاستيلاء على السلطة السياسية باسم هذه الجماهير .. ونلخص هذه النظرية الثورية فى عبارة صغيرة هى : الجماهير أولا والحزب ثانيا – وهى تعد من مآثر روزا لوكسمبورج الكبرى فى الفكر الاشتراكى .

أما بالنسبة للثورة فى بولندا ، فقد كان لروزا لوكسمبورج مفهوم خاص عنها تختلف فيه أساسا مع مفهوم الحزب الاشتراكى البولندى : اذا كان هذا الحزب يعتبر أن هذه الثورة ثورة قومية مهمتها فى المقام الأول الظفر باستقلال بولندا ؛ ومن ثم فهى موجهة قبل كل شىء ضد السيطرة الروسية على بولندا ، دون أن يغير من طبيعتها هذه أن يكون فى روسيا حكم رجعى أو حكم اشتراكى : فالشىء المطلوب على جميع الأحوال واحد ، وهو انفصال بولندا عن روسيا .

أما روزا فكانت تنظر الى الثورة البولندية من خلال الثورة البروليتارية العالمية ، فكانت تعدها عملا طبقيا تقوم به الجماهير الكادحة المستغلة ضد مستغليها وضد الدولة البوليسية التى تحمى هؤلاء المستغلين ، وأنها بذلك ليست ثورة ضد روسيا ، وانما ثورة ضد الحكم الرجعى القائم فيها ، والذى يرسف فى أغلاله كلا الشعبين البولندى والروسى ، ومعهما سائر الشعوب التى تدخل فى اطار هذه الدولة ؛ ومن ثم فليست القضية هى انفصال هذا الشعب أو ذاك عن هذه الدولة ، وانما اشتراك هذه الشعوب جميعا ، أو بعبارة أدق طبقاتها المستغلة ، فى كفاح ثورى موحد للقضاء على النظام القيصرى الرجعى القائم بها وابداله بنظام اشتراكى تتولى فيه البروليتاريا زمام الحكم لمصلحة الجماهير العاملة .

ولم يكن اعتراف روزا لوكسمبورج بالقومية البولندية فى الواقع الا نتيجة لانكارها وازدرائها فكرة القومية من أساسها : فقد كانت « العالمية » موضع ايمانها الوحيد ، وكان المجتمع العالمى الذى ينعم فيه البشر جميعا بالمساواة والاخاء منشدها وهدفها الذى لم تحد عنه قط طيلة حياتها .

وكانت تدعو بشدة الى مقاومة الحركات القومية ، على اعتبار أنها تحول دون وحدة الطبقة العاملة فى العالم ، بل وتبذر بذور الشقاق والصراع بين صفوفها ؛ وكان مبدؤها ، النابع من مذهبها الماركسى ، أن القومية من أخطر عوائق التضامن الطبقى ، وأن تحطيمها أمر جوهرى لا غناء عنه لانتصار البروليتاريا فى كفاحها ضد البرجوازية وفى تكوين مجتمع عالمى تسوده الاشتراكية .

ومن هذه النقطة الأخيرة نقفز الى موقف روزا لوكسمبورج من « مبدأ حق الأمم فى تقرير مصيرها » .. هذا الموقف الذى أوقعها فى خلاف حاد ، بلغ حد العراك العلنى ، مع لينين ، فقد رفضت رفضا باتا الفكرة التى يحملها هذا المبدأ ، مقيمة رأيها فى هذا الشأن على أن الانقسامات الطبقية هى العامل الجوهرى فى تصنيف الناس وليس تلك الناجمة عن الاختلاف فى الجنس أو اللغة ، وأن التطلع الكفاحى ينبغى أن يتجه رأسا نحو بناء سلطة عمالية دولية تذوب تحتها الحدود القومية وتختفى المشاعر الوطنية .

أما عن هذا المبدأ ، فقد تضمنته الفقرة التاسعة من برنامج حزب العمال الاشتراكى الديموقراطى الروسى (الشيوعى فيما بعد) ، الذى كان للينين اليد الطولى فى صياغته .. وقد أنكرته روزا لوكسمبورج منذ أن كان مشروعا فى هذا البرنامج ، وطالب أنصارها من الاشتراكيين الديموقراطيين البولنديين الذين شهدوا المؤتمر

الثاني للحزب الروسى ، سنة ١٩٠٣ ــ ولم تكن روزا قد حضرته ــ باستبعاد الفقرة التى تحتوى هذا المبدأ ، ولكن المؤتمر لم يستجب لهم وأقر البرنامج كله بما فيه هذه الفقرة ، فحاولوا بعد ذلك أن يحملوه على تعديلها على نحو يبعد ذلك المبدأ عن المفهوم السياسى للقومية ، ولكنه لم يستجب أيضا ٠

وقد عادت روزا لوكسمبورج فى سنة ١٩٠٨ ــ وكانت حينئذ منتمية الى حزب العمال الاشتراكى الديموقراطى الروسى ــ الى التنديد بالمبدأ المذكور ، وكتبت فى ذلك مقالا مطولا نشرته فى بولندا تحت عنوان : « مسألة القوميات والحكم الذاتى » ، عبرت فيه بحدة عن وجهة نظرها ازاء هذا المبدأ ، وقدمت الحجج على رجعيته ومنافاته لروح الماركسية ، وفى ثنايا ذلك قذفت بهذا الاتهام الخطير : « الاعتراف بحق تقرير المصير انما يعنى تأييد التعصب القومى البرجوازى » ٠٠ وهنا انبرى لينين لها بعنف ، وأصدر كتابه « حق الأمم فى تقرير مصيرها » فى تفنيد ومهاجمة حججها بصدد هذا الأمر ٠٠ وكان لينين قاسيا بحق فى رده عليها ، وقد دار قلمه بنعوت شتى فى مهاجمتها ، ولكن الشىء الذى لم يحاوله ، ولو بمجرد ايماءة ، هو التشكيك فى اخلاصها أو صدق كفاحها للقضية الاشتراكية ،

بل انه ، وفى نفس المؤلف ، هاجم الحزب الاشتراكى البولندى « لسخف المحاولات التى يلجأ اليها أحيانا لاستغلال خلافاتنا مع روزا لوكسمبورج فى مناهضة الاشتراكية الديموقراطية البولندية » ٠ وقد ظل لينين ، رغم هذه الواقعة ، محتفظا بتعاونه مع روزا لوكسمبورج واكباره لها كمكافحة ومفكرة ، وقد استشهد بأقوالها كثيرا فى معركته الحامية الوطيس مع كاوتسكى بعد قيام الثورة البلشفية ، وكان كثير التنويه بموقفها الصلب ضد اليمينيين والوسطيين من أعضاء الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى ، كما كان لا يكف عن وصفها بأنها من أعظم وأبرز قادة الحركة الاشتراكية العالمية ٠

والحق ، بعد هذا ، أن لينين كان يزدرى النزعة القومية كما تزدريها روزا لوكسمبورج ، وهو لم يرفع شعار تقرير المصير القومى الا لأسباب تكنيكية بحتة، هى الظفر بتأييد القوميات المختلفة الخاضعة للدولة الروسية وجذبها الى كفاح مشترك معه لاسقاط الحكم القيصرى فى هذه الدولة ٠

***

ونعود الى بولندا حيث تركنا روزا لوكسمبورج ٠ فقد ظهر فشل أسلوب التمرد المسلح ، الذى كان يحبذه الحزب الاشتراكى البولندى للكفاح الثورى ، بانحسار الموجة الثورية فى الدولة الروسية عقب قمع ثورة ١٩٠٥ ونتيجة لهذا حدث ، سنة ١٩٠٦ انقسام داخل هذا الحزب ، فذهب فريق منه الى الايمان بضرورة توحيد العمل مع الثوريين الروس وانضم الى صفوف الحزب الاشتراكى الديموقراطى الذى قرر فى العام نفسه الاندماج فى حزب العمال الاشتراكى الديموقراطى الروسى ، أما الفريق الآخر من الحزب الاشتراكى البولندى فقد ظل مشايعا جوزيف بلسودسكى (١٨٦٧ ــ ١٩٣٥) ــ الذى كانت زعامة الحزب قد آلت اليه ــ فى التزامه بالنزعة القومية والأسلوب التمردى فى الكفاح ، متخذا لنفسه اسم : « الحزب الاشتراكى الثورى البولندى » ٠

وكان الحزب الاشتراكى الديموقراطى البولندى حتى عام ١٩٠٥ ضعيف الشعبية الى حد كبير بالقياس الى الحزب الاشتراكى ، ولكن تأييده للاضراب العام الذى وقع فى وارسو يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٥ ، وهو الذى عارضه الحزب الاشتراكى أكسبه عددا ضخما من الأنصار ، خاصة بين عمال المصانع ، ثم ازداد قوة فى العام التالى بانضمام جانب من الحزب الاشتراكى اليه على نحو ما ذكرنا ٠

وقد حدا ذلك بروزا لوكسمبورج الى المكوث فى بولندا ــ تحت اسم مستعار ٠ وراحت تسعى بكل قواها الى تأليب الفلاحين على الاقطاعيين وجذبهم الى الحركة الثورية، الى جانب حث العمال على القيام بالاضرابات ، فألقى القبض عليها ، هى وزميلها يوجيشس ، فى مارس ١٩٠٦ ٠ وكتبت فى سجنها عدة نشرات ثورية هربتها الى الخارج غير أن انهيار صحتها، الى جانب جنسيتها الألمانية أدى بالسلطات الروسية الى اخلاء سبيلها بعد بضعة أشهر من القبض عليها ، بينما أرسل

زميلها الى سيبيريا حيث تمكن من الفرار بعد فترة وجيزة ٠ ثم سمح لها بمغادرة بولندا ، فذهبت الى فنلندا ،حيث كتبت رسالة هامة عن «الاضراب الجماهيري ، والحزب ، والنقابات » تناولت فيها بالشرح نظريتها - التي سبقت الاشارة اليها - عن الثورة الجماهيرية وصلة الحزب بها ٠

***

وقد اشتركت روزا لوكسبورج في المؤتمر الاشتراكي الدولي الذي عقد في مدينة شتوتجارت سنة ١٩٠٧ ، كعضو في الوفد الروسي - الذي كان لينين أيضا من أعضائه ، وقامت بدور رئيسي في المناقشات التي دارت في هذا المؤتمر حول واجب الاشتراكيين والحركة الاشتراكية في البلدان الأوربية في حالة قرب اندلاع الحرب فيما بينها أو اندلاعها بالفعل ، وعينها المؤتمر عضوا في لجنة ألفها للاستقرار على قرار موحد له بهذا الصدد بعد أن تضاربت مشروعات قرارات الوفود في هذا الأمر ، واذ استقر رأى اللجنة على مشروع قرار بايبل - المندوب الالماني في المؤتمر - تقدمت هي ولينين ومارتوف باسم الاشتراكيين الديموقراطيين الروس بتعديلات واضافات عليه، كانت تدور في جوهرها حول ابراز دور التنافس على التسلح في قيام الحروب ، والتأكيد على النواحي التربوية في نشاط الاشتراكيين لطبع النشء بالمبادىء والأفكار الاشتراكية ، وواجب البروليتاريا عند نشوب الحرب في استغلال الازمات الاقتصادية والسياسية التي تنجم عن هذه الحرب في اثارة طبقات الشعب الدنيا ضد الحكم البرجوازي القائم والعمل سريعا على اسقاطه ٠٠ وقد صادفت هذه الملاحظات قبولا لدى وفود الاحزاب الاشتراكية المجتمعة ، فأقرها المؤتمر وأصدر بها قراره النهائي ٠

***

وفي سنة ١٩٠٨ عادت روزا لوكسمبورج الى المانيا لتحاضر في الاقتصاد السياسي في مدرسة أنشأها الحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني لتنمية وعي وثقافة العمال المنتمين اليه ، والى جوار ذلك ظلت تمارس دورها بنشاط كبير داخل الحزب الالماني ، ولكن من موقع اليسار المتطرف، الذي كاد عمله وقتئذ ينحصر في معارضة سياسة الحزب التي كان يوجهها المعتدلون ممثلو الوسط٠

والواقع أن الاحوال قد تغيرت كثيرا داخل هذا الحزب ببروز روزا لوكسمبورج في محيط زعامته ٠ فقد كان هذا الحزب لايعرف منذ سنة ١٨٩٠ غير جناحي اليسار واليمين، يتزعم الأول بايبل وكاوتسكي والثاني فولمار وبرنشتاين ، ولكن آراء وشخصية روزا لوكسمبورج لعبتا دورا جوهريا في خلق جناح أكثر تطرفا ، أخذ ينمو ويشتد ويجتذب الانصار من أعاظم الرجال والنساء حتى احتل ، حوالي سنة ١٩٠٥ ، المركز اليساري في الحزب وأنزل اليسار القديم الى مركز الوسط ، فأصبح الحزب بذلك منقسما الى يسار ثوري ويمين اصلاحي ووسط معتدل ٠

وكان الوسط هو المسيطر على الحزب ، الا أنه أخذ ينزلق يوما بعد يوم في اتجاه اليمين ، فأخذت بالتالي شقة الخلاف تتسع بينه وبين اليسار ، وأدى تطور الأمور على هذا النحو الى أن أصبح اليسار يقف في جانب والحزب كله في جانب آخر ، ومع ذلك فلم يفكر الحزب في التخلص من يسارييه هؤلاء ٠٠ اذ كان عليه أن يحسب حساب فقدان أعلام مثل كارل ليبنخت وكلارا زتكين وجورج ليديبور وفرانز ميهرنج - بالاضافة طبعا الى روزا لوكسمبورج ، وقبل هذا ما سيتهدد قوته وشعبيته عندما يعمد هؤلاء اليساريون الى تكوين حزب اشتراكي جديد أكثر منه ثورية وأشد تعصبا للمبادىء الماركسية ٠

وقد جاءت أزمة الحقوق الانتخابية في بروسيا، سنة ١٩١٠ ، لتكشف الى أي مدى أصبح التناقض بين تفكير روزا لوكسمبورج المتطرف وبين سياسة الحزب المعتدلة : اذ دعت روزا لوكسمبورج الى تنظيم اضراب عام للطبقة العاملة لارغام الحكومة البروسية على تطبيق حق الانتخاب المتساوي لجميع أفراد الشعب ، فرفض الحزب طلبها خشية أن يؤدي به الى صدام بالدولة يدفعها الى اعادة القوانين التي سبق أن استنها بسمارك لحظر النشاط الاشتراكي في ألمانيا ؛ ثم لم تلبث ، في نفس العام ، أن دعت الحزب الى أن يجهر بمعارضة النظام الملكي القائم ويرفع شعار « الجمهورية الديموقراطية » ، ولكنه رفض ذلك أيضا للسبب السالف ٠

وتوالت المصادمات على هذا النحو بين روزا لوكسمبورج وبين الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني ٠ وتوترت العلاقة بينها وبين كاوتسكي، زعيم الوسط ، بصفة خاصة ، الى درجة أنه رفض أن ينشر أحد مقالاتها في جريدة « نوي زايت » ، فانفصلت عنها ، وأسست بالاشتراك مع فرانز ميهرنج (١٨٤٦ - ١٩١٩) جريدة

جديدة خاصة باليسار ، ظهر العدد الأول منها فى سنة ١٩١٣ • وفى تلك السنة أيضا ظهر مؤلفها الأشهر « تراكم رأس المال » ، الذى أثار جدلا كبيرا بين الماركسيين لما عدوه منه مراجعة لنظرية ماركس عن « أزمات الرأسمالية » •

والحق أن نظرية أزمات الرأسمالية هذه ، وهى الذاهبة الى أن الازدياد المستمر فى الانتاج الرأسمالى يقابله بالضرورة ضيق مستمر فى سوق الاستهلاك مما يوقع الاقتصاد الرأسمالى فى أزمات دورية تزداد عنفا على مر الأيام الى أن تودى بالنظام الرأسمالى بأسره فى النهاية ، هذه النظرية قد أثارت الكثير من الجدل بعد وفاة ماركس ، ليس فقط من جانب المفكرين البرجوازيين ، الذين كانوا يؤكدون عكسها ، وانما أيضا من جانب العديد من المفكرين الاشتراكيين : ذلك أن الأحداث اللاحقة قد سارت فى طريق معاكس لما ذهبت اليه هذه النظرية ، اذ أخذت هذه الأزمات تتباعد وتقل حدة بدلا من أن تتفاقم ويستفحل خطرها كما تقرر هذه النظرية •

بل ، والى جانب ذلك ، كانت ثمة مشاهدات تتعلق بجوانب أخرى فى المذهب الماركسى حار فى أمرها الماركسيون قبل غيرهم : فلماذا جنحت أجور العمال الى الارتفاع بدلا من أن تسير الى الانخفاض كما جزم بذلك ماركس ؟ •• ولماذا أخذت أحوال العمال عموما فى التحسن ، فقلت ساعات عملهم وبدأوا يحصلون على الرعاية الاجتماعية والقانونية ، بدلا من أن تسوء هذه الأحوال كما كان منتظرا ؟ •• ولماذا ينتعش البرجوازيون الصغار بدلا من أن ينحدروا الى مستوى الطبقات الدنيا ؟ •• ولماذا زاد عدد أصحاب رؤوس الأموال، وكثر أصحاب المشروعات الصغيرة كثرة هائلة ، وان كان ذلك بصورة جديدة هى صورة « حملة الأسهم » ، وذلك بدلا من أن يحدث العكس ؟ •• ولماذا يرتفع المستوى العام للمعيشة بدلا من أن يتدهور ويلوح شبح « الافقار التام » •• وعليه : أين الانهيار الرأسمالى المرتقب ؟ ، أين مجرد بوادره ؟ ، بل كيف حدث العكس فازدادت الرأسمالية قوة وازدهارا ؟

ذلك كله كان صدمة لأولئك الذين كانوا موقنين بالتحقق الآلى للنظريات الماركسية ، هذا اليقين الذى جعل مؤتمر الدولية الاشتراكية فى سنة ١٨٩٦ يصدر نداءه المشهور الى عمال العالم بأن يدربوا أنفسهم على أساليب ممارسة السلطة السياسية لقرب وقوع الرأسمالية فى الأزمة الحاسمة التى تطيح بها • كما كان دافعا لماركس مثل برنشتاين الى تقليب النظر من جديد فى المذهب الماركسى كله ، وانكار حتمية انهيار الرأسمالية ، بالصورة التى قدمها ماركس •

وبالرغم من أن روزا لوكسمبورج لم تتخل قط عن ايمانها بحتمية انهيار الرأسمالية بفعل تناقضاتها الداخلية كما بين ذلك ماركس ، وبالرغم من موقفها الصارم ـ الذى سبق أن أوضحناه ـ ضد برنشتاين وحركته التنقيحية ، الا أنها ذهبت الى أن ماركس قد وقع فى خطأ كبير حينما لم يأخذ بالاعتبار الكافى امكانيات الرأسمالية وقدراتها التوسعية ، الأمر الذى جعله يخطىء التقدير فى تبين مستقبلها والتعرف على مدى صلابتها وقدرتها على مقاومة أزماتها • وقد ذهبت فى كتابها « تراكم رأس المال » فى تفسير خروج الرأسمالية ظافرة من هذه الأزمات، الى أن الرأسمالية تستطيع باستمرار أن تتوسع وتستحدث وسائل للتنفس كلما أوشكت على الاختناق ، وذلك عن طريق غزو المناطق المتخلفة، واستبدال الأساليب الأكثر بدائية فى الانتاج، كأساليب الحرفيين والفلاحين ، فتنشىء بذلك استثمارات جديدة ، وتخلق أسواقا جديدة تصرف فيها انتاجها المتزايد الذى لا تستوعبه السوق المحلية ، كما أن التقدم الفنى الرهيب فى وسائل الانتاج سيمكن الرأسماليين من جنى أرباح طائلة تمكنهم بدورها فى المستقبل من فتح آفاق جديدة لرؤوس أموالهم ، كلما ازدادت تراكما ، ولانتاجهم ، كلما ضاقت عن استيعابه الأسواق القائمة • ولكنه بالرغم من أن هذه المتنفسات المستجدة للرأسمالية ستتيح لها التغلب على أزماتها الى وقت طويل ، فانها ستعمل من جانب آخر على زيادة حدة وخطورة هذه الأزمات : ذلك أن الرأسمالية ستحمل معها متناقضاتها فى كل مجال تطرقه أو مكان تحل فيه ، وتبعا لتوسعها وتضخمها ستتسع هذه المتناقضات وتتضخم ، وينعكس أمرها هذا فى

الأزمات ، التى هى وليدة هذه المتناقضات ٠٠ وفى النهاية ، عندما تكون الرأسمالية قد بلغت آخر مراحل توسعها ، واستنفدت كافة وسائل تنفسها ، وتكون متناقضاتها بالتالى قد بلغت غايتها من العمق والاستفحال ، تنفجر الأزمة الأخيرة ، رهيبة مروعة ، على نطاق عالمى شامل، فتنسف النظام الرأسمالى ، بجميع صوره الاقتصادية والاجتماعية ، من العالم برمته ٠ لكن روزا تكرر دائما أن هذه النهاية ، أى نهاية الرأسمالية بفعل تناقضاتها ، مازالت جد بعيدة، وأنه ينبغى النظر اليها دائما بهذا الاعتبار ، وأن ماركس قد جانبه الصواب فى تصوره للعجلة التى ستحل بها ٠

ولكن هل معنى ذلك أن الرأسمالية ستعمر حتى توافيها هذه النهاية ، أو هذه الميته الطبيعية ؟ ٠٠ هنا تخرج روزا لوكسمبورج بنظريه جديدة فى الانهيار الرأسمالى ، مؤداها ان هذا الانهيار سيقع ، رغم ما تقدم ، عاجلا ، ولكن ليس نتيجة لأزمات اقتصادية كما ذهب ماركس ، وانما نتيجة لعامل آخر هو المنافسة الاستعمارية والتجارية بين الدول الرأسمالية : فتنافس هذه الدول على غزو المناطق المتخلفة واحتكار أسواقها ومواردها سيفضى الى نتيجة لازمة هى : الحرب فيما بين هذه الدول ؛ وستكون حربا هائلة مدمرة تتصارع فيها الأطماع الرأسمالية قد صرعت نفسها بنفسها ، ولن تفعل الثورة العمالية ، التى ينبغى أن تنطلق وقتئذ ، أكثر من مواراتها التراب واحلال النظام الاشتراكى محلها ٠٠٠ ونعيد التعبير عن هذه النظرية فى كلمات قليلة هى أن انهيار الرأسمالية لن يتم عن طريق موتها وانما عن طريق انتحارها٠

ولقد صحت هذه النظرية بصورة مدهشة فى الحربين العالميتين السابقتين : فالاثنتان قد نشأتا بين الدول الرأسمالية بسبب منافساتها الاستعمارية والتوسعية ، وأحدثت كل منهما آثارا مدمرة على اقتصاد وقوة هذه الدول ـ باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية التى دخلتهما متأخرة وكانت أرضها بمعزل عن ساحاتهما ـ وكان من جراء ذلك أن ترنحت النظم الرأسمالية فى معظم أرجاء العالم ، فنشطت الحركات الاشتراكية ، واندلعت ثوراتها ، وحققت انتصاراتها الحاسمة ، هذه الانتصارات التى جعلت للاشتراكية الآن معسكرا عالميا راسخا يضم ٣٥٪ من سكان العالم أى أكثر من ألف مليون نسمة ؛ ومن الحقائق الثابتة أنه لولا وجود الولايات المتحدة على المسرحين السياسى والاقتصادى عقب الحرب العالمية الثانية لابتلعت الاشتراكية أوربا بأكملها وفى اثرها العالم بلا استثناء ٠

وهذا الكتاب ، تراكم رأس المال ، رغم أهميته القصوى فى تجديد الفكر الماركسى ، كان سيىء الحظ الى حد كبير عند ظهوره ٠ فقد ظهر والحرب العالمية الأولى على الأبواب ، والانتباه كله ، بما فى ذلك انتباه الاشتراكيين ، متجه نحوها ، فلم يأخذ حظه من الانتشار أو الدراسة الدقيقة ٠٠ ومن بين الذين قرأوه من المنظرين الماركسيين حينئذ رحب به نفر قليل بينما عدته الكثرة الغالبة مراجعة غير مقبولة للنظريات الماركسية٠ الا أنه عاد ففرض الاهتمام به بعد نحو خمسة عشر عاما ، حينما تعرضت الرأسمالية لأزمتها الكبرى فيما بين سنتى ١٩٢٩ و١٩٣٣ ، وتغلبت عليها ، الأمر الذى دعا المفكرين الاشتراكيين الى اعادة النظر جديا فى نظرية ماركس الخاصة بأزمات الرأسمالية والرجوع فى ذلك ، بصفة أساسية ، الى كتاب روزا لوكسمبورج المذكور ٠

***

وقامت الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ ٠ ولكم ألم روزا لوكسمبورج وقتئذ تراجع الاشتراكيين الأوربيين ـ باستثناء قلة ـ عن سابق موقفهم حيالها ، فاذا بهم بدلا من أن يقاوموها أو يستغلوها فى اسقاط النظم الرجعية بدولهم كما وطدوا العزم من قبل ، يسارعون الى مساندة حكوماتهم فيها ، ويوافقون على الاعتمادات المطلوبة لها ٠٠ وذلك بدعوى « حماية الوطن » ٠

لقد عدت روزا لوكسمبورج هذا الموقف من جانب الاشتراكيين ـ وهو الموقف الذى حمل فى الواقع نهاية عصر الاشتراكيات الديموقراطية وأعلن وفاة الدولة الثانية ـ خيانة للمبادىء الاشتراكية وجريمة لا تغتفر فى حق الانسانية، ووقفت ، بالاشتراك مع كارل ليبنخت ، داخل الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى ، الذى أيد هو الآخر سياسة حكومة دولته فى دخول الحرب، على رأس اليساريين المتطرفين الذين كانوا يمثلون ، الى جانب كاوتسكى وبرنشتاين ومشايعيهما ، الأقلية المناهضة للحرب داخل الحزب ، ووضعت لهم خطة عمل بعنوان : « مهمات الاشتراكية الديموقراطية الدولية » أكدت فيها الأهداف اللاقومية للاشتراكية وركزت على ضرورة استغلال البروليتاريا فرصة الحرب الدائرة فى تسديد الضربة القاضية الى النظم الرجعية والاستيلاء على مقاليد الحكم ٠

وقد ألقت روزا في الأيام الأولى لنشوب الحرب خطبة ملتهبة فضحت فيها الأطماع الاستعمارية للسياسة الألمانية وحرضت الجنود جهرا على التمرد وعصيان الأوامر الصادرة اليهم بالقتال ، فحكم عليها بالسجن لمدة عام ، ولكنها واصلت خطبها على هذا النحو ، وأخذت تشتد يوما بعد يوم في مهاجمة الحرب واستنهاض العمال والجنود للثورة ، فأودعتها السلطات الألمانية السجن أخيرا في فبراير سنة ١٩١٥ .

ولبثت في سجنها حتى أطلقت سراحها الثورة الألمانية ، التي أطاحت بالامبراطور وأقامت الجمهورية ، وذلك في أوائل نوفمبر من سنة ١٩١٨ . وعلى الفور من ذلك أسست مع كارل ليبنخت جريدة « دي روته فاهنه - الراية الحمراء » لتنطق باسم « عصبة اسبارتاكوس » - وهو الاسم الذي أطلقه اليساريون المتطرفون الألمان على أنفسهم في ابريل سنة ١٩١٧ عندما انفصلوا عن الحزب الاشتراكي الديموقراطي - وفيها عبرت عن ترحيبها الشديد ، وفرحة عصبتها ، بانتصار الثورة البلشفية في روسيا .

ولكن روزا لوكسمبورج ، رغم ترحيبها هذا ، كانت تساورها الشكوك في سلامة بعض جوانب السياسة التي انتهجتها الثورة الروسية ، وقد أوردتها كتابها « الثورة الروسية » الذي نشر في سنة ١٩٢٢ ، اذ كانت تخشى أن تؤدي دكتاتورية الحزب الى اقصاء الجماهير العاملة عن الاضطلاع بمسئولياتها وطمس المعنى الحقيقي لدكتاتورية البروليتاريا ، وكانت تتخوف تخوفا جديا من أن يؤدي التركز المستمر للسلطة داخل الحزب الى قيام بيروقراطية محترفة تخضع الجماهير لحكمها ومصالحها باسم « الثورة » .

الا أنها قد ساهمت بصورة ايجابية مجدية ، رغم قصر المدة التي أتيحت لها فيها هذه المساهمة ، في شئون هذه الثورة ، وكان من أبرز ذلك معارضتها انشاء « سوفييتات الفلاحين » ومطالبتها بأن ينشأ بدلا منها « سوفييتات الأجراء الزراعيين وفقراء الفلاحين » .. وكان لينين متجاوبا معها في ذلك . واستشهد بمقالها في هذا الموضوع ، الذي نشر في العدد الثالث من جريدة « روته فاهنه » ، في خطابه أمام المؤتمر الأول للدولية الشيوعية ، وأيد باصرار ذلك الذي ذهبت اليه .

وفي ديسمبر من سنة ١٩١٨ قررت روزا لوكسمبورج وزملاؤها في عصبة اسبارتاكوس تحويل العصبة الى «الحزب الشيوعي الألماني» . وأخذوا يعدون عدتهم للقيام بثورة بروليتارية في ألمانيا على غرار الثورة الروسية .

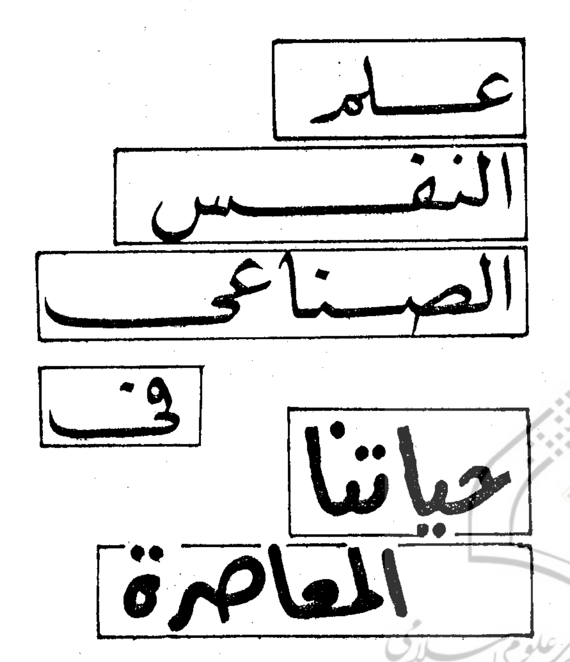
وفي ٦ يناير من سنة ١٩١٩ بدأوا الثورة ، بالاشتراك مع سائر الجماعات اليسارية ، فنظموا اضرابا عاما في برلين ، استجابت له الطوائف العمالية ، وكونوا لجنة ثورية عسكرية لقيادة العمليات المسلحة ، واحتل ثوارهم مركز الشرطة في برلين ، ومكاتب الجريدة الناطقة باسم الحكومة ، وعددا آخر من مباني المرافق الهامة في الدولة . وقاومت الحكومة الثورة بعنف شديد ، بوساطة « الفرق الحرة » ، التي كونتها من الضباط والجنود السابقين ، فدار القتال في شوارع المدينة ، واستطاعت هذه الفرق أن تقتحم مراكز الثوار ، وتدمر المباني التي استولوا عليها .. وما وافى يوم ١٣ يناير حتى انتهى القتال وتم اخماد الثورة .

وفر الكثير من زعماء الثورة من برلين ، وانزوى في المخابيء من آثروا البقاء ، وكان من هؤلاء الأخيرين روزا لوكسمبورج .. وفي يوم ١٥ يناير ، ألقت سرية من الفرق الحرة القبض على روزا لوكسمبورج وكارل ليبنخت ، ولم يرق لضباطها أن يدعوا أمرهما للقضاء في المحاكم ، فأطلقوا عليهما الرصاص أثناء اقتيادهما الى السجن ، فقتل ليبنخت على الفور ، ولفظت روزا أنفاسها بعده بساعات قلائل ، ثم ألقيت جثتها في احدى الترع ، ولم تنتشل منها الا بعد أيام عديدة .

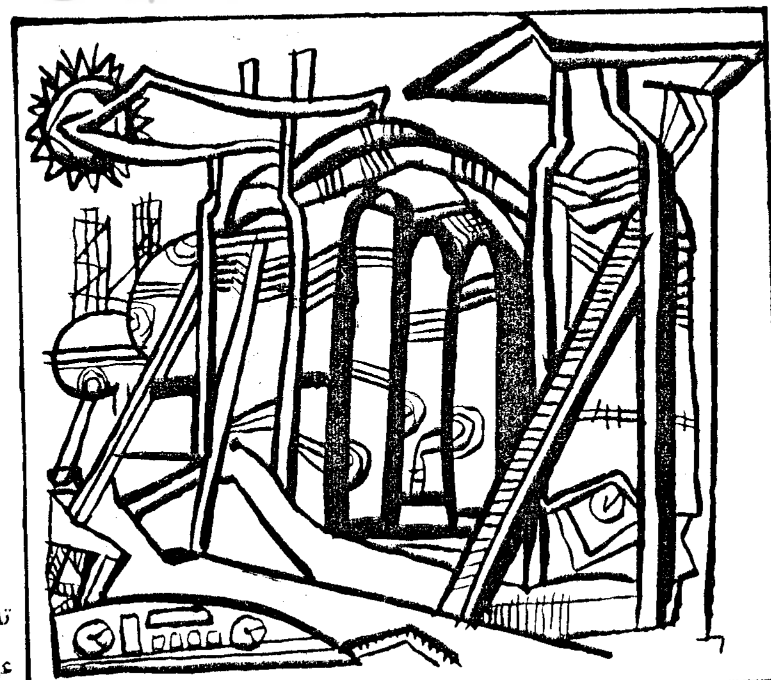
وبهذه الصورة البشعة كانت خاتمة حياة هذه الشخصية الفذة .. التي مهما اختلفت المواقف من آرائها ، فانها تتحد في التسليم بأنها كانت مفكرة أصيلة ، ثاقبة النظر ، تركت آثارها جلية بارزة في تاريخ الفكر الاشتراكي ، وبأنها كانت مكافحة عظيمة تفانت في الكفاح من أجل مبادئها بصورة لا يكاد أن يوجد شبيه لها في التاريخ الانساني بأسره .

محيي الدين خطاب

كتب جديدة



حرص المؤلف الدكتور السيد محمد خيرى فى مقدمة كتابه أن يوضح للقارىء أن مادة كتابه ليست مجرد جمع للحقائق والدراسات والبحوث التى تزخر بها الكتب والمراجع الاجنبية ، وانما تحوى بالاضافة الى ذلك الجهود المحلية فى كل مجال من مجالات علم النفس الصناعى . ولقد أفاد من الخبرات والجهود التى ساهم بها فى عمليات الاختيار والتدريب فى كل من المجال الوظيفى (الادارى) والصناعى حيث عمل عضوا فى الهيئة الفنية لمراقبة الاختبار والتمرين بديوان الموظفين منذ نشأته فى أوائل الخمسينات ، كما عمل مستشارا لمراقبة الاختبارات السيكلوجية بمصلحة الكفاية الانتاجية منذ نشأتها كمركز للكفاية



تأليف : د . السيد محمد خيرى
عرض : د . سيد محمد غنيم

الانتاجية حتى اليوم ، كما أنشأ قسم الاختبارات السيكلوجية والاشراف الاجتماعى الذى يضم عددا من الاخصائيين السيكلوجيين والاخصائيين الاجتماعيين والذى قام باعداد وتقنين عدد من بطاريات الاختبارات للحرف المهنية المختلفة ۰ ومن هنا جاءت مادة الكتاب مزودة بالدراسات والبحوث والخبرات المحلية بالاضافة الى الدراسات والبحوث والخبرات الاجنبية ۰

والكتاب الذى نقدمه يقع في ٥٣٣ صفحة من القطع الكبير نشرته دار النهضة العربية ويحتوى على عشرة فصول يعالج كل فصل منها موضوعا من موضوعات علم النفس الصناعى ۰

***

والفصل الاول يضم نبذة عن نشأة علم النفس الصناعى من حيث هو أحد المجلات التطبيقية لعلم النفس ۰ فمنذ بحوث كربلين فى أواخر القرن الماضى عن التعب والتدريب ومدى تأثيرهما على الانتاج فى مراحل زمنية مختلفة ، قامت سلاسل من الدراسات تبحث العمل فى جميع مظاهره بهدف الوصول الى حقائق عامة ونظريات تتعلق بالعمل بوجه عام وتفسير دوافعه ومراحله وتطوره مهما اختلفت ظروفه واختلف القائمون به ۰ فشملت الدراسات المتعلقة بفترات الراحة وأثر عددها أو تنوع النشاط الذهنى والبدنى الذى تستغل فيه هذه الفترات ، وكذلك أثر تغير طول ساعات العمل اليومى على الانتاج وتغير كمية الانتاج ونوعه بالتقدم الزمنى أثناء العمل وكذلك منحنيات العمل أو منحنيات التعلم التى توصلت اليها هذه الدراسات ، الى غير ذلك من الموضوعات المتصلة بطبيعة الاعمال الروتينية والابتكارية وتجارب التعب وقياسه وانتقال أثر التدريب والتعب الذاتى وتذبذب الانتباه الخ ۰

وقد أشار أيضا الى الجهود التى قام بها كثير من علماء النفس الصناعى فى هذا الصدد۰ فأشار الى دراسات تايلر والاسس العلمية التى اقام عليها هذه الدراسات والتى تتلخص فى الدراسة العلمية لكل عنصر من عناصر العمل الذى يقوم به الانسان واختيار أنسب العمال لكل عنصر من عناصر العمل وتنظيم برنامج تدريبى للعمال بناء على دراسة العمل ثم اشاعة جو من التعاون المخلص بين الادارة والعمال أثناء قيامهم بالاعمال التى يكلفون بها مما يعطى فرصة كافية لعمل كل من الطرفين لصالح الطرف الآخر ثم تقسيم الاعمال تقسيما متعادلا بين الادارة والعمال حيث يقوم كل قسم بالاعمال التى تناسبه تماما بدلا من القاء عبء العمل والقدر الاكبر من المسئولية على العمال ۰

كما أشار أيضا الى جهود جلبرت ، تلك الجهود التى تعتبر حلقة هامة فى سلسلة الاهتمام بالعامل الانسانى فى الصناعة ۰ وقد اهتم جلبرت أساسا بالبحث عن « الطريقة المثلى للاداء » بمعنى الوصول الى الطريقة التى تحقق لكل من صاحب العمل والعامل أكثر ما يمكن تحقيقه من فائدة وراحة ۰ كما اهتم أيضا بتطبيق أسس الادارة السيكلوجية ودراسة الحركة خلال الحرب العالمية الاولى فى تدريب المجندين وتأهيل مشوهى الحرب واختيار أنسب الاعمال لكل منهم ۰

وقد تضمن هذا الفصل الاول بالاضافة الى ما تقدم تحديد ميادين هذا الفرع من فروع علم النفس وقد حددها بالمجالات الآتية :

١ ـ دراسة حاجات المهن واعداد تطبيق الاختبارات المناسبة لتحقيق الاختيار العلمى للعمال ثم التوجيه الصحيح للأفراد ومعاونتهم على اختيار مهنة الحياة اختيارا صحيحا ۰

٢ ـ دراسة خير الطرق لاستخدام الطاقة البشرية فيما يتعلق بالتخلص من الحركات غير اللازمة والتوزيع المنتج لفترات الراحة وتقليل الرقابة المملة فى العمل تحقيقا لزيادة الاهتمام والميل ۰

٣ ـ الوصول الى الشروط المتعلقة بالاضاءة والتهوية والضوضاء وغيرها مما يؤدى الى أكبر قدر من الصحة والراحة وصالح العمل بوجه عام ثم المتعلقة بطرق رفع الاجور وتمثيل العمال ۰۰الخ التى تؤدى الى أفضل العلاقات بين العمال والادارة ۰

٤ ـ تدريب العمال تدريبا فنيا ويتضمن تطبيق الاسس السيكلوجية فى عمليات التعلم وتكوين العادات الصالحة بين المبتدئين وتدريب المشرفين ۰

٥ ـ دراسة العوامل المؤثرة على بيع المنتجات كالاعلان والدعاية والتخطيط الخ ۰

وقد أوضح المؤلف أهمية علم النفس الصناعى فى الدول المتقدمة التى استفادت منه أكبر فائدة فى العمل والانتاج والجهود التى كرست لهذا الفرع والمؤلفات والمجلات العلمية لنشر أبحاثه ودراساته وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية

وانجلترا وألمانيا والاتحاد السوفيتي • كما أشار أيضا الى الجهود التى تبذل فى الدول النامية للافادة من هذا الفرع وخص الجمهورية العربية المتحدة بالذكر • وقد ركز على مجالين فقط من عديد من المجالات التى استخدمت فيها الاساليب السيكلوجية على نطاق واسع وهما جهود ديوان الموظفين ومصلحة الكفاية الانتاجية بوزارة الصناعة • فديوان الموظفين منذ نشأته عام ١٩٥٢ قد ركز على هذا الجانب الهام وضمن اقسامه ادارة عامة للاختبار والتمرين هدفها الاختيار السليم للموظفين بناء على أسس علمية سليمة متبعة أحدث الاختبارات التى اقتبست والتى أعدت لتحقيق هذا الهدف • أما مصلحة الكفاية الانتاجية فقد اتسعت اهتماماتها لتشمل ميدانين هامين من ميادين علم النفس الصناعى هما :

١ ـ التدريب المهنى ويشمل مراقبة الاختبارات السيكلوجية والاشراف الاجتماعى ومراقبة مراكز التدريب ومراقبة الاشراف والتتبع •

٢ ـ ميدان الكفاية الانتاجية وتشمل مراقبة الادارة العامة ومراقبة المشروعات النموذجية ومراقبة الامن الصناعى ومراقبة التكاليف الصناعية ومراقبة الاستعلامات الفنية والعلاقات الصناعية •

وإذا كان علم النفس الصناعى يهتم بالعمل والانتاج ، فمن الطبيعى أن يركز أساسا على دراسة الانسان العامل • وأول ما يلفت النظر فى هذه الدراسة مسالة الفروق الفردية الموجودة بين العاملين فى أدائهم لما يطلب اليهم القيام به من أعمال من حيث السرعة والدقة والاتقان • ولذا اختص الفصل الثانى من الكتاب بدراسة الفروق الفردية وطبيعتها ومداها • فلكل منا شخصية فريدة لا يعادله فيها أحد • وهذه الشخصية تنعكس فى سلوكه وتفاعله مع غيره ، فى استعداداته الذهنية وميوله وغير ذلك من المميزات العضوية والنفسية التى تؤثر تأثيرا مباشرا أو غير مباشر فى انتاجه • وكان من الطبيعى أن يقوم علم النفس الصناعى فى أغلب بحوثه وحقائقه التى يصل اليها على الاعتراف بهذا المبدأ أساسا • وقد أشار المؤلف الى حقيقة هذه الفروق الفردية ونشأتها وتطورها وكيف ان اهمية الاعتراف بها فى ميدان الصناعة والعمل لا يمكن اغفالها فى عمليات الاختيار والتوجيه والتدريب • وقد عالج بعض المشكلات المتصلة بطبيعة هذه الفروق الفردية وهل هى فروق كمية أم نوعية ، وهل تنتظم القدرات فى توزيعها بين مختلف الاشخاص فى اطار عام أم انها تتوزع حسبما اتفق دون أن تجتمع تحت نسق عام ، ثم ما مدى التفاوت الموجود بين مختلف الشخصيات فى أية سمة أو قدرة معينة • كما أوضح أيضا ان هذه الفروق ليست قاصرة على الفروق بين الأفراد بل وتتضح أيضا داخل الفرد الواحد • ذلك ان امكانيات الفرد الذهنية والانفعالية ليست كلها فى مستوى واحد • فلكل منا جوانب يتميز فيها على باقى الجوانب الاخرى • ومن الثابت ان الجوانب المختلفة فى شخصية الفرد ليست فى مستوى نسبى واحد • وهذا لا يتعارض مع وحدة الشخصية وتمايزها عن غيرها • وهذا الاختلاف فى المستوى النسبى لمختلف جوانب الشخصية هو الذى يجعل لكل فرد أسلوبه المتميز فى سلوكه وأسلوب تفاعله مع غيره ، وهو الذى يحدد درجة نجاح الفرد فى مختلف الاعمال ويضفى على أسلوب سلوكه انتظاما واستقرارا ، وهذا ما يساعد على ايجاد وحدة الشخصية وتمايزها •

وهذا الاختلاف فى الجوانب المختلفة من حيث المستوى النسبى للفرد الواحد قد أوحى للباحثين تخطيطا واحدا لكل شخصية توضح هذه الفروق بحيث تسهل المقارنة بين المستويات المختلفة فى الشخصية الواحدة مما أدى الى استخدام ما يسمى باسم الصفحة النفسية أو البروفيل النفسى الذى هو تخطيط يوضح الوضع النسبى للفرد (بالنسبة للعينة الممثلة لمجتمعه) فى مختلف جوانب الشخصية بحيث يستطيع الاخصائى من نظرة مباشرة فاحصة لهذا التخطيط الوقوف على نواحى القوة والضعف وبهذا يتسنى له اجراء عملية الاختيار والتوجيه على هذا الاساس •

وقد تطلب الأمر معالجة بعض المفاهيم الاحصائية التى تتصل بهذه النواحى كالدرجات الخام والدرجات النسبية وجداول المعايير، وكيف ان المعيار الذى تنسب اليه أية درجة من الدرجات الخام يتوقف على طبيعة الاختبار وطبيعة عينة التقنين ، وكيف ان تقييم الفروق الفردية عن طريق الاختبارات والمقاييس السيكلوجية انما هو تقييم نسبى وليس مطلقا وهو فى هذا يختلف عن المقاييس المادية المستخدمة فى أى فرع من فروع المعرفة الاخرى كالطبيعة والكيمياء •

وقد تضمن هذا الفصل الثانى أيضا اشارة الى أهم أنواع الاخطاء التى تتعرض لها تقديرات

الفروق الفردية فأشار الى الخطأ الثابت الذىيعبر عن ميل الاخصائى نحو اعطاء تقديراته لمختلف الاشخاص فى اتجاه معين كالميل الى التشدد أو التساهل فى اعطاء التقديرات ثم الى خطأ الهالة الذى يتضح فى انتقال الانطباع العام الذى يحدثه الشخص لدى الاخصائى الى تقديره فى سمات نوعية محددة • فالشخص اللبق الذى يحسن التعبير عن نفسه كثيرا ما يستطيع التأثير على تقديرات الاخصائيين له فى جوانب محددة من جوانب الشخصية كالذكاء والقدرة على التعاون والامانة مثلا •

وقد احتوى هذا الفصل أيضا تعريفا بأهم أنواع طرق التقدير حيث ميز أربعة أنواع منها هى :

١ ـ طريقة الترتيب وتشير الى عدد الافراد الذين يتفوق عليهم أو يتخلف عنهم وان كانت هذه الطريقة لا تشير بوضوح الى درجة التفوق أو التخلف •

٢ ـ طريقة قياس التقدير حيث يطلب من الاخصائى وضع المختبر فى فئة معينة من عدد ـ الفئات التى تعطى له وقد تكون هذه الفئات عددية على مقياس متدرج أو نوعية منفصلة •

٣ ـ طريقة قائمة الصفات حيث يوضع أمام المقدر عدد من الصفات أو السمات ويطلب اليه أن يضع علامة أمام الصفات التى يرى انها تنطبق على الشخص الذىيقوم بتقييمه ويراعى أن تتضمن العبارات مختلف الجوانب التى يتخذها أساسا للتقييم وعلى درجات مختلفة من القبول والرفض بالنسبة لهدف التقدير •

٤ ـ طريقة الاختيار التعسفى حيث تقدم للاخصائى مجموعات من العبارات كل مجموعة تتكون من عدد محدد من العبارات قد تكونعبارتين أو ثلاثة أو أربعة وعلى المختبر أن يضع علامة أمام العبارات التى تنطبق على المختبر بدرجة أكبر •

واذا كانت عملية الاختيار تتضمن تحليل الشخص الى مواصفات أساسية للكشف عن مدى ملاءمته لكل عمل ، فمن الضرورى أيضا أن نحلل العمل نفسه الذى يتقدم له الشخص بحيث نقف على أقل قدر من العوامل المتطلبة التى تعطىصورة كاملة وكافية عن كل ما يحدد متطلباته وظروف العمل فيه • وهذا ما اشتمل عليه الفصل الثالث من الكتاب حيث نجد دراسة مستفيضة لتحليل العمل • ومن الطبيعى أن يحدد المؤلف أهداف تحليل العمل حيث لخصها فى الاهداف الآتية :

ايجاد مقاييس لكفاءة العامل فى عمله ـ تنظيم الاعمال ـ تقييم الاعمال ـ اختيار العمال الجدد ـ تحسين أساليب العمل ـ تحسين الادوات والاجهزة ـ اعداد برامج التدريب ـ تهيئة جو للعمل يؤدى الى توفر الامن الصناعى •

ومن الطبيعى أن يشير المؤلف الى أهم المصادر التى يستقى منها محلل العمل بياناته فأشار الى بعضها وهى ملاحظة العمال أثناء أداء أعمالهم وهذا هو المصدر الاول والطبيعى للحصول على بيانات تحليل العمل ثم المقابلات الشخصية التى تتم مع العامل ثم المقابلات مع المشرفين ثم الاستيبانات ثم النشرات والكتيبات والمطبوعات المتعلقة بالعمل •

وقد أوضح المؤلف أيضا أهم الوسائل التى تتبع فى تحليل العمل فأوضح ان الاسلوب المستخدم فى تحليل العمل والكيفية التى يؤدى بها تتوقف الى حد كبير على نوع العمل الذىيحلله وطبيعته • فالاعمال اليدوية تختلف اختلافا واسعا فى طبيعتها ودرجة سهولتها وتعقيدها • كما ان نقطة التركيز فى أية عملية من عمليات التحليل تختلف تبعا لذلك • وقد أشار المؤلف الى أهم الوسائل المستخدمة فى تحليل العمل فى النواحى الآتية :

١ ـ تحليل الحركات وهذه ليست بالمهمة السهلة لان تتابع الحركات فى أى عمل يكون عادة أسرع من قدرة المحلل على متابعة التحليل والتسجيل وخاصة فى الاعمال المعقدة المنظمة وهنا أشار المؤلف فى هذا الصدد الى دراسات جلبرت •

٢ ـ تحليل الواجبات والمواقف وأساليب العمل •

٣ ـ تحليل العامل نفسه بقصد (أ) تحليل الحد الادنى للامكانيات اللازمة للنجاح فى العمل (ب) تحديد مدى الاهمية النسبية لمختلف الاستعدادات والسمات والمهارات وغير ذلك من خصائص الفرد • وهنا يشير المؤلف أيضا الى أولى المحاولات التى بذلت فى تحليل قدرات العامل وهى التى قدمها فيتليس •

***

فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن والذى ظلت طريقته فى هذا التحليل متبعة بعد ذلك حتى اليوم • ومن النواحى الهامة التى أشار اليها المؤلف فى هذا الفصل استمارة تحليل العملوقد

قدم نموذجا لهذه الاستمارة المستخدمة فى القسم السيكلوجى بمصلحة الكفاية الانتاجيه والتى تتضمن جوانب أهمها نشاط العامل والخبرة السابقه والتدريب وعلاقة العمل بغيره وقدرته على تحمل المسئوليه وتفهم العامل للعمل وقدرته على التصرف العقلى وما لديه من مهارة ودقة فى العمل ثم وصف الاجهزة والادوات تم تعريف بالمصطلحات والمتطلبات البدنية للعمل ثم تعليقات عامة ٠

كما قدم نموذجا آخر محليا أيضا، هو استمارة تحليل العمل التى استخدمت فى ديوان الموظفين والتى تتضمن نواحى عامة مثل وصف لعمل الوظيفة ووصف تحليل لخطوات العمل والمميزات الخاصة بالوظيفة والادوات التى تستخدم فى الوظيفة ونوع التعليمات التى تصدر فى العمل من الموظف واليه ومدى الدقه المطلوبة فى أداء العمل ومدى حرية الموظف فى التصرف ومدى الاشراف على أعمال الوظيفة ورقابة الموظف على أعمال الغير والوظائف التى لها صلة مباشرة بتلك الوظيفة ٠

وقد أشار المؤلف أيضا الى نواحى احصائية هامة نظرا لما يعترض عملية تحليل العمل من أثر ذاتى اذ يلزم حساب درجة ثبات التقديرات قبل الاعتماد على عملية التحليل فى العمليات السيكلوجية التالية ومعرفة مدى الانفاق أو التباين بين تقدير الاخصائيين المختلفين لدرجة أهمية السمة للنجاح فى العمل ٠

***

أما الفصل الرابع فقد تضمن دراسات الزمن والحركة وهى دراسات تحتل جانبا هاما فى علم النفس الصناعى ٠ وتهدف هذه الدراسات الى تتبع أداء الاعمال بأساليبه المختلفة للوصول الى الاداء الفعال بأقل قدر من الحركات وأقل قدر من الزمن وذلك لتوفير القدر الاعظم من الكفاية الانتاجية ٠ ويرجع الفضل فى هذا النوع من الدراسات الى تلك البحوث التى قام بها جلبرت وتايلر ٠ وقد استخدمت الوسائل الحديثة فى هذه الدراسات ، فامكن استخدام الادوات الحديثة فى تسجيل الحركات الدقيقة كما استخدمت الكاميرات المجسمة للحصول على تسجيل ثلاثى للبعد والحركة ٠

وقد عرض المؤلف لبعض النقط الهامة كدراسة خاصية ثبات السلوك أو تغيره ثم المحكات اللازمة لصلاحية العمل وأوضح ان المحك الاساسى الذى تضعه دراسات الزمن والحركة فى اعتبارها عند



تقرير الطريقة المثلى هو سرعة الانتاج كما أشار الى أسس الاقتصاد فى الزمن والحركة . كما أشار الى تقسيم بارنز للأسس المتعلقة باستخدام جسم القائم بالعمل ثم الاسس المتعلقة بتنظيم مكان العمل ثم الاسس المتعلقة بتصميم الآلة والادوات المستخدمة .

وقد أمكن للمؤلف فى ضوء الدراسات التجريبية المتعلقة بالزمن والحركة الوصول الى أسس عملية تساعد فى أداء أى عمل لخصها فى النقط الآتية :

١ ـ أن نحدد منذ البداية المنطقة من الجسم وما يحيط به والتى يستطيع الشخص أداء العمل فيها دون ارهاق . ويمكن استخدام هذه القاعدة فى جميع أنواع الاعمال سواء كانت صناعية أو مكتبية .

٢ ـ ترتيب الادوات ووضعها فى الوضع المناسب قبل القيام بالاداء .

٣ ـ الاستفادة قدر الامكان من حركة اليدين معا وما تؤديانه من انتاج .

٤ ـ ادخال التوقيت فى الحركات

٥ ـ اسقاط الانتاج المنتهى عند التسليم يساعد كثيرا على استغلال مساحة مكان العمل فى الاعمال المنتجة .

٦ ـ اعادة تصميم الآلات والمعدات المستخدمة كلما مر وقت على استخدامها بصورة ثابتة .

٧ ـ وضع خريطة مرسومة للأداء توضح تسلسل العمليات اللازمة للاداء خطوة خطوة .

ولم يغفل المؤلف فى هذا الفصل أيضا البحوث المحلية فى دراسات الزمن والحركة فقدم أمثلة لها بالبحوث التى أجراها المتخصصون فى مصلحة الكفاية الانتاجية لتقليل الحركات اللازمة والزمن المستغرق فى بعض العمليات كصناعة الجوالات وكذلك البحوث التى أجريت فى شركة ايسترن للدخان ثم ما قام به مهندسو قسم دراسة العمل باحدى شركات الغزل والنسيج الكبرى فيما يتصل بدراسة قسم طباعة الاقمشة بغرض زيادة نسبة الانتفاع من ماكينات القسم وقد شملت هذه الدراسة ناحيتين الاولى عمل دراسة لنسبة الاعطال للماكينات للوصول الى نسب الانتفاع من الماكينات وسبب العطل والاخرى دراسة طرق تخطيط ومراقبة الانتاج بالقسم ومحاولة تحسينها ثم أخيرا الدراسات التى أجريت فى قسم تنظيف المسبوكات باحدى شركات الغزل الكبرى .

ويضم الفصل الخامس من هذا الكتاب مشكلة من أهم المشكلات التى تقابلنا فى ميدان علم النفس الصناعى ونعنى بها مشكلة الاختيار المهنى . وفى هذه المشكلة حل لكثير من المشكلات التى تواجهنا فى مجال الانتاج والعمل . فوضع العامل المناسب فى المكان المناسب الذى يتفق وقدراته واستعداداته يعتبر مطلبا هاما من مطالب الانتاج والعمل وما يترتب على ذلك من نتائج مثل الزيادة فى الانتاج والزيادة فى الدخل القومى الى غير ذلك من المشكلات التى تعانى منها الدول النامية .

وليس من شك ان الاختيار السليم يؤدى الى حسن توافق العامل فى عمله واحساسه بالكفاية والصحة النفسية . فوضع الفرد فى العمل الذى يناسبه جسميا ونفسيا أهم ما يسبب له التوافق النفسى وأهم ما يجعله مستعدا لأقصى ما تؤهله طبيعته وامكانياته من انتاج . ولذا فسوء الاختيار يؤدى بالتالى الى سوء المواءمة وسرعة فقدان التوازن النفسى وسرعة الاستثارة والشعور بالارهاق واضطراب العلاقات النفسية والاجتماعية بين



العامل والمحيطين به، وما قد يبدو عليه من أعراض نفسية وسيكوباتية ومظاهر سلوكية مضطربة ، وما قد يصحب ذلك من نتائج أخرى تتضح فى نقص الكسب المادى نتيجة التغيب والتمارض والاصابة فى العمل وكثرة التنقل من عمل الى آخر ومن مؤسسة الى أخرى، وما يصحب هذا التنقل من شعور بالخيبة واليأس وضعف الثقة بالنفس وبقدرات الفرد ٠

ولعل أهم مايقنع صاحب العمل بأهمية الاختيار المهنى هو الانتاج فهو النتيجة المادية الملموسة التى توضح القيمة العلمية لاتباع الاساليب السيكلوجية فى عمليات الاختيار ٠ والحقيقة انه عندما يقتنع صاحب العمل ان ما ينفق من مال ووقت وجهد فى عمليات الاختيار يعوضه ما يعود عليه أو على المؤسسة من جراء زيادة الانتاج وتحسينه ، فان هذه تكون أولى المبررات التى تجعله يرحب باتباع هذه الاساليب ، ومن هنا رحبت الكثير من المؤسسات والمصانع باجراء البحوث العلمية فى هذا الصدد ٠ وقد أجريت الاختبارات السيكلوجية والمهنية العديدة التى كان من أهم أهدافها حسن اختيار العامل ووضعه فى المكان المناسب وكان من أهم نتائجها زيادة انتاج المصنع أو المؤسسة ٠ وقد أشار المؤلف الى الاسس العلمية التى يقوم عليها الاختيار المهنى والتى تهدف الى احلال كل فرد فى الحرفة التى يستطيع أداءها والحرفة التى يستطيع أن يتوافق معها توافقا انفعاليا والحرفة التى تجعله يشعر بمركز اجتماعى مناسب ٠ وضرب لنا أمثلة بخطة الاختيار فى مصلحة الكفاية الانتاجية وأساليب الاختيار المتبعة فيها ٠ وليس من شك أن عملية الاختيار تعترضها الكثير من المشكلات التى أهمها العدد المتقدم والعدد المطلوب وفرص الترقى ونقدم المختارين فى سلم الترقى ثم الترقى بين الخبرة السابقة والقدرة على أداء العمل الجديد ونقل القائم بالعمل الى عمل آخر ثم صدق أسلوب الاختيار وانتقاء المحك المناسب ٠

وبالاضافة الى عمليات الاختيار والتوجيه عالج المؤلف عملية أخرى هى عملية التأهيل المهنى ويقصد بها توجيه الشخص لعمل جديد يتفق وحالته الجديدة التى تغيرت عن حالته السابقة بدرجة جعلته غير صالح للقيام بعمله السابق كتأهيل المرضى والمعوقين والمسنين ٠ وبذلك يهدف

التأهيل المهني الى تحويل هؤلاء الاشخاص العاجزين أو الذين يشعرون بعجزهم وتخلفهم عن ركب الانتاج الى فئة صالحة للعمل قادرة على الانتاج والكسب والاعتماد على أنفسهم ٠

أما الفصل السادس والسابع والثامن فقد خصصت لدراسة الوسائل المختلفة التى تستخدم فى عملية الاختيار والتوجيه والتأهيل المهنى ٠ فدرس فى الفصل السادس استمارة الالتحاق أو الصحيفة الشخصية وكيفية تحليل استمارة التقديم وعملية تقدير الاستجابات وتقييم استمارة التقديم ٠ كما اختص الفصل السابع بدراسة الاختبارات السيكلوجية وقد قام المؤلف بدراسة واسعة لهذه الاختبارات من حيث خصائصها ومن حيث هى وسيلة للتنبؤ ، كما أشار الى عمليات تقنين الاختبار وعمليات الثبات والصدق والاساليب التجريبية لحساب معامل الصدق ومعامل صدق بطارية مكونة من عدد من الاختبارات ثم تحليل الوحدات واختيار الوحدات وصعوبتها ٠ وقدم نماذج من الاختبارات المهنية المستخدمة فى الجمهورية العربية المتحدة ٠ كما عرض نماذج أخرى من اختبارات الذكاء والاختبارات العملية التى تستخدم فى المجال الصناعى وكذلك اختبارات السمات الانفعالية فى الشخصية والاختبارات الاسقاطية الخ ٠ أما الفصل الثامن فقد قصره على دراسة المقابلة الشخصية وهى احدى الوسائل الهامة التى تستخدم على نطاق واسع فى مجال الصناعة وفى غيرها من المجالات ، وهى من الوسائل التى يرضى عنها الاخصائى السيكلوجى ورجل الاعمال الذى ليست لديه خبرة سيكلوجية تعينه على استخدام غيرها من الاساليب الاخرى للاختبار ٠ وقد أشار أيضا الى ضرورة اخضاع المقابلة للأساليب العلمية من مقاييس للدقة والصدق والثبات كما ينبغى أن تكون مبنية على تخطيط علمى سليم يقيها من أخطاء الملاحظة العابرة وأخطاء الاستنتاج المتسرع ٠ ولذا ينبغى أن يقوم بالمقابلة خبير سيكلوجى مدرب على الملاحظة العلمية والاستنتاج السيكلوجى والتقدير العلمى لمختلف السمات بناء على هذه الملاحظة وتلك الاستنتاجات ٠

***

أما الفصل التاسع فقد عالج فيه مشكلة من أهم المشكلات التى تواجه الادارة فى أية مؤسسة صناعية وهى مشكلة احتفاظ العاملين بها بأعلى مستوى من الكفاءة فيما يكلفون به من أعمال وخاصه وان أعمال التصنيع فى تجدد مستمر ٠ ولذا عالج فى الفصل التاسع مشكلة التدريب المهنى ٠ وقد أوضح المؤلف اهداف التدريب والتى تتلخص فى :

١ ـ الارتفاع بمستوى مهارة العامل فى أدائه لمستوى عمله حتى يرتفع بذلك انتاجه كما ونوعا وبذلك يهدف التدريب الى زيادة سرعة الاداء أو دقته ٠

٢ ـ اكساب الفرد قدرا اضافيا من المعلومات الجديدة اما عن المؤسسة أو الشركة التى يعمل بها كما يحدث عادة فى حالات العمال الجدد أو عندما يحدث تغيير جوهرى فى نظام المؤسسة أو أهدافها ٠

٣ ـ تعديل العادات المتبعة فى أداء العمل ويرتبط هذا الهدف بالهدف الاول ارتباطا وثيقا لان تعديل العادات المتبعة أثناء الاداء يهدف عادة الى أهداف تتعلق بالانتاج وبالعامل نفسه ٠

٤ ـ وأخيرا تعديل الاتجاهات ويتعلق هذا الهدف بالعلاقات الانسانية والعلاقات العامة مما يؤدى الى رفع الروح المعنوية وتحسين العلاقات المتبادلة داخل المؤسسة الصناعية ٠

وقد أوضح المؤلف الاسس السيكلوجية لعملية التدريب وأسلوب التدريب ثم مشكلة الدوافع والحوافز فى عملية التدريب كما رسم الخطوات العملية للتدريب من تحديد أهداف البرنامج ووضع برنامج التدريب واختيار المدربين واعداد الظروف المادية المناسبة لتنفيذ برنامج التدريب من حيث الميزانية والفترة الزمنية للتدريب ومكان التدريب ثم اختيار المدربين وما ينبغى أن يتوافر فيهم من حيث الخبرات التى يجب أن ينقلها الى المدربين ثم قدراتهم على نقل الخبرة ثم أخيرا تقييم التدريب ومتابعته والاساليب التى يمكن أن تتبع فى هذه الحالة ـ استبيانات لاستطلاع رأى المدربين أو استطلاع رأى المشرفين والمديرين أو مقارنة الاداء الفعلى للدارسين قبل التدريب وبعده ٠

ولقد اختتم المؤلف حديثه عن التدريب المهنى بالتطبيقات المحلية ٠ فأشار الى عينة من الجهود التى تبذلها الدولة فى مجال التدريب المهنى وتناول ميدانين أساسيين من ميادين العمل فى الدولة هما الميدان الوظيفى الادارى ثم ميدان

الصناعة . ففى الميدان الاول نجد الجهود التى يقوم بها حاليا الجهاز المركزى للتنظيم والادارة والذى كان الهدف من انشائه « تطوير مستوى الخدمة المهنية ورفع الكفاية الانتاجيه وتحقيق العدالة فى معالجة العاملين والتأكد من مدى تحقيق الاجهزة التنفيذية لمسئولياتها فى ميدان الانتاج والخدمات » . كما أشار الى ما يقوم به معهد الادارة العليا من جهود والذى كان الهدف من انشائه أيضا « اعداد الموظفين العموميين اعدادا علميا وعمليا على نحو يكفل الارتفاع بمستوى الادارة » . كما أشار أيضا الى الجهود التى يقوم بها المعهد القومى للادارة العليا الذى كان الهدف من انشائه « القيام بالبرامج العلمية والتدريبية وغيرها من أوجه النشاط التى تخدم هدف تنمية الادارة وتأهيل المديرين على مختلف المستويات وفى مختلف التخصصات ورفع مستوى الكفاية الادارية فى كل من القطاعين العام والخاص فى الجمهورية العربية المتحدة والقيام بالبحوث فى ميادين ادارة الاعمال بما يؤدى الى زيادة المعرفة بامكانيات استخدام الطريقة العلمية فى الادارة والتنظيم وتقديم خدمات الاستشارات والخبرة بما يساهم فى حل المشاكل الادارية الفعلية فى مختلف الميادين الوظيفية وتقديم الخدمات والمعونات الفنية فى هذه المجالات للدول التى تشارك الجمهورية العربية المتحدة فى علاقات تتصل بأغراض المعهد » .

أما التدريب فى مجال الصناعة فقد أشار المؤلف الى قسمين رئيسيين فيه هما التدريب المهنى ويتضمن انشاء مراكز للتدريب المهنى تتبع نظام التلمذة الصناعية لتدريب التلاميذ الذين أتموا المرحلة الاعدادية والقيام بعمليات تدريب سريع لاعداد عمال نصف مهرة متخصصين فى نوع معين من الاعمال . أما النوع الثانى فيشمل تدريب المشرفين واعداد برامج خاصة بهم فى العلاقات الانسانية وتوجيه التعليمات وتبسيط العمل وسلامته .

***

ويختتم المؤلف كتابه بفصل فى غاية الاهمية بالنسبة للصناعة ونعنى به « سيكلوجية الامن الصناعى » . وهو موضوع من موضوعات الصناعة له أثره البالغ على الانتاج كما ونوعا ، كما له أثره البالغ على نفسية العاملين فى المؤسسات وشعورهم بالاستقرار الانفعالى والامن فالعامل حين يعمل على آلات معقدة ويتداول آلات حادة ودقيقة وحين يستخدم فى هذا كله مواد تحتاج الى حرص زائد وحذر فى استخدامها كالمواد الحارقة او الكاوية وحين يتعرض أثناء عمله لضغوط فيزيقية غير طبيعية تجعل بيئة العمل عليه شاقة كالضوضاء والروائح الكريهة وغير ذلك مما تضعه ظروف العمل فى مواقف تعرضه أكثر من غيره للاصابات والحوادث ولا يمكننا ان نعتبر ان حدوث الأصابات فى المجال الصناعى انما هو محض صدفة . فلكل اصابة بطبيعة الحال عوامل وأسباب يمكن التحكم فيها والسيطرة عليها والكشف عن هذه الاسباب ومدى اسهامها فى حدوث الاصابة أو الحادثة كل هذا أمر يحتاج الى دراسة علمية من متخصصين فنيين وهذه هى وظيفة سيكلوجة الأمن الصناعى . ولقد كشف المؤلف بالارقام حجم المشكلة فى الجمهورية العربية المتحدة وكيف ان حوادث العمل تتزايد بشكل واضح فى السنوات الاخيرة كما يزداد معدل الاصابات الناشئة تكرارا وشدة . وقد قدم المؤلف فى هذا الفصل دراسة واسعة للحوادث والاصابات وتصنيفا للاصابات تبعا لشدة الاصابة ومكان الاصابة وعرض كذلك للاسباب الذاتية والبيئية للاصابة واختتم حديثه بدراسة تلك الظاهرة التى نلمسها لدى بعض العاملين والتى تعرف باسم الاستهداف للاصابة : فهناك أشخاص أكثر استهدافا للاصابات عن غيرهم من الاشخاص وعرض فى هذا الصدد لبعض الدراسات المحلية التى أجريت عن حوادث سائقى أتوبيسات النقل العام .

ولعلنا نكون قد قدمنا للقارىء صورة عن هذا الكتاب الذى استحق مؤلفه عليه جائزة الدولة التشجيعية . ولا يغنى التلخيص عن قراءة الكتاب لمن أراد الاستزادة فى هذا المجال الحيوى مجال العمل والانتاج . فالدراسات التى يضمها الكتاب والبحوث المحلية والاجنبية التى عرض لها تخدم مجالا هاما من مجالات الحياة وترسى الاسس العلمية والسيكلوجية التى يجب أن تتم فى مجال الصناعة . ان التقدم التكنولوجى يعتمد أساسا على الدراسات العلمية والبحوث السيكلوجية لكل من العامل والعمل والعلاقة التى تربط كل من هذين المتغيرين أحدهما بالآخر .

سيد محمد غنيم

التخطيط التربوى فى البلاد النامية

د. سعيد إسماعيل

من الطبيعى أن يكون لكل فرد منا قيم وأهداف وتطلعات ، وأن تكون له موارد يستغلها ويستثمرها ، وأن تكون له مشاكل تعترض طريق حياته . والتخطيط فى أبسط صورة له هو التنسيق بين ما يرغب الفرد أن يحققه لنفسه أو لأسرته أو للجماعة التى ينتمى اليها ، وبين امكانياته وما يقع تحت يده من قدرات مادية وبشرية ، بالاضافة الى الظروف البيئية والزمنية التى يمكن أن تتحكم فيه ـ وذلك فى حدود فترة زمنية معينة يهيىء خلالها لنفسه نفعا أو مصلحة أو يحقق له ولغيره حياة أفضل أو مركزا أرقى أو غنما من نوع معين . فالتخطيط هنا هو محاولة من الفرد لاستثمار موارده الى أقصى حد ، بغرض تحقيق أهداف معينة فى فترة زمنية معلومة مع السعى المتواصل لتنمية قدراته وموارده لتحقيق مزيد من الأهداف .

والتخطيط فى صورته الأكثر تعقيدا رسم لصورة المجتمع فى حياته المستقبلة ، وتقدير لحاله فى المراحل التى يجتازها خلال سعيه لتحقيق أمانيه . أو هو عملية مناقشة عوامل الانتاج فى المجتمع بشتى صورها وألوانها بقصد تقرير الصالح منها وتدعيمه وتوجيهه لتحقيق أهداف معينة ، وبغرض النهوض بمستوى المعيشة ، فهو على هذا الأساس وسيلة الى غاية . وهو يتكون من مجموعة من الأفكار والتدابير والخطوط والأساليب التى تدور حول بضعة مثل وآمال ، تسيطر على ذهن الفرد أو تسيطر على عقول الجماعة وتأخذ بها الدولة أو الهيئة المسئولة ، أو الفرد صاحب العلاقة أو الفرد صاحب المصلحة لكى تصاغ ـ ان كانت ذات نفع وفائدة ـ فى قوالب هى المشروعات التى تحال ثانية الى خطوات تنفيذية حتى تصبح حقيقة واقعة .

وفكرة التخطيط الشامل أو التخطيط للدولة ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ، وظهرت بوضوح أكثر بعد الحرب العالمية الثانية . ومن أولى الدول التى وضعت لنفسها مخططا كانت روسيا ،

ان التطور التقني السريع يخلق حاجات جديدة، ويزيد الحاجة إلى العلماء والفنيين والإداريين، كما يؤدي إلى تغير واضح في توزيع الطاقة العاملة على مجالات النشاط الاقتصادي المختلفة.



ولعل هذا هو أحد الأسباب السيكلوجية القوية التي خلقت نوعا من المقاومة اللاشعورية عند الكثيرين في بداية الامر ضد التخطيط قبل أن تأخذ الاتجاهات الاشتراكية مكانها في البلاد النامية. ولكن التخطيط لا يخرج عن كونه أسلوبا علميا سليما للبحث والتفكير والعمل الهادف.

في الوقت نفسه نلاحظ مع الحركة الهائلة في ركب التحرير من الاستعمار، وهي الحركة التي بدأت في الثلث الاول من هذا القرن، ثم اتسعت أولا في آسيا ثم في افريقيا، نلاحظ مع نيل الاستقلال اتجاهنا نحو النمو الاقتصادي والاجتماعي وهذا النمو الاقتصادي والاجتماعي لا بد أن يكون سريعا، لأن الدول الحديثة الاستقلال دول متخلفة ولأن الدول المتقدمة تسير في التقدم بسرعة هائلة والسرعة المطلوبة في النمو مع التعدد الهائل في العوامل وتنوعها وتشابكها ومرونتها هي التي تجعل التخطيط أمرا لا بد منه. ولكن ما معنى التخلف؟ هل هو هبوط مستوى الحياة؟ هل هو عدم النمو في نواحي التصنيع؟ هل هو صغر متوسط دخل الفرد؟ لقد كان متوسط دخل الفرد في الكويت ـ مثلا ـ يزيد منذ ست سنوات بمقدار ٤٠٠ دولار سنويا عن متوسط دخل الفرد في الولايات المتحدة ـ فما هو المقياس للدلالة على أي البلدين أكثر تقدما من الآخر؟

ان التربية والتعليم من أهم معايير التقدم الاجتماعي، ومن أنجح الوسائل المؤدية الى النهوض الاقتصادي. فرفع مستوى الحياة من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية متوقف أولا وقبل كل شيء على التعليم. أي على تعهد الثروة الطبيعية الكامنة في البشر بالكشف والاستنباط والتجميع والتهذيب والتدريب والتوجيه الى الوجهة الايجابية البناءة التي تبني لصالح المجتمع وتبني في نفس الوقت لصالح الفرد.

واذا كان هذا يعد مبررا كافيا يبين أهمية التخطيط التربوي وضرورته في أي بلد وفي أي

عصر ، فان نظرة الى ما أحرزه المجتمع من ثغرات واسعة هائلة نحو الأخذ بأسباب العلم مما أدى الى تقدم اجتماعى واقتصادى مذهل ، يقدم لنا سندا آخر يبرز ضرورة مثل هذا التخطيط ويوجبه . ومن هنا كان اهماله مؤديا الى مشاكل وشرور لاحد لها. وفى هذا المجال يقول الفيلسوف الانجليزى الكبير «برتراند رسل» « ان العلم يتقدم بخطى العمالقة ، وهو فى كل يوم يصوغ مصير الانسان أكثر فأكثر . انه يغير أنماط حياته ويصيبه حتى فى استجاباته العميقة على غير علم منه . ومع ذلك ما نزال نفكر ونعمل كأن شيئا لم يكن ولم يحدث منذ نصف قرن » . ومما قاله السير « دافيد اكليس » وزير التربية البريطانى فى مارس سنة ١٩٦١ معبرا عن نتائج اهمال التربية فى بريطانيا لحاجات التقدم العلمى السريع فى عصرنا وعن آثار ذلك على التنمية الاقتصادية « ليس نقص المال هو الذى يحد من النمو الاقتصادى لبريطانيا ان ما نشكو منه اليوم هو التربية الناقصة التى كان يتلقاها ٩٠٪ من أطفالنا قبل الحرب العالمية الاخيرة . ان اهمالنا الشامل للعلم جعلنا نهمل التكوين التقنى .. ينبغى أن يداخل الصناعة والتجارة ايمان عميق بالتربية وارادة عنيدة من أجل تحسين التكوين المهنى . وليس لنا أمل غير هذا اذا أردنا أن نحتفظ بمكاننا فى العالم » .

ان التطور العلمى والتقنى السريع يخلق حاجات جديدة ويزيد الحاجة الى العلماء والفنيين والاداريين كما يؤدى الى تغير واضح فى توزع الطاقة العاملة على مجالات النشاط الاقتصادى المختلفة ، الأمر الذى يتطلب تغييرا واضحا فى طراز اعدادنا التربوى للطاقة العاملة ، بحيث نستطيع عن طريق هذا الاعداد أن نلبى حاجة مجتمعنا المتزايدة الى العلماء والفنيين والاداريين وبحيث نستطيع أن نتكيف مع ظاهرة انتقال الطاقة العاملة وتوزعها توزعا جديدا . ومثل هذا التغير فى طراز الاعداد التربوى كما وكيفا يتطلب تخطيطا تربويا يقيم وزنا لهذه الحاجات المستجدة .

وقد بدأ التخطيط التربوى يأخذ مكانه بالفعل منذ سنوات في البلدان النامية . ونستطيع أن نعتبر عام ١٩٦٠ نقطة تحول فى هذا المجال ، فمعظم الخطط التربوية فى البلاد العربية تبدأ فى ذلك العام أو قبله بقليل أو بعده بقليل :

ـ فالخطة التونسية العشرية تبدأ عام ١٩٥٩/١٩٦٠ وتنتهى عام ١٩٦٨/١٩٦٩

ـ والخطة التربوية الأولى للجمهورية العربية المتحدة تبدأ عام ١٩٦٠ وتنتهى عام ١٩٦٥

ـ والخطة التربوية الاولى فى الجمهورية العربية السورية تبدأ أيضا عام ١٩٦٠ وتنتهى عام ١٩٦٥ .

ـ والخطة التربوية للجمهورية السودانية (وهى الخطة الواردة ضمن الخطة العشرية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية) تبدأ عام ١٩٦١ / ١٩٦٢ وتنتهى عام ١٩٧٠/١٩٧١ .

ـ والخطة التربوية الاولى للمملكة الاردنية الهاشمية (وهى أيضا واردة ضمن برنامج السنوات الخمس للتنمية الاقتصادية فى الأردن) تبدأ عام ١٩٦٢ وتنتهى عام ١٩٦٧ (وقد استبدلت بها منذ عام ١٩٦٤ خطة سبعية جديدة) .

ـ ومشروع السنوات الخمس للتعليم فى المملكة العربية السعودية (وهو لا يأخذ تماما شكل الخطة) يبدأ عام ١٩٦٠ وينتهى عام ١٩٦٤ .

كذلك نرى الاهتمام بالتخطيط التربوى متمثلا فى انعقاد مؤتمرات عدة تتعلق بالبلاد النامية . فبالنسبة للدور البارز الذى تلعبه التربية بالنسبة للتنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعى دعت منظمة اليونسكو ، بالاشتراك مع اللجنة الاقتصادية لافريقيا الى مؤتمر عقد فى أديس أبابا فيما بين ١٥ ــ ٢٥ مايو سنة ١٩٦١ لدراسة حاجيات التربية والتعليم فى افريقيا ولوضع برنامج لسد هذه الحاجيات فى السنين التالية . هذا وقد اشترك فى هذا المؤتمر ممثلون عن ٣٥

دولة افريقية ، كما حضره مراقبون من بعض الدول الأوروبية .

● المؤتمر الدولى للتخطيط التربوى . باريس من ٦ – ١٤ أغسطس سنة ١٩٦٨ .

● حلقة اقليمية للمساعدة الفنية حول الاستثمارات فى حقل التربية فى البلاد العربية فى بيروت ، سبتمبر سنة ١٩٦٨ . وكان موضوع هذه الحلقة واسعا ، اذ شمل الجوانب الآتية : دراسة النفقات التعليمية – تحليل التكلفة فى التعليم – مشكلات تمويل التعليم .. الى غير ذلك من مؤتمرات وحلقات واجتماعات .

ويهمنا أن نركز الحديث على كتاب ظهر فى لندن ١٩٦٢ عن التخطيط التربوى فى البلاد النامية وهو الكتاب الذى اقتبسنا منه عنوان هذا المقال وهو من تأليف هـ . ل . جريفث ، ويقع الأصل فى ١١٨ صفحة من القطع الصغير . ومضمون الكتاب أضيق من أن يفى بعنوانه فهو محاولة موجزة للحد يثعن بعض المشكلات التى تواجه التخطيط التربوى لا سيما فى بلدان افريقيا ، وليس فيه اشارات وافية عن مناهج التخطيط التربوى ووسائله . كما أنه لا يشير الى أى خطة موضوعة بالذات . والكتاب فى جملته كما يقول مؤلفه فى تصديره موجه الى عامة الناس لا الى الاخصائيين فى التربية ومن هنا كان اختيارنا له كموضوع لهذا المقال . ومع ذلك ففيه تنبيهات واشارات تفيد الأساتذة والمربين .

وقد اضطلع بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية الأستاذ محمد نبيل نوفل الذى يعد الآن رسالته للدكتوراه فى التخطيط التربوى من الاتحاد السوفييتى ، وراجعه الدكتور عبدالفتاح جلال المدرس بكلية التربية بجامعة عين شمس .

***

يرى المؤلف أنه لما كانت الخطة التربوية الناجحة هى التى لا تبقى على الورق ، بل تأخذ طريقها الى التنفيذ بسرعة وكفاءة ، فانه من الضرورى لكى يتم هذا :

١ – أن تكون نتيجة الأهداف مفهومة فهما واضحا .

٢ – أن تنال هذه تأييدا قويا ليس فقط من الزعماء القوميين ، بل أيضا من معظم الآباء والمدرسين .

٣ – أن تكون نتيجة للكثير من التفكير المضنى الشاق ، اذ أن طرق ووسائل تنفيذها تحتاج الى التفكير العميق .

لذلك قسم المؤلف فصول الكتاب بحيث تغطى هذه الجوانب ، وقدم له بفصل يشرح فيه الخطة التى سينهجها فى كتابه .

أما الفصل الثانى ، فقد خصصه لمعالجة الأفكار الرئيسية التى سترد فى فصول الكتاب حتى يكون القارىء على بينة بالمعانى المقصودة للمصطلحات المختلفة . وتحديد المصطلحات أمر له أهميته القصوى، بل هو شرط أساس لابد من توافره فى مجال العلوم الانسانية حتى نأمن من الزلل واضطراب الفهم والتفكير . فالتربية من الموضوعات التى يجد كل واحد نفسه مستعدا للجدل فيها . وليست أوجه الخلاف التى تنشأ نتيجة لخلافات حقيقية ، بل قد ترجع الى استخدام كلمات فى معان مختلفة ، فقد يستخدم أحد الناس مصطلح «التعليم الثانوى » قاصدا به « التعليم الثانوى العام » بينما يستخدمه آخر قاصدا به أى نوع من التعليم يتلقاه الأطفال بعد الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة .. الخ .

ثم قسم المؤلف باقى الكتاب الى بابين : الباب الأول تناول فيه قضية « الأهداف » أما الباب الثانى فقد عالج فيه قضية « الوسائل » .

فبالنسبة للأهداف نجد أن الدول النامية تعلق الأمل على التعليم فى تحقيق مطلبين رئيسيين أولهما يتعلق بالوظائف (أو اعداد القوى البشرية المدربة) ونعنى بهذا المطلب أن على المدارس أن تخرج الاولاد والبنات الصالحين ليس فحسب لممارسة الانواع الكثيرة من الوظائف والأعمال الموجودة اليوم ، بل ولممارسة ما يجد من أنواع ومهارات اذا استخدموا ما دربوا عليه بذكاء . ولن تتمكن المدرسة من تخريج هذا النوع الا اذا كان ما تقدمه من تدريب من النوع الواسع الافق ، وفى نفس الوقت يعتمد على قاعدة متينة من التعليم العام .

أما المطلب الثانى ، فيتعلق بالوحدة والتماسك القومى ، ونعنى به أن على المدارس أن تخرج أولادا وبنات يفهمون الحاجات لبلدهم ويتعاونون على

تحقيقها . وفى هذا الجانب تحتاج المدرسة الى أن تقدم لتلاميذها المشاعر الصحيحة والمعلومات الصحيحة .

ومن هنا فقد خصص المؤلف الفصلين الثالث والرابع لمعالجة هذين المطلبين .

وأول خطوة لا بد من القيام بها لتحقيق المطلب الأول هى « تقدير القوى البشرية المطلوبة » والحق أنه كان من الصعب على البلاد الحديثة النمو فى الماضى أن تقدر حاجاتها من القوى البشرية لسببين :



١ ـ أنها كانت تعتمد عادة بشكل تام على محصول أو اثنين يخضعان لارتفاع وانخفاض الأسعار فى الأسواق العالمية . ولذلك لاتستطيع الدولة أن تتنبأ بقدرتها على توفير المال لمشروعات التنمية فى السنوات القليلة المستقبلة . وقد تحسن الوضع الآن نتيجة للمساعدات الدولية، ونتيجة لتنويع المحاصيل وانشاء الصناعات الجديدة .

٢ ـ ان هذه البلاد كانت تنقصها المعلومات الدقيقة عن العمالة والتنمية الاقتصادية التى يجب أن تقوم عليها تقديرات البشرية . وهذا أيضا يتحسن الآن . وعلى ذلك فمن الممكن بالنسبة لمعظم البلاد وعمل تقديرات تقريبية لحاجاتها المستقبلة من القوى البشرية .

الخطوة الثانية بعد تقدير القوى البشرية المطلوبة هى تقسيم الاحتياجات من القوى البشرية الى مستويين ، قيادى ومتوسط . ولاعداد الأفراد اللازمين لهذين المستويين من الضرورى ملاحظة أن التعليم الفني والعلمي يكلف أكثر من تعليم المواد غير العملية . ويؤكد الأستاذ « هاربيسون » هذه الحقيقة بما هو الحال فى مصر ، ففيها يبلغ نصيب الدراسات الجامعية من هيئات التدريس والنفقات فى ميادين العلوم والطب والهندسة والزراعة والطب البيطرى ما يزيد عن ثلثى المجموع الكلى ، بينما لا يزيد عدد الطلاب فى هذه الفروع كلها على ثلث المجموع الكلى لأعداد الطلاب فى الجامعات . كذلك ينبغى ملاحظة أن الدراسة النظرية فقط لا تكفى فى الاعداد لمعظم الوظائف ، بل لابد أن يمر المبتدىء بخبرة عملية تحت اشراف خبير .

أما بالنسبة للمطلب الثانى ، فاننا نجد أن الخدمة التى تؤديها التربية للأمة بتعليم وتدريب القوى البشرية اللازمة لشغل الوظائف والقيام بالأعمال المختلفة واضحة الاهمية . أما الامر الشديد الصعوبة فهو أن تعرف كيف تستطيع التربية تدعيم الوحدة القومية . وترجع هذه الصعوبة الى عاملين :

ـ أن الوحدة القومية لا تأتى نتيجة للمعرفة وحدها ، وانما تأتى كذلك نتيجة للمشاعر التى تفوق أهميتها المعرفة فى هذا المضمار . والتأثير فى مشاعر الناس أكثر صعوبة من تزويدهم بالمعرفة .

ـ أن الوحدة القومية لا تكفى وحدها لايجاد بلد قوى ، وانما لا بد أن يوجد فى اطارها قدر كاف من الحرية يشعر الناس معه بأنهم أحرار فى التعبير عن آرائهم وبأنهم قادرون على مقاومة الفساد والظلم والمدرسة هى المكان الذى ينبغى أن يعمل على تعليم التلاميذ التفكير والعمل دون خوف اطلاقا قبل تعليم أى شىء آخر . وتكمن الصعوبة هنا فى معرفة القدر من الحرية الذى يمكن التنازل عنه فى سبيل الوحدة القومية والصالح العام .

ورغم هذه الصعوبات ، فقد استغلت بعض البلاد المدارس بشكل قوى لتدعيم الوحدة القومية ويعترف المؤلف بأنه من الصعب أن نجيب على السؤال التالى : « كيف تستخدم المدارس

لتدعيم الوحدة القومية فى هذا البلد أو غيره ؟ » فهذا أمر لا يستطيع أن يقرره أهل البلد أنفسهم ، وغاية ما يمكن أن تقوم به هو توضيح أربعة سبل ربما تؤدى الى تقوية الوحدة القومية وهى :

١ ـ مدارس حكومية للجميع ٠

٢ ـ مدرسة واحدة للمتفوق والضعيف ٠

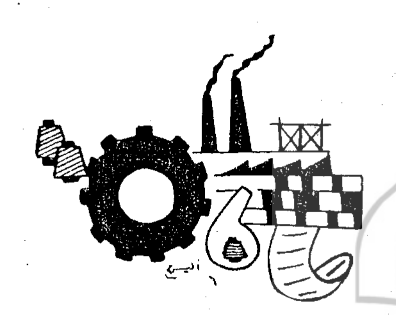
٣ ـ المعرفة للجميع ٠

٤ ـ الاشراف على التعليم ٠

ويؤكد المؤلف أن التأييد الشعبى للخطة التعليمية أمر جوهرى لنجاحها لأن عدم توافر هذا التأييد قد يؤدى الى فشل بعض أنواع التدريب المهنى ـ كالزراعى مثلا ـ كما قد يؤدى الى التأثير فى عمل المدرس ٠ فاذا علم المدرس مثلا أن الآباء يظنون أن بعض أجزاء المنهج ليست الا مضيعة للوقت ، فلربما أدى هذا الى عدم تحمسه فى تدريسها ٠ وقد يعرف الزعماء السياسيون جيدا أنواع التعليم والتدريب المهنى التى تحتاج اليها البلد بشدة ، ولكنهم بالرغم من ذلك قد يضطرون الى تغيير خططهم رغبة فى الاحتفاظ بتأييد الجماهير لهم ٠ واذن فهناك أسباب كثيرة تحتم بذل كل جهد لضمان فهم الجماهير لتخطيط السياسة التعليمية وتعاونها فى تنفيذها ٠

وأول ما ينبغي عمله لضمان التأييد الشعبى للخطط التربوية هو معرفة وجهات نظر الجماهير ورغباتها ، ولهذا فقد تناول المؤلف فى الفصل الخامس وجهات نظر طائفتين هامتين من أفراد الشعب والتى يمكن أن تختلف عن وجهة نظر المخططين ٠ هاتان الطائفتان هما : آباء التلاميذ ثم المدرسون الذين يعلمونهم ٠

أما الفصل السادس فقد ركز المؤلف فيه الدراسة على بعض الاقتراحات التى تؤدى الى تعاون الآباء والمدرسين ٠ وهنا يذكر المؤلف أن المشكلة اذن من ناحية فى كيفية نشر المعلومات اللازمة عن حاجات البلد من القوى البشرية ، وعما يستطيع التعليم أن يفعله أو لا يستطيع لمواجهة هذه الحاجات ٠ من ناحية أخرى فى كيفية التغلب على تعصب بعض الناس ومساعدتهم على تكوين وجهات نظر حكيمة ٠ ولا يعنى هذا كله أن كل الجهل كل التعصب عند الجماهير فقط ، ولكن بالطبع يمكن أن يوجد جهل وتعصب لدى المخططين كذلك، ولذا ينبغى أن تكون لديهم معلومات وافية كما ينبغى أن يتخلوا عن أى تعصب ٠ ثم اذا وجد اتصال قوى بين المخططين والجماهير ،فسوف يستفيد المخططون كما سيفيدون ٠ ومع أن الكتاب ليس كتابا فى العلاقات العامة ، فان الموضوع من الأهمية بحيث فرض عليه أن يوضح بعض النقاط الأساسية لنجاح أى خطة تعليمية ٠



أهم هذه النقاط نشر المعلومات التى تتعلق بموضوع الخطة مبكرا ، واتاحة الفرصة لمناقشتها على نطاق واسع واجراء المشاورات مع الخبراء والمعنيين ٠ وبدون المعلومات والمناقشات يصبح الاختلاف أكثر رجحانا ، كما أن التعصب قد يجلب الفشل للخطة ٠

وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى محاولة للوصول الى اتفاق حول مشكلتين بصفة خاصة ، هاتان المشكلتان ٠ تتعلقان بالوظائف وبالتمويل ٠ وقد تبين ان تعاون الآباء فيهما متعذر أحيانا ٠

وبنهاية الفصل السادس ينتهى الباب الأول ليبدأ الباب الثانى الخاص بالوسائل وقد خصص المؤلف الفصل الأول من هذا الباب وهو الفصل السابع من الكتاب لمناقشة مسألة الأولويات ٠ ذلك أنه لايمكن مناقشة وسائل تنفيذ الخطة دون مناقشة موضوع الأولويات ، أى ينبغى أن ننظر فيمانضعه فى المحل الأول، ومانضعه فى المحل الثانى

وهكذا . فالمال الكافى للتعليم لا يوجد أبدا ، ولا يملك أى بلد من بلاد العالم المال الذى يريده لخططه التعليميـة ، ولذلك يضطر كل بلد الى أن يتنازل عن شىء مما يريد تحقيقه .

واذا نظرنا فيما ينبغى أن يأخذ أولوية التنفيذ فى ميدان التربية لوجدنا أن الأمر صعب لايسهل الوصول فيه الى اتفاق عام ، ومن هنا تتضح أهمية وضع مبادىء عامة تساعد على عملية الاختيار مثل : الحاجات العاجلة للبلد ـ الحاجات العامة طويلة الأجل ـ العجز المالى ـ الاقتصاد القوى والاقتصاد الضعيف .

فى الفصول الأربعة التالية نجد أنها تعالج النقاط الآتية :

ـ المال اللازم للتعليم .

ـ المدرسون المطلوبون .

ـ الوسائل اللازمة لمزيد من التطور .

ـ اجراءات الطوارىء .

فبالنسبة لعملية التمويل التى خصص لها الفصل الثامن ، نجد أن التعليم يجد لزاما عليه أن ينافس الحاجات الاخرى الهامة لكى يحصل على نصيبه من المال ، فاذا كانت المستشفيات والأطباء والمشرفون الزراعيون والشرطة والمؤلفون والاداريون ومئات من الهيئات والناس الآخرين لهم مطالبهم من الأموال التى ينبغى أن توفرها الحكومة فأين يقع التعليم فى هذه القائمة ؟ والى أى حد هو مهم ؟

هناك طريقتان مختلفتان للنظر الى التعليم ، فبعض الناس ينظرون اليه على أنه خدمة اجتماعية بينما ينظر الآخرون اليه على أنه نوع من الاستثمار والزاوية التى ننظر منها الى التعليم تؤثر تأثيرا كبيرا على حصة المال التى يجب أن نخصصها له .

والمصادر التى نحصل بها على المال اللازم للتعليم يحصرها المؤلف فى : زيادة الضرائب + المصروفات المدرسية + التبرعات + مساعدة التلاميذ لأنفسهم + المساعدات الدولية .

وبالنسبة للنقطة الثانية التى خصص لها الفصل التاسع تحت عنوان « المدرسون » نجد انه اذا كان الكثير من النـاس يوافقون على أنه ليس من المعقول أن نصمم خطة تعليمية دون أن تكون لدينا فكرة ما عن مصـادر تمويلها ، فان العنصر الجوهرى الآخر لنجاح أى خطة تعليمية هو هيئة التدريس المناسبة .

وفى معالجة المؤلف لهذا الجانب تناول النقـاط الخاصة بهيئات التدريس التى لا بد من بحثهـا تحت عنوانين :

١ ـ مؤهلات المدرسين ، حيث حاول الاجابة على السؤالين الآتيين :

ـ الى أى حد ينبغى أن يصل علم المدرس ؟

ـ وهل اتقان معرفة الموضوع الذى يقـوم بتدريسه هو كل ما يحتاج اليه المدرس ؟

٢ ـ ظروف العمل ، حيث حاول أن يجيب عن السؤال الآتى :

ـ كم من التلاميذ يستطيع المدرس أن يعلمهم فى وقت واحد ؟ (أو بعبارة أخرى : ما هـو الحد الأقصى الذى ينبغى أن يراعى لعدد التلاميذ فى الفصل ؟) هذا بالاضافة الى بعض الاسئلة الأخرى التى تتعلق بالادارة والكتب والمقررات .

أما الوسائل اللازمة للتطوير التى تحتل الفصل الحادى عشر تحت عنوان « عاجل جدا » سـنجد مدى دلالة هذا العنوان الطريف . فالتعليم ـ والحق يقال ـ بالنسبة للبلاد حديثة الاستقلال أمر عاجل جدا ، ومن هنا نجد البلاد الافريقية تبذل جهدا ضخما لتطوير نظمهـا التعليمية بحيث تصبح حديثة . ويشكل هذا عبئا ضخما عليها حيث أنه « عاجل جدا » ، بالاضافة الى عدم وجود المـال الكافى لمواجهة مطالبه مما يشعرنا بالحاجة الى سعة الافق أثناء التفكير فى حلول المشكلات ، والحاجة الى عدم التقيد بالطرق القـديمة فى تنفيـذ الامور .

ويناقش المؤلف فى هذا الفصل كذلك ثلاثـا من المشكلات الرئيسية التى تنشأ من جـراء العملية فى أمور التعليم :

• أين نركز جهود التطوير فى المحل الأول ؟

• من أين نحصل على المدرسين ؟

• ما الذى نفعله فيما يتعلق بالمسـتويات التعليمية ؟

وقد ألحق المؤلف بالكتاب ملحقا يتضمن خطة



ـ حين يمارس ابداعه ـ شيئا من المعاناة والمجاهدة ، لكن ذلك سرعان ما يستحيل عنده الى نوع من التفريج ، والتطهير ، واحساس باللذة ، والارتياح ٠٠ أما موقف الناقد فيختلف عن ذلك تماما ، فهو يتناول العمل الفنى تناولا ذهنيا موضوعيا ، فنراه ينتقل من مجال الذات الى مجال الحقيقة الواقعة ٠٠ وهو يتجاوز انفعاله بهذا العمل ، لكى يركز اهتمامه على طبيعة بنائه ، وتشكيله ، وبالتالى لكى يبرز ما يمتاز به من ملامح خاصة ، ومقومات جمالية ، وانسانية ٠

ومن ثم فممارسة النقد على هذا النحو ، انما يحتاج الى قدرة على المعاناة الذهنية التى تكمن فى عمليات التحليل ، والتجريد ، والتأمل ، والاستبطان ، الأمر الذى يتحتم معه بذل مزيد من الجهد ، والعناء ، والمثابرة ٠

ذلك الزمن التراجيدى

تلك هى الحقيقة التى ينبغى أن نضعها نصب أعيننا حين نتصدى لكاتب شهير مثل **جيمس جويس** ٠٠ ولعلنا نعى هذه الحقيقة تماما ، ونحس بوقعها الحاد علينا حين يرتكز اهتمامنا فى هذا الصدد على مفهوم الزمن ٠٠ فنتخذه محورا لتفكيرنا ، وبحثنا ، ودرسنا ٠

وواضح أن الزمن عند جيمس جويس ليس زمنا ميكانيكيا ، وانما هو تلك الحالة الشعورية التى تعبر عن طبيعة حياتنا الداخلية ، والتى يمكن أن تتقنع بذلك الشكل الذى يفصح عن مادة ذكرياتنا وأحلامنا ، وتخيلاتنا ٠٠ فلا غرابة أن يومىء الزمن عند كاتبنا ، بالغموض ، والميوعة ، والسيولة ، والنسبية ٠٠ الامر الذى يجعله يفلت

من سيطرتنا وادراكنا ، فلا نستطيع أن نفرض عليه تعريفا أو تحديدا .. ومع هذا فمما لا شك فيه ، أننا كائنات توجد فى الزمن .. فنحن نولد فيه ، ونحيا فى جوفه ونظل فى قبضته سجناء ، فلا يطلق سراحنا الا حين نكون حطاما . وبذلك يكشف الزمن عن وجهه المأساوى .. فهو بالنسبة الينا يمثل قوة مدمرة ، تنشب أظفارها فينا ، وتطبع آثارها علينا ، وتدمغنا بالتغير ، والتحول ، والزوال .. وهو أيضا يفصح عن سر ضعفنا ، وحدودنا ، وتناهينا .

واذا كانت حياتنا انما هى رحلة قصيرة عبر الزمن ، رحلة لا نكاد نحقق فيها امكانياتنا ووجودنا ، فلا غرابة أن نصبح فى صراع مستمر ضد الزمن،فنسعى جاهدين من أجل ايقاف تياره المتدفق ، ونبذل كل ما فى وسعنا من أجل تكثيف لحظاته ، واسترجاع هذه اللحظات فى شكل طاقات فنية معبرة .

ومن أجل هذا ، صار الزمن بالنسبة للفنان المعاصر ، مدرا حيا ينحت من خلاله أحاسيسه ، **وأفكاره ، وينسج فى ضوئه خيوط صوره ، وأشكاله** .. فقد استطاع هذا الفنان أن يستعيد ما فقده من صور وأفكار ، وخواطر ، وأن يسترجع ما أضاعه فى ثنايا الماضى من خبرات وتجارب اذ أدرك أن الزمن لا يعدو أن يكون حركة شعورية تدفع تيار الذكريات الى أن ينثال بالصور المختزنة ، والخبرات المتراكمة .. فالماضى يمتد بتمامه فى الحاضر ، ويظل فيه حاضرا ، ومؤثرا ، وهو يضغط تلقائيا على الحاضر،ويدعو الى انبثاق صور جديدة .. صور بصرية،وحسية ، وسمعية تزيد من خصوبة الحياة ، وتراثها . **الرؤية الباطنية للأشياء .**

ذلك هو الاتجاه الفنى الذى يسود الرواية المعاصرة والذى يلتزم فيه الكاتب بالرؤية الباطنية للأشياء فقد تحول اهتمامه هنا من الخارج الى الداخل .. فصار لا يرينا ما هو منظور ، وانما يجعل ما لا نراه منظورا .. وصار يتخذ من الحياة الداخلية ، بديلا لمعنى البطولة الذى يسود رواية القرن التاسع عشرة التقليدية .. وهو يستعيض عن الأحداث الخارجية بما يتواتر اليه من صور الوعى أو اللاوعى حيث يؤلف من خلالها تشكيلاته ، وانماطه فى عالم الرواية . وعلى هذا ، يصبح الكون الاكبر الذى نعيش فيه انما هو عقلنا ، ووجودنا الداخلى ، وبالتالى يصبح الزمن شيئا ذاتيا محضا .. فهو يمثل الشخصية الرئيسية التى تعد ركيزة العمل الروائى ، والتى لا تخضع فى مسارها لقانون عضوى أو ميكانيكى فالعود الى الماضى ، وتجاهل العالم الخارجى **وتحطيم الحبكة ، وانعدام النظام المنطقى ، هذا** كله انما يعتبرمن السمات البارزة التى يتميز بها البناء المعمارى لرواية القرن العشرين .

وفى ضوء ما سبق يتضح لنا أن الرواية التحليلية الزمنية تبدو وكأنها مقطوعة الصلة بروايات هـ . ج . ويلز ، وديكنز ، وبلزاك ، **وجوركى** ، التى تنطق بطبيعة الحياة فى القرن التاسع عشر ، وما يجول فيها من تصورات ، وتجارب ، ومشكلات .. ولقد جاء فى أعقاب هؤلاء كل من **مارسيل بروست ، وجيمس جويس، وفرانس كافكا ، وفرجينيا وولف ، ووليم فوكنر،** فكانت كتاباتهم أصدق مثال عن عالمهم الداخلى ، وما يعج به من أحساسيس ، وأفكار ، وأصوات، وألوان .

تربوية مع بعض الاسئلة عليها ، وبهذه الخطة ، ينتهى الكتاب ٠

والقارىء للكتاب سيلمس من غير شك مابذل من جهد كبير فى ترجمته ، ولكن هذا لا يمنع من أن نبدى الملاحظات الآتية :

١ ـ اذا كنا فى حاجة شديدة الى ترجمة ونقل الكتب الأجنبية الهامة وعيون التراث العالمى ووجهات نظر الثقافات العالمية الى ثقافتنا ، فهل يمكن أن نكتفى بأن تكون ترجماتنا مجرد صور فوتوغرافية لأصولها الاجنبية أم أنه من الضرورى أن يتم مع الترجمة نقد وتعليق وتبصير بما قد يعد افتئاتا على الحقائق الخاصة بنا ، أو بعقد المقارنات التى يمكن أن تلقى مزيدا من الضوء على واقعنا ومشكلاتنا ٠

ان ذلك اذا كان ضروريا بصفة عامة ، فانه ـ فيما أعتقد ـ أشد ضرورة بالنسبة لنا كبلد نام حتى لا نقع تحت تأثير ما ننقل ونترجم ، ويتم اقتباسنا ونقلنا منه بوعى وبصر ٠ بيد اننا ينبغى أن نلفت النظر هنا الى أن هذا مما نحتاج اليه بالنسبة للكتابات التى تعالج المواد الانسانية وتمس الجوانب القومية ٠

وقد قام مراجع كتابنا بالفعل بشىء من هذا كما نرى فى ص ٢٠ و ص ٢٤ وص ٦٩ فهنا ـ مثلا ـ يزعم المؤلف أن ادارات المستعمرات البريطانية قد تعودت أن تستشير الزعماء عن طريق موظفيها ، وأن هذا الامر قد أصبح يتم بعد ذلك عن طريق المجالس التشريعية ، ومن ثم كان لفت المراجع لنظر القارىء الى مغالاة المؤلف فى هذا القول، وتاريخ الاستعمار البريطانى فى بلادنا حافل بالامثلة التى تكذب قول المؤلف ، فعندما تقدم بعض النواب فى مجلس شورى القوانين الذى أقامه الاستعمار « كصورة » للحياة النيابية يطلبون أخذ رأيهم فى القوانين واللوائح الخاصة بالتعليم ، فكان رد وزارة المعارف « لا حاجة لعرض البروجرام على المجلس لأن نظارة المعارف لا تألو جهدا فى جعله كافلا لغرض الأمة وافيا بحاجة البلاد » (انظر جريدة اللواء فى ٣/٢٦/ ١٩٠٢ العدد / ٧٥٠) ، كذلك أصدرت الجمعية بجلستها العمومية فى ١٩٠٢/٣/١٦ قرارا بمطالبة الحكومة بعرض مناهج التعليم بالمدارس الاميرية على مجلس شورى القوانين ، وكان هذا هو أول قرار أصدرته الجمعية العمومية فى هذا الشأن ٠ وقد أجابتها الحكومة بتاريخ ١١/١٦ من نفس السنة « أن بروجرامات التعليم الابتدائى والثانوى وقوانين المدارس العالية والخصوصية والتعديلات التى ترى النظارة لزوم ادخالها عليها جاء التصديق عليها من اللجنة العلمية الادارية ومجلس المعارف الأعلى ومجلس النظار ، ولذا فلا محل لعرضها على مجلس شورى القوانين الذى تخفى عليه تماما تلك المسائل نظرا لهيئة تشكيله ولاختصاصاته القانونية» (محاضر جلسات الجمعية العمومية جلسة ١ ـ ٤ ـ ١٩٠٨) ٠ ومعروف أن المجالس المشار اليها كانت خاضعة تماما لرأى المسئولين عن الاحتلال ٠

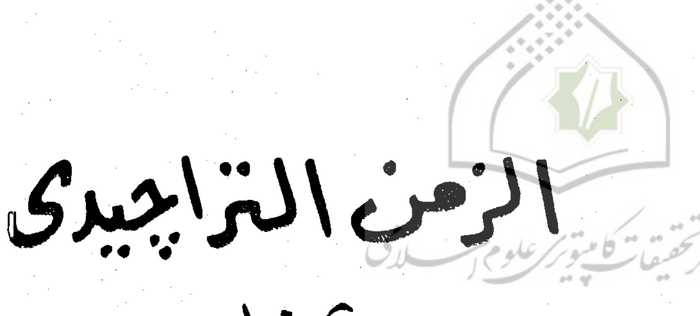
ومع ذلك فهناك كثير من النقاط التى كانت تحتاج الى تعليق ولم يشر اليها ، فالمؤلف يذكر فى ص/٣٢ أن نيجريا هى « أولى الدول الافريقية» التى قامت بعمل تقديرات تقريبية لحاجاتها المستقلة من القوى البشرية٠ فاذا كان ذلك قد بدأت دراسته فى عام ١٩٥٩ كما يذكر المؤلف (ص ٣٣) فان الجمهورية العربية المتحدة كانت قد بدأت فى ذلك العام أيضا القيام بشىء من هذا اعدادا للخطة التى بدأ تنفيذها سنة ١٩٦٠ ٠ وعلى ذلك لا نستطيع القول بأن نيجيريا هى أول الدول الافريقية فى ذلك ٠

ورغم أن الكتاب عن « التخطيط التربوى فى البلاد النامية » ، فان المؤلف فى معرض دراسته لكيفية تدعيم التربية والتعليم للوحدة القومية ، وان أحد السبل الى ذلك هو « الاشراف على التعليم » كما أشرنا ، فهو لا يضرب أمثلة من واقع البلاد النامية وانما يشير الى فرنسا وروسيا والولايات المتحدة ٠ فها هنا أيضا فرصة كان ينبغى اغتنامها لسد هذا النقص والاشارة الى الطريقة التى هيمنت بها الدولة هنا فى بلادنا على التعليم تحقيقا لمبدأ « ما دام الشعب هو الذى يمول المدارس فيبدو من المعقول أن يقرر الشعب ما يدرس فيها » ٠٠ الخ ٠

وبعد ٠٠ فان الكتاب بما يحويه من المعلومات التى تتعلق بموضوع هام مثل « التخطيط التربوى » وبما بذل فيه من جهد لنقله الى اللغة العربية يعد مغنما غنمته المكتبة العربية واذا كانت قد شابته بعض العيوب فهى بالقياس الى ما يحمله من فوائد ومزايا يمكن ألا تذكر لتبقى بعد ذلك فكرة التخطيط التربوى وأهميتها وضرورتها بالنسبة للبدان النامية ٠

سعيد اسماعيل

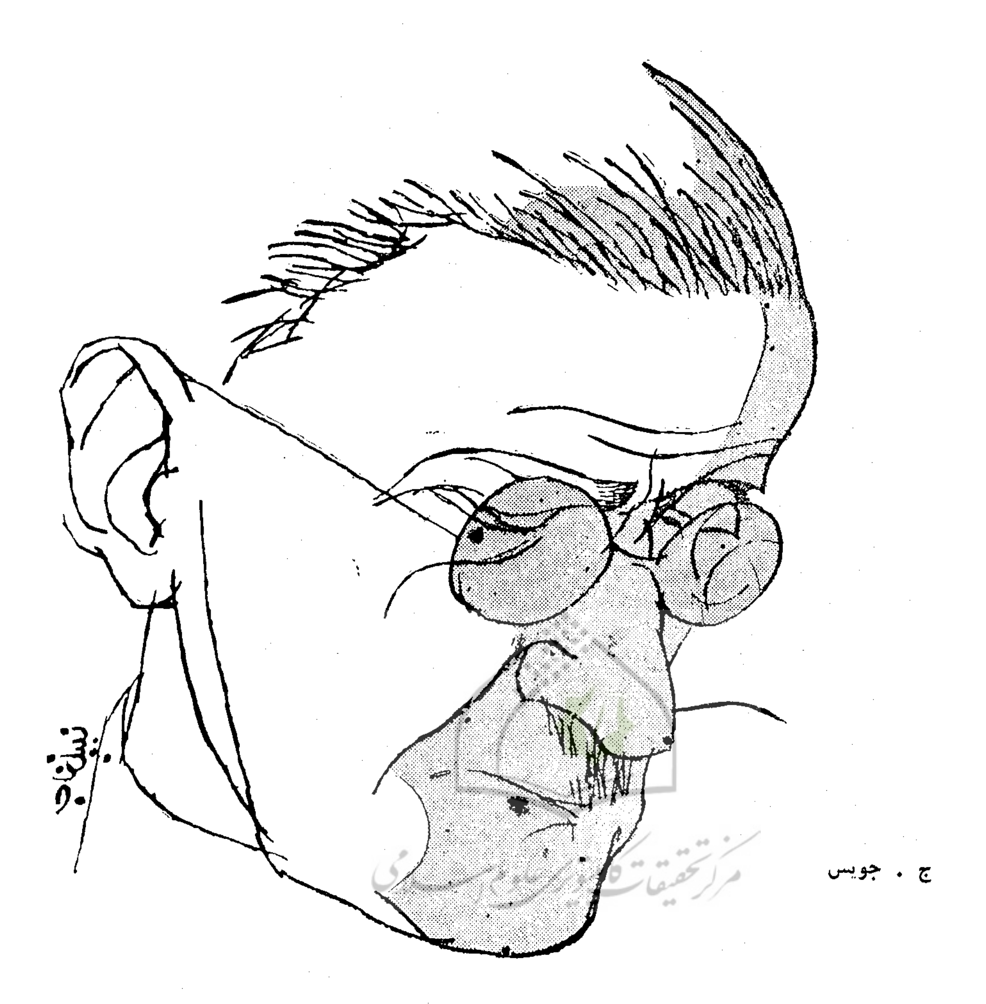
اتجاهات النقد الجديد





سعد عبد العزيز

ليس من قبيل المكابرة اذا تصورنا أن العمل النقدى انما هو عمل شاق يستنزف جهدا جهيدا •• بل لا نغالى اذا قلنا أن هذا العمل انما تفوق صعوبته صعوبة الخلق الفنى •• ذلك لأن الفنان يبدع فنه بايعاز من احساسه الخاص ، وهـو يزاول نشـاطه الخيالى بطريقـة تلقائية تجعله لا يعى تماما تلك الحركة التى تسرى فى سياقه الفنى ، دافعة بعناصر هذا السياق الى التفاعل ، والتجانس ،والاتساق •• فكل ما يستوحيه هنا انما يأتى عفو الخاطر ، وكل ما يبدعه انما هو قبس من نفسه وبعض من تجاربه،فهى تستجيب له طواعيه وفى يسر •• صحيح أن الفنان قد يلقى



ج . جويس

ويعد « **جيمس جويس** » كاتبا طليعيا ، ورائدا من وراء حركة التجديد فى الرواية ٠٠ فهو ينأى فى أساليبه عن الوصف ، والسرد ، والتسجيل ، ويستخدم وسائل مبتكرة فى تجسيم عالمه اللاشعورى الذى يمثل عنده القوة الحقيقية التى تشكل حياتنا ، وما تنطوى عليه من تهويم ، وأحلام ، وذكريات ٠٠ وبمعنى آخر نجد كاتبنا **ينسج خيوطه من خلال تلك المادة التى تعبر عن صدى الأشياء فى أعماقنا ٠**

ومعروف عن « جيمس جويس » أنه أيرلندى الأصل ، فقد ولد فى مدينة دبلن عام ١٨٨٢ ، وتلقى تعليمه فى مدارس الآباء اليسوعيين ثم التحق بجامعة ايرلندا الكاثوليكية ، وما ان تخرج عام ١٩٠٢ حتى رحل الى باريس لدراسة الطب ، لكنه لم يوفق فى ذلك ، الأمر الذى جعله يقطع دراسته ليتجه الى الأدب ٠٠ فراح ينهل من معينه، وينهمك فى دراسته ، عاكفا على اتقان عدد من اللغات الأجنبية التى مهدت له الطريق لاتساع معرفته ، وزيادة اطلاعه ٠

وجدير بالذكر أن كاتبنا لم ير « دبلن » فى حياته الا مرة واحدة ، وذلك حين جاءته برقية تنبئه بوفاة والدته ٠٠ فهرع الى مسقط رأسه فى زيارة قصيرة ٠٠ وهناك تعرف على الفتاة « نورا » التى تزوج منها فيما بعد ٠٠ وغادر « جيمس جويس » دبلن عام ١٩١٢ ، ولم يعد اليها فظل منفيا عن وطنه طوال حياته ، متنقلا بين ايطاليا ، وسويسرا ، وفرنسا ٠٠ وكان أول عمل يبدعه هو ذلك الديوان الذى يضم نخبة من أشعاره ، والذى نشره فى لندن فى عام ١٩٠٧ تحت عنوان (موسيقى الحجرة) ، ولقد أعقبه بنشر كتاب آخر فى عام ١٩١٤ باسم « ناس من دبلن » ضمنه مجموعة من القصص القصيرة ٠

ولقد استطاع « جيمس جويس » بفضل تمكنه من لغات عديدة ـ أن يفتح أمامه مجالات مختلفة من الثقافة ، والأدب ، والفن ٠٠ فتكاد رؤيته هنا تتسع لجميع التصورات ، والمؤثرات التى تدور فى هذا الصدد ٠٠ ولقد كان يعى تماما ما يجرى فى عصره من تيارات فلسفية ، وأدبية ، وفنية ٠٠ ومن ثم فهو يتعاطف وأفكار «برجسون» ويجعل منه مثله الأعلى ٠٠ **ومعروف أن برجسون قد أوحى اليه بفكرة الزمن الحى** ، التى استطاع كاتبنا ـ فيما بعد ـ أن يطوعها ، ويصبغها بالصبغة التراجيدية فى مجال تعبيره الادبى ٠٠ على أنه لا يفوتنا أن نركز الضوء على مصدر آخر من المصادر التى كان لها أبلغ الأثر فى توجيه كتابات « جويس » وتشكيلها على النحو الذى يتميز به ٠٠ فقد صادفته حين كان فى العشرين من عمره ـ رواية فرنسية كانت مثالا صادقا للحركة الرمزية التى بلغت أوج نضجها آنذاك ٠٠ وهى رواية « **أشجار الغار المقطوعة** » للكاتب « **ادوار دى جاردان** » وهى تحكى عن شاب يعانى من حبه لفتاة تعمل بالتمثيل ، فقد ظل يبسط لها يده كل البسط ، فيغدق عليها العطاء ، ويغرقها بالهدايا ، ويرتاد معها المطاعم ، ودور اللهو ، لكن ذلك كله كان دون جدوى ، فلم ينل منها سوى الدهان المصطنع ، والوعود الكاذبة ٠٠ ولقد استطاع الكاتب هنا بمهارته الفنية أن ينقلنا من حيز الواقع الخارجى الى ما يجول فى نفس البطل من أحاسيس ، وصراعات ، وأوهام ، فقد أطلعنا على تلك الحركة الداخلية التى يتجسم من خلالها الزمن ، والتى يمكن أن نتمثلها فى ضوء نوعين متناقضين من الاحساس : **الاحساس بالسار** الذى يستولى على البطل كلما توهم أنه يكاد يقترب مما يصبو اليه من ناحية ، **والاحساس بالمكدر** الذى يداهمه حين يفيق من خدره على اثر اكتشافه للحقيقة من ناحية أخرى ٠٠ ومن خلال الصدام بين الوهم والحقيقة ٠٠ وبالتالى من خلال الصدام بين ما يصوره البطل ممكنا من جهة ، وما يتصوره فى نفس الوقت مستحيلا من جهة أخرى ، يتولد احساسنا الدرامى بالزمن ٠٠ ذلك الاحساس الذى يفصح عن شكل ومضمون التجربة الفنية ٠

تجربة أوليس

ولم يكن أحد يتنبأ أن هذه الرواية التى لم تنل حظا من النجاح ، يبلغ تأثيرها على «**جويس**» ما يجعله يستوحى منها عملا ابداعيا فذا مثل « أوليس » ٠٠ فواضح أن «جويس» قد استطاع أن يمعن النظر فى تجربة «دى جاردان» ويستنبط منها تجربته الفريدة ، مستعينا فى ذلك بخبرته الفنية الواسعة ، ومهارته اللغوية الفائقة ٠٠ وواضح أن كاتبنا قد سجل روايته فى مليون كلمة ، وقضى فى تأليفها أربع سنوات ، فكان ينشرها تباعا فى مجلة « **المجلة الصغيرة** » وكان جويس يعانى ضيقا شديدا فى ذلك الوقت فلم يجد بدا من أن يولى وجهه عام ١٩١٥ الى سويسرا حيث مكث حتى عام ١٩١٩ ٠٠ ومن الضرورى أن نذكر أن «أوليس» لم تلق ـ فى بادىء الأمر ـ الترحيب اللائق بها ، فقد حجبت عن النشر فى كل من انجلترا ، وأمريكا لكن أصدقاء الكاتب فى باريس سرعان ما أولوها اهتماما بالغا ، فعملوا على ترجمتها الى الفرنسية ، واستعانوا باحدى دور النشر على نشرها ٠٠ ولقد أحدث ظهور « أوليس » رد فعل عنيفا لدى القراء ، والباحثين ، والدارسين ٠٠ حتى أن بعض النقاد ينظر الى قيمتها فى مجال النشر على أنها تستوى «والارض الخراب » لاليوت فى مجال الشعر ٠٠ بل يذهب هؤلاء الى القول بأن ت ٠ س اليوت قد تأثر الى حد بعيد بتكنيك هذا العمل الرائع حين أبدع « الأرض الخراب » ٠

وتبدو ٠٠ أوليس ، لأول وهلة ، وكأنها خلو من النظام ، والشكل المحدد ٠٠ والحق أن هذا يجانب الصواب ، فلو عرفنا أن صياغة « أوليس» انما هى أقرب الى الصياغة الشعرية الحرة ، ولو عرفنا أن معطيات هذا العمل لا تخضع بالضرورة للادراك المباشر ، فهى تنطق بالرموز ، والاشارات والايماءات التى لا تخبرنا عن مجرى الواقع ، بقدر ما توحى الينا بصدى هذا الواقع ، وردود فعله ، لأدركنا تماما طبيعة الشكل الذى تنتمى اليه هذه الرواية ٠٠ فالكلمات هنا انما تتفجر فى شكل هالة من الضوء تشع بالاشكال ، والالوان ، والانغام ٠٠ وبالتالى فهى تمنحنا رؤية مركزة لهذا العالم الصغير الذى يمكن أن نتمثله فى مدينة دبلن ٠٠ والكلمات تنسج شخوص تلك المدينة فى ضوء الزمن الذى لا يتعدى امتداده الثمانى عشرة ساعة ٠٠ **فالزمن هنا يأخذ حالته الآنية فلا يتوقف تدفقه نحو الماضى أبدا** ٠٠ وهو يستحيل الى ماض بمجرد أن يفض حمولته من صور ومرئيات وأحداث داخل وعينا ، وادراكنا ٠ وبهذا المعنى استطاع « جويس » أن يشق طريقا الى الزمن ، وأن يسيطر على حركته ، ويحكم الاغلاق عليه داخل اطار من الكلمات ٠٠**وبالتالى استطاع أن ينقل الزمن من مجاله المتناهى الى مجال لا ينتهى أبدا** ٠٠ فقد صارت الثمانى عشرة

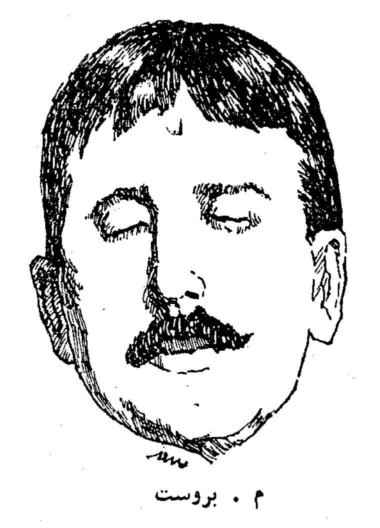
ساعة بمثابة زمن خالد فى تاريخ الزمن٠٠وفى كل العصور ٠

ومن المؤكد أن تجربة « أوليس » انما تفوق فى قيمتها الفنية جميع التجارب الأولى للرواية التحليلية الزمنية ٠٠ فاذا كان «مارسيل بروست» قد أمكنه أن ينقل الينا من خلال (البحث عن الزمن الضائع) صورة حية لما يتواتر فى ذهن فرد بعينه من أفكار ، وخواطر ، وأوهام ، فان « جيمس جويس » فى « أوليس » كان قادرا على أن يستوعب عددا من الشخوص من خلال ذلك المشهد الذى يضمها جميعا ٠٠ فنجده فى هذا المشهد ، يقوم بالتركيز على الجزئى لكى يستخلص منه المعطيات الدرامية التى ترتبط بالنسيج الكلى لهذا المشهد ٠٠ فقد أمكنه أن يغوص فى عوالم هؤلاء الذين تجمعوا فى مكان واحد كى يشاهدوا موكب الملك أثناء عبوره أحد شوارع المدينة ٠ ورغم أن كل شخص يبدو فى هذا الموقف وكأنه ذرة مغلقة ، منفصلة ، الا أن « جويس » استطاع أن يجمع هذه الذرات داخل تلك البؤرة التى تمثل وعينا ، وأن يفجر ما تحمله من شحنات شعورية، وتوترية دفعة واحدة ٠

ديناميكية التعبير

وعلى هذا ، يمكن القول بأن ديناميكية التعبير عند «جويس» انما تأبى الا أن تدفع المتلقى الى أن يجرى ، ويلهث باستمرار ٠٠ **فهو يدور مع الكاتب فى كل مكان حتى يصيبه الدوار** ٠٠ وهو يتحرك بين المرئيات بسرعة مذهلة ٠٠ ويخترق وعى عدد من الشخصيات ، وكأنه يخترق عباب دوامة هائجة تموج بالأحاسيس المصطرعة ، والاصوات الصارخة ، والألوان الحادة ٠٠ ومن هذه الشخصيات : الأب « **كونى** » الذى صار صديقا **لستيفن ديدالوس** ، والآنسة «**دن**» التى تعمل على الآلة الكاتبة ، والتى تتراسل مع « **ليوبولد بلوم** » رغم أنهما لم يلتقيا أبدا ، و «**باتريك الويسيوس ديجنام**» الذى دفن والده فى صباح ذلك اليوم ، «**وليوبولدبلوم**» الذى تطارده صورة زوجته أينما ذهب ، و «**ستيفن ديدالوس**» الذى يهيم على وجهه فى الطرقات باحثا عن هدف يحققه٠٠ و «**ماريون بلوم**» وهىزوجة ليوبولدبلوم التى يتملكها احساس بالشبق لا تجد منه مخلصا ٠٠ فكل هذه الشخصيات تتواتر الينا ، **وتتحرك فىضوء ذلك المسار الذى يعبر عن ايقاع الحياة فى مدينة بأسرها** ٠

غير أن «أوليس» انما تقوم أساسا على ثلاث **شخصيات هى:** ستيفن ديدالوس، وليوبولدبلوم،



م ٠ بروست



ف ٠ كافكا



ف ٠ وولف

وماريون بلوم ٠٠ ويبدو «ستيفن» وكأنه تجسيم **للعقل ، والفكر ، والخيال** ٠٠ وهو يتناقض فى ذلك مع « ماريون » التى تمثل الجسد ، والغريزة ٠٠ أما « بلوم » فهو يمثل بطبيعته المعتدلة الحد الاوسط بينهما ، فيلتقى فيه العقل ، والغريزة ٠

وستيفن هو ذلك الشاعر المتمرد المتحذلق الذى ينطوى على نزعات عدوانية كثيرا مايستغلها حين ينال من خصومه ٠٠ فيبدو عدوانيا فى طريقه اقحامه لهم بحجابه المنطقى الصارم ، وفى أسلوبه اللاذع الذى يخلط فيه بين الجد والهزل، والذى لا يخلو من هجاء ، وسفسطة ٠

ويبدو «ستيفن» وكأن لا وطن له ٠٠ فهو ينفى نفسه عن وطنه ، وأهله ، وأصدقائه ، وهو لا يتحرك طوال الثمانى عشرة ساعة الا فى ضوء عالمه الداخلى ، فنجده ، طول الوقت ، رهين هذا العالم الذى يمثل ماضيه ، وحاضره ، ومستقبله٠ فهذه الاشياء التى تترى عليه أثناء تجواله فى شوارع «دبلن» انما تتحول الى منبهات، ومثيرات، تدفع كوامن شعوره ، ولا شعوره ، الى أن تطفو فوق السطح٠٠ فلا غرابة اذا رأيناه دائم الارتداد الى الماضى الذى يشتد وقعه عليه حين تتداعى صورة أمه فى خياله ، فيمزقه الشعور بالذنب ، ذلك لأنه رفض أن يصلى من أجلها حين كانت تحتضر ٠

الزمن المتوتر

لقد ظلت هذه الصورة تتسلط على ذهن « ستيفن » طوال رحلته ، فهى تصحبه فى حركاته وسكناته ، وهى تطارده حين يهيم على وجهه فى شوارع دبلن ، وحين يرتاد الحانات ، والمكتبات ، ودور الدعارة وتوعز الينا حركة ستيفن الدائبة التى أنهكت قواه بما كان يعانيه من صراع ضد الزمن ٠٠ فهو هنا لا يقوى على تحطيم ذلك الحصار الذى يفرضه عليه الماضى ٠٠ فلا الشعر ، ولا الجدل ، ولا الخمر ، ولا التسكع ٠٠ لاشىء منهذا كله استطاع أن يخلصه من الشعور بالاثم ، وبالتالى من الشعور بتوتر الزمن الذى يتجسم فى صورة أمه المحتضرة ٠٠٠

ومع هذا ، فقد استطاع ستيفن « أن يجد عزاءه فى النهاية فى « ليوبولد بلوم » فما ان التقى به حتى نظر اليه وكأنه يمثل ذلك الاب الذى يفتقده ويريد أن ينتمى اليه ٠٠ ولم يسع « بلوم » بدوره الا أن يرحب بهذا اللقاء ؛ فقد أحس أن « ستيفن » ليس غريبا عليه ذلك لأنه أثار فى نفسه ذكرى عزيزة عليه ٠٠ فهو يشبه ابنه « رودى » الذى مات حين كان طفلا ٠٠ الأمر الذى دفعه الى أن يحنو عليه ، ويرعاه ، فقد اصطحبه الى منزله لكى يفيقه من حالة السكر التى جعلته غائبا عن وعيه ٠٠٠٠ وواضح أن شخصية « بلوم » ليست بالشخصية البسيطة ، الساذجة ، كما أنه لم يكن على جانب كبير من الثقافة ، والفهم ٠٠ فهو يتميز بذهن يشبه تلك العلبة المكدسة بالخبرات ، والتجارب التى لا يتفاعل بها ، ولا يستجيب لمؤثراتها ٠٠٠ ويقضى « بلوم » يومه خارج بيته ، فهو يبرحه عند الصباح ولا يعود اليه حين ينتصف الليل ٠وفى ذلك الوقت نراه يدور فى شوارع « دبلن » متنقلا بين أحيائها٠ فهو يزور المكتبة ، والمستشفى والجبانة والحانة حيث يطلق لذهنه العنان فتنثال خواطره ، وذكرياته ، وأحلامه حتى تنتهى رحلته ٠

وتعتبر «ماريون بلوم» محور الصراع فى عالم «ليوبولدبلوم» فهى هنا مثار قلقه ، وتمزقه ، وضياعه كما أنها مصدر خوفه ، وبلبلته ، وتوجسه ٠٠ وبالتالى فهى لا تعدو أن تكون تجسيما حيا لمأساته ٠ فرغم علمه بخيانتها ، ورغم أن هذا يسبب له احساسا بالاهانة ، والمرارة ، فقد ظل فى قبضتها أسيرا لايقوى على الفرار ٠٠ بل ظل ينظر اليها على أنها تمثل بالنسبة اليه بيته ووطنه ، ومصيره ٠

وتبدو « ماريون » فى ثنايا الرواية امرأة سيطرت عليها أحلام اليقظة ٠٠ فهى تسلم نفسها دائما للسرحان ، والشرود ، والتهويم ٠٠ وهى امرأة شبقية بالدرجة الاولى ٠٠ فهذا القطار الذى تتردد صورته فى مخيلتها ، بين حين وآخر ، وهو يمرق أمامها مخترقا أذنيها بصوته الهادر انما يوعز بذلك الاحساس الشبقى الذى يسيطر عليها تماما ٠

وقد يلاحظ البعض أن « جيمس جويس » انما يقف من كل شخصية فى روايته موقف المحلل النفسى من المريض ٠٠ فكل الشخوص فى « أوليس » انما تطلق خواطرها ٠ وأفكارها بطريقة عفوية دون أن يعترضها أى مؤثر خارجى يحول دون حريتها ، وتلقائيتها ٠٠ وبذلك تبدو هذه الشخوص وكأنها حالاتمجسمة من الاستغراق الذاتى ، والاستبطان العميق ٠٠ لكن ذلك غير صحيح ٠٠ فواضح أن « جويس »

لا يتخذ من «التحليل» وسيلة للكشف عن مواطن الداء فى شخوصه ، كما يفعل المحلل النفسى ، وانمـــا نراه يستغل عملية التحليـل فى توليد عناصره الانفعالية ، والخيالية ، والصورية التى يؤلف من خلالها مركبا جماليا نابضا بالحياة ٠٠ صحيح أنه فى الامكان أن نتصور شخوص الكاتب وكأنها ترجمـة صادقة لعملية اطـلاق التيار اللاشعورى الى أقصى مدى ٠٠ **لكن «جويس» يعى تماما أن العمل الروائى لا ينبغى أن يكون قاصرا على التداعى الحر ، أو النزعة التلقائية فحسب ، والا اســتحال الى ضرب من الفـوضى لا يخضع للتشكيل أو الاتساق ٠**

الشكل السيمفونى

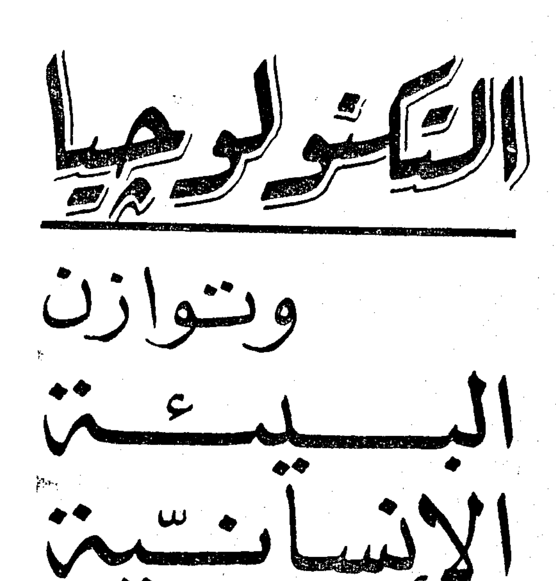
ومن ثم نلاحظ أن شـخوص « أوليس » انما تخضع فى مسارها اللاشعورى لسيطرة الكاتب٠ فهو يمسك بزمامها ، ويعمل على كبح جماحها ، لكنه فى الوقت نفسه ، لا يدخر وسعا من أجل اطلاق حريتها ، وتلقائيتها فى حدود عالمها الخاص الذى تعيش فيه ٠٠ وبذلك استطاع «جويس» أن يقـدم «أوليس» فى شكل محكم ، متماسك ، مكتمل ٠٠ بل لا نغالى اذا قلنا ان هـذا الشكل انمـا يقترب فى جودته ، واتقانه ، من **الشكل السيمفونى فى عالم الموسيقى** ٠٠ ولعـل ذلك ينبئنا بمدى ما يمتاز به جيمس جويس من خبرة ، ودراية فى مجـال الموسيقى ٠٠ فقد استطاع أن يصوغ هذه الرواية فى ضوء ايقاع من النغم الأدبى المركب ٠٠ فهـو يجرد الكلمات من صلابتها ، وخشونتها حتى تبدو لينة ، طيعة ، بل تكاد تسـيل أمامنا ، تمـاما كما يسيل اللون فى يد الرسام ، وهى تستحيل الى أصوات صافية توحى بالانسجام ٠٠ **فقد استطاع جويس أن يمزج بين المسموع ، والمنظور ، وبالتالى استطاع أن يعبر عن الأشياء المسموعة بآذان قد تبلغ فى رهافتها ، وحساسيتها أروع ما عرفه الادب الانجليزى من آيات الابداع بعد شكسبير ، وملتون** ٠٠ ويكفى أن نشير فى هذا الصدد الى «ستيفن ديدالوس» حين تترامى الى أذنيه تلك الصيحـة التى تنبعث من الطريق فتســتوى عنده ، وصيحة الله فى الكون ٠٠ وعلى هـذا ، تصبح الـكلمة هنا هى الشىء ، أو الصوت ، أو اللون ، أو الرائحة ٠

فكرة المكان

واذا كان «جويس» قد قام بالتركيز على الزمن ، وجعل منه المادة التى ينحت منها تجربته الفنية ، فانه لا يفوته أن يبرز تأثير المكان ودوره فى تنظيم عمله الفنى ٠٠ ومعروف أن « دبلن » هى المكان الذى يضم عالم جويس ، وهى التى يمـكن أن ندركها ادراكا كيفيـا ٠٠ فكل ما تحتــويه من شخوص ، وأشياء ، وأحداث ، وصراعات ، انما يستحيل عند «ستيفن» ، «وبلوم» ، «وماريون» الى صور ، وأشباح ، وأصوات ، وألوان ، وروائح ٠

وبذلك يصـبح «المكان» فى تصورنا ، وسطا ديناميكيا تتجسم من خلاله تلك الشخوص التى تأخذ فى مسارها خطا مزدوجا متناقضا ٠٠ فهى ، حينا ، تبدو فى حال من التداخل ، والتشابك ، وحينا آخر ، تتنافر ، وتتباعد ، فتبدو فى شكل وحدات درامية منفصلة ، توحى بمـدى ما تتميز به كل شخصية من استقلال ، واكتفاء ٠٠ وبالتالى فهى رهينة عالمها الخاص ، وتجربتها الانسانية الفريدة ٠ وبعد فان «أوليس» تعتبر تكثيفا لعالم زاخر بالحياة ٠٠ الحيـاة بما فيها من جمال ، وقبـح ، وخير ، وشر ، وأمل ، ويأس ٠٠ ولقد حاول « جيمس جويس » أن يبرز هـذه الحقيقة بوجهيها المتناقضين ٠٠ فهو لا يدعونا الى الاعراض عن الحياة ، أو الاقبال عليها ٠٠ وهو لا يدفعنا الى الحكم بادانتها ، أو تبرئتها ٠٠ وانما كان كل همه هنا أن يتركنا أحرارا فى تصورنا ، وادراكنا ، واختيارنا ٠

سعد عبد العزيز



عبد الواحد الإمبابي

● مادمنا مقتنعين بضرورة استمرار التقدم التكنولوجى ، وحريصين فى نفس الوقت على حماية حركة التطور البشرى ، فان واجبنا يتركز فى خلق توازن دقيق بين المكاسب قصيرة الامد والمغامرات بعيدة الامد .



سجل التفوق التكنولوجى الذى حققه الانسان بوصوله الى القمر ميلاد مرحلة تطور جديدة فى تاريخ الجنس البشرى . ولقد أثار هذا الانجاز العلمى الخطير كثيرا من التساؤلات لدى الناس، البعض يرى فى هذا الانتصار مقدمة حاسمه لظهور عهد سيطرة الانسان على مصادر الكون وقدرته الكاملة على استغلالها وتوجيهها على النحو الذى يريد ، والبعض الآخر ينظر اليها على انها تجربة فذة ورائعة ولكن نتاجها من حيث ما ستحققه لانسان الارض من خير لا تتعادل مع ما بذل فيها من جهد ومال ، وفريق ثالث ومعظمهم من المشتغلين بقضايا الفكر والفلسفة يكاد يجمع على ان هذا الحدث العلمى الجديد سيعرض من غير شك تأثيرات جذرية فى مجال العلاقات الاجتماعية يترتب عليها بالضرورة تغيير واضح فى تقدير الناس لبعض القيم التقليدية التى ظلت فترة طويلة موضع الاعتراف والثبات فى مجتمع

ما قبل العصر القمرى الجديد .

اما الفريق الرابع فيبدو متشائما فى موقفه، اعتمادا على تجارب تكنولوجية أخرى سابقة جعلت لتشاؤمه اكثر من مبرر ، والى جانب هذه المواقف أيضا برزت وجهات نظر أخرى عديدة ومتنوعة كان لا بد أن نتوقع وجودها ، لأن الحدث فى حد ذاته خطوة مذهلة فى ميدان صراع الانسان مع الطبيعة تستحق أن تتعدد وتتنوع تفسيرات الناس لها . غير أن هناك فريقا آخر دفعه هذا الحدث التكنولوجى الفريد الى القيام بعمل تقييم شامل لكل المنجزات الانسانية فى مجال العلوم التكنولوجية والكشف عما أحدثته من تأثيرات ايجابية أو سلبية على حركة التطور الانسانى ، وكانت هذه القضية هى مركز الحوار بين عدد من رجال الفكر واساتذة العلوم فى كل من أوربا وأمريكا خلال الاسابيع القليلة الماضية .

مستقبل التقدم التكنولوجى

كان أول من أثار الجدل حول هذه القضية وبادر بالدعوة الى مناقشتها — فيما نعرف — عالم بريطانى مشهور هو الدكتور ((**بيترلورى**)) Peter Laurie الذى يشتغل الآن محررا للشئون العلمية بصحيفة الصاندى تيمز الانجليزية . لقد طرح هذا العالم السؤال المحدد التالى : ((**ما هى — بالضبط — الفرص الحقيقية التى وفرها التقدم التكنولوجى للانسان لكى يحرز مزيدا من الانتصارات فى مسيرته نحو مستقبل أفضل اذا كانت ثمة فرص على الاطلاق؟**))

وأصر هذا العالم الصحفى وهو يطرح هذا السؤال على أن تأتى الاجابة عنه من واقع التأثيرات التى اكتشفها الانسان وهو يحاول الاستفادة من نتائج الأبحاث التكنولوجية فى خدمة قضية تطوره .

وكم كان مذهلا ان يتبلور من خلال المناقشة التى اشترك فيها عدد كبير من رجال الفكر والعلم رأى موحد يقرر مبدأ غريبا بل قد يبدو شاذا فى نظر أبناء عصر أصبحت للتكنولوجيا فيه الكلمة الفاصلة فى حياتهم ، ولكنه — على أى حال — مبدأ اعتمد اصحابه فى تبريره على الواقع نفسه وكلهم أهل ثقة فيما تصدوا له من موضوعات .

وجانب الشذوذ فى هذا الرأى يأتى من اصراره على ادانة التكنولوجيا واتهامها بتعطيل حركة التطور البشرى .

يقول دكتور لورى **ان واقع التجارب يؤكد أن معظم المحاولات التى قام بها الانسان لاستغلال الطبيعة جلبت له معها الكثير من المتاعب والشرور** ، ويمكن القول بصفة عامة بأن الامكانيات العلمية التى توفرت للانسان قبل القرن الثامن عشر لم تتجاوز فى تأثيراتها نطاق البيئة المحلية ، وفى نفس الوقت كانت معظم الاختراعات من طاحونة وشراع ودولاب ماء تحاول استغلال الطبيعة فى رفق ودون ازعاج لها .

وبظهور الثورة البخارية والصناعية بدأت عمليات السلب والعدوان على البيئة ثم ازداد عنفا وحدة خلال القرنين الاخيرين بعد ان تزايد النمو السريع للسكان وارتفعت الأصوات تطالب بضرورة الاستفادة من التقدم التكنولوجى لحل مشاكل الجماهير الأساسية . وغاب عن الكثيرين ان أى تقدم تكنولوجى يأتى دائما على حساب حياة الانسان وبيئته ، فقد نستمتع بل ونستفيد من بناء السدود واقامة محطات القوى الضخمة وصناعة الطائرات التى تجوب الفضاء أسرع من الصواريخ ، ولكننا ننسى أن كل شىء فى الكون يجب أن يعمل فى تناسق مع البيئة بانسانها وحيواناتها ونباتاتها وهوائها ومائها الخ لأن البيئة شديدة التعقيد وعناصرها متداخلة على نحو يؤدى أى اضطراب فى أى عنصر منها الى احداث **سلسلة من التغيرات تشمل ماعداه .**

وقد ثبت أن فشل التكنولوجيا فى تحقيق هدفها فى مشروع من المشروعات يكون راجعا الى اغفال هذه الحقيقة سواء عن جهل بها فى بعض الأحيان أو عدم اكتراث لها فى أحيان أخرى ، فسد الكاديبا الذى أقيم على نهر ازمبيزى فى أفريقيا عمل رائع مافى ذلك من شك ، وقد تم بناؤه تحت ظروف صعبة للغاية ، ويقوم الآن باداء وظيفته المحددة له فى حجز المياه داخل بحيرة تعد من أعظم ما صنع الانسان من بحيرات فى العالم ، غير أن هذه البحيرة بعد ان امتلأت بالماء أغرقت أعدادا كبيرة من الحيوانات ، وكان هذا متوقعا ، ولم يكن أمرا ذا بال على المدى البعيد ، كما أنها غطت مساحات واسعة من الاراضى الزراعية ، وكان مقررا أن يتحول مزارعوها الى صيادين . ولكن الكثيرين منهم رفض ممارسة هذه المهنة وربما كان هذا ايضا متوقعا ، لكن الشىء الذى لم يكن متوقعا هو أن تفشل كل المحاولات التى بذلت لتخزين البحيرة بالاسماك وأن تغطى الحشائش مساحات واسعة من سطحها المائى فتصبح غير صالحة لعمليات الصيد أو مرور القوارب أو الاستفادة منها فى

اى غرض آخر . يضاف الى هذا عدم وجود صناعه ضخمه تستخدم كل امكانيات القوى الهيدروكهربية المتولده من السد ، وحيث لا توجد مثل هذه الصناعة تمتلىء البحيرة بالرواسب الطينية فيصبح السد عديم الجدوى. وقد حدث هذا ايضا فى اماكن أخرى غير افريقيا ففى عام ١٩٢٠ تم بناء سد جبل طارق على النهر الواقع خلف مدينة كاليفورنيا ، وسرعان ما اتضح ان البحيرة قد امتلأت بالرواسب فاضطر المسئولون الى اقامة سدين آخرين عند أعلى المجرى لمنع البقايا المتهدمه ، غير انه لم يمض الا عامان فقط حتى امتلأ هذان السدان كذلك بالرواسب ، ويمكن القول بان هذا المصير قد واجهه أكثر من ٢٠٠٠ من السدود الموجوده فى الولايات المتحدة الامريكية وحدها .

وتعتبر مشاريع الرى الكبرى التى نفذت فى البنجاب احدى عجائب الهندسة المدنية ولكنها اصابت الباكستان بكارثة حين فصلت الاملاح عن الارض وركزتها على السطح فعملت منهامنطقة غير صالحة للزراعة .

مثل آخر من امريكا . كانت بحيرة كلير Clear التى تعتبر اخصب منتجع فى كاليفورنيا وأروع موقع من مواقع الجمال فيها مليئه باسراب هائله من البعوض المعروف بلسعاته القارصه ، فتقرر التخلص منه باستخدام مادة الد.د.د . وهى من عائلة الد.د.ت ولكنها اقل خطورا من حيث سمومها على الاسماك وغير ضارة بالنسبة للطيور ، وفعلا اختفى البعوض لمدة سنتين ، وتقرر رش البحيرة مرة ثانيه وتكررت هذه العملية مرة ثالثة ، وبعد هذه السنوات الست التى استخدم فيها رش البحيرة ثلاث مرات فوجىء أهالى المنطقة بموت كل الطيور التى كانت تعيش بين قصب الغاب .

وهذا المثال والامثلة السابقة ايضا نموذج لمنطق التكنولوجيين : « **لم نكن نعرف** » **وهو** منطق يفقد التقدم التكنولوجى اهميته فيصبح عامل تعطيل لعملية التطور بدلا من دفعها الى الامام ، والسبب فى هذا الفشل واضح ، وهو أن رجال التكنولوجيا لم يدركوا أهمية التناسق الذى يجب أن يتوفر بين عناصر البيئة ، وأن اى اختراع يجب الا يحطم هذا التناسق .

ادانة التكنولوجيا

ومن المتناقضات العجيبة فى مجتمعنا المعاصر أن بعض الحكومات تفرض رقابة صارمة على المواد الحديثة المبيدة للحشرات بحجة انها تحتوى على نسبة عاليه من السموم فى الوقت الذى لا تفرض فيه مثل هذه الرقابه على مواد كيماويه أخرى ليست اقل خطوره من هذه المبيدات . فالمخصبات الزراعية تسبب تدميرا للبيئة أكثر مما تسببه مبيدات الحشرات ، اذ يستخدم الفلاحون ملايين الاطنان من النترات والفوسفات تجرفها مياه الامطار حين تهطل لتلقى بها الى الانهار والى البحيرات فتقتل الاسماك بسمومها وتساعد على نمو الطحالب نموا أكثر من الطبيعى فتعوق السباحة ومرور القوارب ، وهذه الطحالب تسرف مادة الاوكسجين من الماء فضلا عن انها تصبح هى الأخرى حاملة للسموم ، وقد ثبت ان نمو الطحالب على هذا النحو فى بحيرة العاصفة بولاية أيوا قد قتل أكثر من ٨٠٠٠ طائر برى .

وفى عالم تكنولوجيا الطب برزت نتائج خطيرة أدت الى الاضرار بصحة الناس بدلا من تحسينها وعلاجها ، وفى هذا المجال ينبغى أن نشير الى ثلاث مشاكل اساسية :



أولا : العقاقير نفسها — وهى مادة العلاج — غالبا ما تكون سامة ، فالبنسلين مثلا يمكن أن يقتل الانسان الذى تصبح لديه حساسية منه، وقد أثبتت بعض الاحصائيات التى أجريت عام ١٩٦٨ أمريكا أن ٥٪ من المرضى الذين كانوا يعالجون بالبنسلين لقواحتفهم نتيجة السم الذى أصابهم من كثرة استعماله .

ثانيا : العقاقير التى يستعملها المريض للقضاء على مرض معين قد تساعده على الشفاء من هذا المرض ولكنها — وهذا ما يحدث كثيرا — تطرد من الجسم بعض المواد التى تحميه ضد أمراض أخرى ، فالعلاج بالمضادات الحيوية يؤدى الى تزايد العدوى بفطريات الفم وظهور التهابات حادة فى الجلد واجهزة التناسل وذلك بسبب القضاء على مواد الحماية والدفاع ضدها فى الجسم .

ثالثا : استعمال بعض العقاقير لفترة طويلة يؤدى حتما الى خلق نوع من المقاومة ضد هذه العقاقير ، وعلى الرغم من ان علماء الصيدلة يحاولون التغلب على هذه الحالات الا أن المقاومة تعود لتظهر من جديد حتى بات هناك سباق لا يتوقف بين وجود مقاومة من جانب المريض واختراع عقاقير جديدة مضادة لهذه المقاومة .

وقد وجد لدينا الآن بهذا الصدد ما يمكن أن نسميه بعملية الانتحار الفنى . فمنذ عدة سنوات وشركات العقاقير تعمل على اقناع المزارعين بمزج غذاء الحيوانات الصغيرة بمواد تحتوى على مضادات حيوية حتى تزرع فيها جراثيم المقاومة لما فى جسم الانسان من أسلحة. ومما يثير الدهشة أن عقار الكلورمفنيكول الذى كان الى عهد قريب العقار الوحيد الفعال ضد التيفود أصبح اليوم عديم التأثير وذلك بسبب اعطائه للدجاج المصاب بالحمى ، وكثيرا ما نرى اطفالا يموتون من التهابات معوية لم يعد من الممكن للتغلب عليها بأى عقار حتى ولا الكلورمفنيكول .

قد تكون هذه الأخطار قد حدثت لأن علماء التكنولوجيا لم يكونوا يتوقعون حدوثها وعندما حدثت كان لها من غير شك تأثير ضار على مصلحة التطور البشرى ، **فهل يمكن لهؤلاء العلماء ان يتجنبوا ظهور مثيل لها فى مشروعاتهم المستقبلة ؟**

صراع الانسان والتكنولوجيا

لقد توفر على دراسة بحيرة الفولتا فى غانا فريق من خبراء الصيد والبحيرات لعدة سنوات، على أمل تجنب الاخطاء التى حدثت فى الكاديبا . **ولكن أخطاء أخرى ستجعل من هذا العمل الفنى العظيم مشروعا قليل الاهمية لو غاب عن ذهن المنفذين فكرة المحافظة على مبدأ التناسق الضرورى بين عناصر البيئة دون أدنى اخلال باحداها .**

ولقد حاولت التكنولوجيا توفير بعض وسائل الراحة للانسان بانتاج أجهزة التدفئة والغلايات والسيارات وفاتها أن هذه الاجهزة تحدث نوعا من الغازات تحتوى على حامض الكربون الذى يتحلل فى رطوبة الجو ليتحول الى حامض الكبريت الذى يعتبر مسئولا عن تآكل المبانى والسيارات واحداث كثير من الخسائر تقدر سنويا بمائة مليون جنيه استرلينى فى بريطانيا وحدها وعلى الرغم من أن الأبحاث التى أجريت فى شتاء عام ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ أوضحت مدى الصلة الوثيقة بين وفاة كثير من الاشخاص ووجود ثانى اوكسيد الكبريت فى الهواء ــ الأمر الذى دفع الحكومة البريطانية الى اصدار قوانين صارمة بتنقية الجو من هذه المادة ــ فان هواء لندن لايزال مشبعا منه بكميات أكبر كثيرا مما كان موجودا منذ عشر سنوات . وهذا راجع بالطبع الى أن اساتذة التكنولوجيا لم يحاولوا الارتفاع بقضية سلامة البشر فوق الاعتبارات الفنية ، لأنهم يتحركون فى كثير من الأحيان فى ظل منطق **((لا يهمنا))**

وليس صحيحا ان التكنولوجيا مفيدة دائما حتى ولو وضعت في اعتبارها سلامة البشر لان البيئة ــ كما سبق أن قلنا ــ ليست مملكة الانسان وحده ، **بل هى مركز الحياة بالنسبة لكائنات كثيرة أخرى ،** فهى مستقر الوجود للحيوانات والنباتات والطيور والمعدن الخ واستخدام التكنولوجيا استخداما عنيدا ومطلقا بعيدا عن كل قيد سيخلق حتما عديدا من المشاكل الجديدة التى لا عهد لنا بها من قبل ، فسيؤدى استغلال المعادن والوقود الحجرى على هذا المستوى الضخم الى ندرة وجود هاتين المادتين من العالم ، لأن تزايد الطلب عليهما من مراكز التكنولوجيا يبدو وكأن كوكبنا الأرضى لا يحتوى على معادن أخرى غيرهما ، وتقول كل الاحصائيات التى أجريت فى السنوات الاخيرة الماضية ان استغلال البترول والفحم لو ظل



على معدله الحالى فمعنى هذا ان كل الكميات الموجودة منهما فى الارض سيتم امتصاصها تماما خلال المائتى عام القادمة . وليس هذا بالأمر الغريب ، فقد واجهت معادن أخرى كالصفيح والزئبق نهايتها الاخيرة تحت ضغط والحاح الاحتياجات التكنولوجية . وليس هناك أمل فى البديل الا فى القوة النووية الجديدة التى يدعى التكنولوجيين انها ستعوضنا الكثير عن مصادر القوى التقليدية ولا ندرى حتى الآن ما اذا كان هؤلاء التكنولوجيون قد وضعوا فى

اعتبارهم وهو يتحدثون عن هذه القوى النووية مدى خطورة ما سيحدث نتيجة استخدام هذا المصدر الساحر ، فبعض الدراسات الاخيرة تؤكد ان التراب الذي يحتمل ان يرتفع الى طبقات الجو العليا نتيجة انفجار ۲ر۰۰۰ طن من القوى النووية سيكون كافيا لخلق عصر جليدي آخر على الارض .

ومن القصور ان نتصور ان مشكلة استغلال الفحم والبترول محصوره فقط في نطاق الخوف من نفاد مخزونهما فهناك اخطاء اخرى تحدثها هذه المشكله وتعد من حيث تأثيرها المدمر على حياة البشر اكثر خطرا من مجرد نفاذ مادة او مادتين من ثروات الارض ، فقد ضاعف استهلاك الفحم والبترول في القرن الماضي من وجود ثاني أوكسيد الكربون في الجو بمعدل يقدر ب ۱/۷ ما كان موجودا منه بالفعل ، فاذا استمرت هذه الزيادة لمدة ٤۰۰ سنه او كما يقدرها الآخرون لـ ٤ر۰۰۰ سنة فان معنى هذا أن كمية ثاني أوكسيد الكربون التي ستوجد ستكون كافية لانقاص كمية من حرارة الشمس تساوي ما هو موجود من اشعاعها الآن في الفضاء ، وسيتبع هذا ارتفاع في درجة حرارة الأرض الى حد تذوب معه قمم الثلوج فتنهمر مياهها وتغرق الكثير من مدن العالم الكبرى .

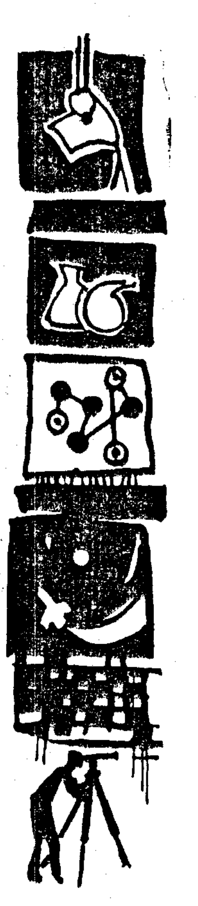
ويمكن ان تحدث نفس هذه التأثيرات او قريب منها نتيجة استخدام الطائرات النفاثة لأن هذه الطائرات تفرغ أطنانا من المياه التي سرعان ما تتبخر في طبقات الجو العليا ثم لا تلبث أن تتجمد في شكل بللورات ثلجية محدثة شحنات لبنية (Milky) ، ولهذا يعتقد بعض علماء الجو ان من المحتمل ان تختفي الفروق المناخية بين فصل الصيف وفصول السنة الأخرى لأن السماء ستصبح في يوم من الايام موشاة بسحب كثيفة من هذه البللورات وتكون النتيجة ازديادا هائلا في درجة حرارة الارض .

ان الذي يحمينا من الاشعاع الشمسي فوق البنفسجي وهو اشعاع قتال ومدمر أربعون طنا فقط من الأوزون Ozone (نوع من الأوكسجين) منتشرة حول الكرة الارضية كلها، فلو امتزجت كميات مناسبة من الوقود الصاروخي في تفاعل مع هذا الأوزون لا نطلقت الاشعة فوق البنفسجية في هجوم عنيف تتحدى به وجود الانسان على الارض .. **وهذا الاحتمال ربما يكون بعيد الحدوث ولكنه يعكس مدى ما يمكن أن يسببه النجاح في بعض العلوم من**

أخطار على حياة الارض بما فيها ومن عليها .

ان علينا ان نتواضع في تقدير اهمية التكنولوجيا ، ومن الخطأ أن نصورها في شكل صديق عملاق يكون دائما رهن اشارتنا حين نطلب اليه أن يطير الى ما وراء الحدود ليعود ومعه العقار الساحر لحل كل مشاكلنا وعلاج أمراضنا ، ان النظرة العاقلة لدور العلم هي نظرتنا الى صديق سفر يشاركنا ظهر سفينة فضاء رأضية ، علينا أن ندرس ونمحص بروح النقد والتحليل نتائج ما يؤديه من عمل ..

ومن اعظم خيرات التاريخ ان رجال العصر الفيكتوري لم يكتشفوا سر انشطار الذرة ، لانهم لو اكتشفوه لحولوا العالم بحكم مفاهيمهم الاجتماعية الى مجرد صحراء مليئة ببقايا الدمار والخرائب .



أخطاء الجهل الشريف :

هناك ايضا أخطاء يخلقها مانسميه بالجهل الشريف ، فحين اخترعت – مثلا – أشعة اكس في نهاية القرن الماضي هلل الناس في كل مكان لانهم أحسوا ببعض نتائجها الطيبة ، ولكنهم كانوا ينظرون اليها كما ينظرون الى جسد امرأة جميلة من خلال ثقوب ثوبها الشفاف . فان احدا لم يكن يدرك أو حتى يتصور ان استخدام هذه الاشعة سيتسبب في وجود اضرار بالغة تصيب العظام والجينيات . **ومن المؤسف أن مثل هذه الأخطاء لا تزال تحدث مما يهدد امن البشرية ومستقبلها ،** ويبدو انه من المستحيل ان يأتي الوقت الذي نعرف ما يجب ان نبحث عنه ، ففي عام ١٩٣٧ حاولت مجموعة من العلماء الأمريكيين الذين يعملون في لجنة الموارد القومية التنبؤ بما ستكون عليه مواردهم خلال السنوات الثلاثين القادمة فبنوا دراستهم على أساس الامكانيات التكنولوجية التي كانت متوفرة لديهم يومذاك ، وضاعت أهمية هذه الدراسة بالطبع فيما بعد لانهم لم يضعوا في اعتبارهم اختراع العقل الالكتروني والانشطار الذري والرادار والترانزستور والصواريخ والطائرات النفاثة ، لقد كانوا يعتقدون أن الطائرات مثلا ستكون حجما وأكثر راحة وامنا ولكنها ان تصبح اكثر سرعة ..

والحقيقة الاخلاقية التي يجب أن نعترف بها هنا هو أن العلم قد جعل مستقبل الجنس البشري شديد الغموض والتعقيد .

ومادمنا مقتنعين بضرورة استمرار التقدم التكنولوجي وحريصين في نفس الوقت على حماية حركة التطور البشري فان واجبنا يتركز في خلق توازن دقيق بين المكاسب قصيرة الامد والمغارات بعيدة الامد . وعلينا ان نجمع بين مصالح الطرفين المستفيدين من كل من هذين الاتجاهين، مصالح الجماهير ومصالح التكنولوجين ويمكن ان يتحقق هذا التوازن لو تمت الانجازات التكنولوجية داخل اطار واسع من التعاون المتكامل بين كل الأطراف المعنية بشئون التطور، اذ ثبت أن كل الاخطار التي تحدث من اي مشروع تكنولوجي تكون بسبب انفراد جماعة متخصصة بتنفيذ المشروع دون الاستعانة بغيرهم من المتخصصين في المجالات الأخرى ، ولتوضيح هذا المعنى نتصور مثلا ان مهندسا من مهندسي الري ذهب الى منطقة يشكو اهلها من قلة المياه اللازمة لري أراضيهم ، ثم عثر فجأة على مكان صالح لاقامة سد يوفر لهم كميات المياه المطلوبة، وبعد أن وضع التصميم وحدد المال اللازم لمشروعه وجد ترحيبا من هؤلاء الاهالي نظرا لما يجدونه فيه من مصلحة عاجلة تعود عليهم بالفائدة ، فالمتوقع في هذه الحالة بالطبع ان يبادر هذا المهندس بالعمل لانجاز المشروع . ولو أشار عليه احد ان يستعين قبل تنفيذ مشروعه بعلماء الايكولوجيا (علم تأثير البيئة على الحيوان والنبات) وعلماء الحيوان وعلماء السلالات تسخر من هذه النصيحة لأنه يتصور أن مشروعه لا يحتاج الى مساهمة احد من هؤلاء المتخصصين ، **اذ ينظر اليهم على أنهم أصحاب مجالات أخرى لا تمت الى عمله الفني بصلة ، وهنا لا يتحقق التوازن بين الفوائد العاجلة والاخطار الآجلة .**

الأعباء الاجتماعية والانتاج التكنولوجي

هناك ايضا عامل آخر خطير يلعب دورا هاما في اضطراب عملية التوازن المطلوبة ويتخذ من سرية التكنولوجيا وسيلة للنجاح الخاص . هذا العامل يتمثل في السعي الجشع وراء الربح الهائل ، فبعض الشركات الصناعية الكبرى تحتفظ لنفسها بأسرار اختراعاتها حتى لا تترك فرصة للمنافسة أمام الشركات الأخرى وتخشى ايضا أن تبوح بهذه الأسرار حتى لا تتعرض لهجوم من جانب أحد من العلماء الذين قد يكتشفون ما في انتشار هذه المخترعات من أخطار . وكثيرا ما ارتفعت شكوى بعض المحافظين في أمريكا من المعارضة العنيفة التي تقف الشركات الصناعية الكبرى من ورائها اثناء احتجاجهم على استخدام مبيدات الحشرات الحديثة .

ان معظم هذه المخترعات حين تغزونا لا نستطيع كجماهير ان نكتشف ما فيها من خطر علينا الا بعد فترة طويلة من الزمن فلو احسسنا فجأة باخطارها مرة واحدة لتجنبناها على الفور وهذا هو جانب الخطورة في الموقف، وكما يقول الاستاذ اهيرلنج

((لو أن ضباب الدخان وصل فجأة الى سماء لوس انجيلوس لهرع الناس توا الى داخل التلال ولكنه يأتي تدريجيا فيتعلم الناس كيف يتعايشون منه))

وقد ظل خبير الطيران السويدي **بولاندبيرج** Bolandberg يحذر الناس من اخطار الكونكورد ولكن احدا لم يعبأ بتحذيراته حتى اكتشفنا ذلك بانفسنا .

وعند هذه المرحلة من الدراسة نكون قد وصلنا الى مواجهة قضية لا بد من الوقوف عندها ، **قضية الاهتمام بالأعباء الاجتماعية وتأثيرها على مستوى انتشار الانتاج التكنولوجي** وفى هذا الصدد نروى المثال الذى أورده البروفيسور ((**ادوارد ميشان**)) Mishan فى كتابه « **تكاليف النمو الاقتصادى**)) فهو يتخيل مدينة يعيش معظم اهلها على مشارفها بينما يكون مقر عملهم فى وسطها ، ففى المرحلة (أ) تتوفر فى المدينة خدمة كافية بالنسبة للمواصلات . اذ يوجد عدد من الأوتوبيسات يكفى لربط أجزاء المدينة بعضها مع بعض . ومستر البيرت الذى يعتبر نموذجا نمطيا لكل سكان المدينة يستخدم الأوتوبيس يوميا فى الذهاب الى عمله والعوده منه ولايستغرق ذلك اكثر من عش دقائق. وفى المرحلة (ب) يشترى مستر البيرت سيارة طاحنه يذهب بها الى عمله فى خمس دقائق فقط ولا يمضى اكثر من عامين حتى يفعل كثيرون مثله . وفى المرحلة (ح) وبسبب تزايد عدد السيارات تزايدا كبيرا تصبح حركة المواصلات صعبة للغاية حتى لا يستطيع البيرت وزملاؤه أن يصلوا الى عملهم بسياراتهم الخاصة قبل ربع ساعة ، فيبدأ البيرت يشعر بأنه فى المرحلة الأولى كان احسن كثيرا ، ولكن الاوتوبيس أصبح يقطع المسافة الآن فى ٢٥ دقيقة وقد تضاعفت تعريفة النقل نظرا لقلة عدد الذين يستخدمونه . وفى المرحلة (د) يصبح لكل شخص سيارة خاصة ويضطر المسئولون الى الغاء الاوتوبيس نهائيا لعدم وجود ركاب ، ولان الأعباء الاجتماعية أى الأعباء المالية التى تتحملها الدولة لتوفير الخدمات الاجتماعية تتطلب ضرورة فرض ضرائب على المواطنين فان المسئولين يجدون أنفسهم مضطرين الى مضاعفة هذه الضرائب على مايعد كماليا بالنسبة لأساسيات الحياة الضرورية الأخرى ، **وليس من شك فى أن السيارات الخاصة اذا قيست بالخدمة الطيبة تكون شيئا كماليا ، فتفرض الضرائب على أصحابها ،** فهل سيجد فرض الضرائب التى يجب تحصيلها للانفاق فيها على الأعباء الاجتماعية من توسع انتشار واستخدام السيارات الخاصة التى هى تتاح للتقدم التكنولوجى ؟

نعتقد أن الرد سيكون حتى بالايجاب :

بقيت مسألة تأثير التكنولوجيا على مواردنا الاقتصادية وخطورتها على ضياع جزء كبير من الدخل القومى . فقد ثبت ان بعض المشروعات الفنيه التى تكلفت قدرا كبيرا من النفقات كان الفشل فى النهايه بسبب ما احدثته من اضرار برزت اثناء استخدامها ، كما أن هناك مشروعات تكنولوجية اخرى تسببت فى احداث خسائر اقتصاديه تفوق اضعاف ما حققته من مكاسب، وقد سبق ان ذكرنا بعض الأمثلة لتأكيد هذه الحقيقه . اما فى مجال القيم والعلاقات الاجتماعية فان احدا لا يستطيع أن يتجاهل الأثر السيء الذى تركه التقدم التكنولوجى فيه، ولناخذ مثلا دور التكنولوجيا فى ميدان انتاج الأسلحة الرهيبة . فقد أصبح السباق فيه اليوم على أشده بين الدول الكبرى ونكاد نشهد ونسمع حركة تطوير واسعة كل يوم بل كل ساعة تهدف هذه الدول من ورائها الى جعل هذه الأسلحة أكثر فتكا وابعد دمارا ، ان هذا السباق يؤدى حتما الى زيادة حدة التوتر بين شعوب العالم وخلق حالة من التربص الدائم لديها ، وربما افلت الزمام فى لحظة اثارة وغضب أو فى لحظة غرور قومى من يد القيادة المسئولة، **ان النتيجة الحتمية فى هذه الحالة وقوع الكارثة الشاملة التى ستدمر كل تراث الانسان على الارض وتغلق باب المستقبل الى الأبد .**

الجانب الايجابى للتكنولوجيا

والآن قد يتصور البعض ان تقييم دور التكنولوجيا فى ضوء جانبها السلبى فقط انما يعكس مفهوما خاطئا ومتخلفا ينتهى بصاحبه الى معاداة كل تقدم يتحقق وتجميد جهود العقل البشرى عند نقطه ثابته لا تتحرك ، وليس هذا صحيحا على الاطلاق ، **فلن يوجد من يعارض التقدم التكنولوجي الا معتوه ابله لا ينتمى الى عالمنا المعاصر** ، اننا ندعو فى حماس عارم لا يهدأ الى استمرار حركة العلم بشرط ان تكون دائما فى خدمة قضية التطور البشرى ، لا ان تكون عقبة فى طريقها ، ولا يتحقق هذا الهدف الا اذا وضعت التكنولوجيا فى اعتبارها دائما مبدأ التناسق مع البيئة بكل عناصرها وأى تقدم تكنولوجي ينسى أو يتناسى هذا المبدأ الأساسى لا يعد تقدما بأى معنى من المعانى ، بل هو فى تحليله الأخير معول يدمر معالم الطريق أمام حركة التطور الانسانى .

عبد الواحد الامبابى

ندوة الفكر

مع



شيخ الفلاسفة المعاصرين

ترجمة سليم الأسيوطى

عقدت هيئة الاذاعة البريطانية ندوة دعت اليها نخبة ممتازة من رجال الفكر البارزين ، ناقشت حياة « لورد برتراندراسل » فقامت بعمل تقويم لحياته وأهميته بوصفه مفكرا عظيما وفيلسوفا كبيرا تمكن من تبسيط الفلسفة وتقريبها من اذهان الجماهير . كما تعرضت أيضا لمواقفه من القضايا الهامة مثل تحرير المرأة ونصرته للحركة النسائية عامة ، وكراهيته للانتخابات والسياسة والدعاية للحصول على أصوات الناخبين ، ودوره في الحياة الثقافية والفكرية .

ثم تناولت المناقشة تأثيره على الحياة العامة : هل شارك فيها بقسط وافر ؟ وهل كان ناجحا فى هذه المشاركة ؟ ولم يفت الندوة ذكر جهوده فى ميدان السياسة والحديث عن مقدرته الفائقة فى الاتصال بالجماهير والشباب بصفة خاصة . كما خصت الندوة «سيرته الذاتية» بقدر ملحوظ من الحديث لما تلقيه من ضوء على جوانب حياته العامة والخاصة .

وقد اشترك فى هذه الندوة :

ستيوارت هامبشاير S. Hampshire ، أستاذ الفلسفة في جامعة برنستون . وهو مؤلف «الفكر والعمل» و «حرية الفرد» ... الخ

نورمان سانت جون ـ ستيفاس N. St. John Stevas

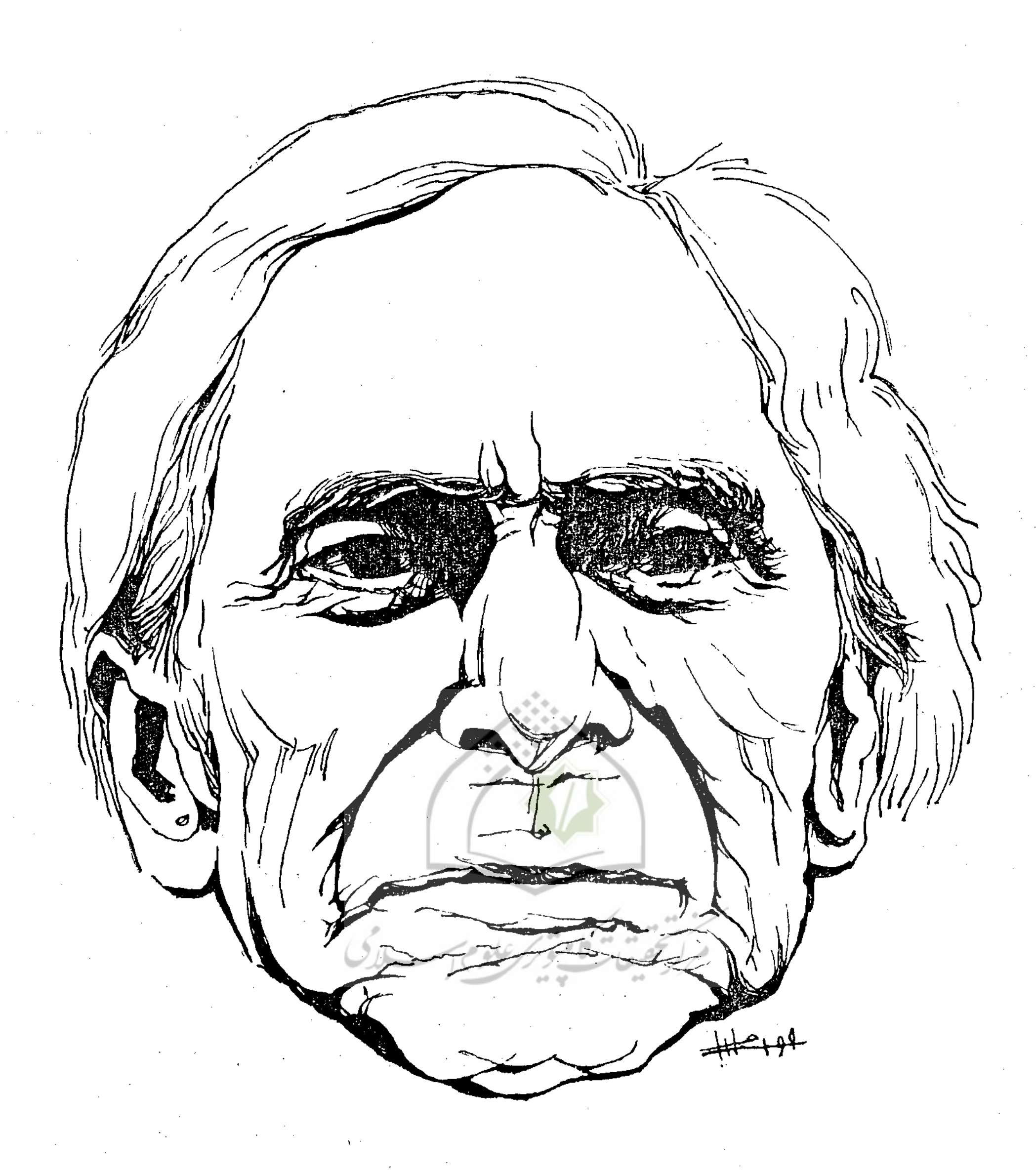
عضو مجلس العموم البريطانى ومحرر سابق في مجلة «الايكونومست» The Economist ، وتتضمن مؤلفاته المنشورة :

«الحياة والموت والقانون» و «القانون والاخلاق» .

البارونة ستوكس B. Stocks التى عملت فى عدة لجان حكومية . وهى المستشار المساعد لجامعة ليفربول ومن مؤلفاتها المنشورة : «الدولة الصناعية» و «تاريخ جمعية العمال التعليمية» .

روبرت كى R. Kee ، الذى تولى ادارة الندوة ، وهو مؤلف «الجمهور ليس صحبة» و «علامة الازمان» .





روبرت كى : أرجو أن نعمل نوعا ما من التقويم لأهمية حياة برتراند راسل المذهلة ، وأظن أنه بالحديث عن الرجل الذى أصر دائما بصورة تدعو الى الاعجاب على الصراحة بين الناس ليس ثمة حاجة الى الخوف من الحديث فى صراحة ، **فكيف كان برتراند راسل هاما بوصفه فيلسوفا ، يا ستيورت هامبشاير ؟**

ستيورت هامبشاير : أظن أنه مما لا يقبل الشك أنه واحد من أعظم ثلاثة فلاسفة أو أربعة يكتبون باللغة الانجليزية فى هذا القرن ؛ وهو يقف ضمن تراث المذهب التجريبى البريطانى الذى يعود الى « **لوك** » و « **باركلى** » و « **هيوم** » و « **ميل** » .

ولبرتراند راسل ، من حيث هو فيلسوف

عظيم ، جانبان متميزان : فهو من جانب قد ابتكر ونشر بداية المنطق الرياضي بمعنى حديث وفي نطاق حديث • صحيح أنه لم يكن وحيدا في هذا الميدان ، ولكنه كان الشخصية المركزية الرئيسية • وثانيا ، فيما يتعلق بنظرية المعرفة والمشاكل التقليدية للفلسفة فقد وضع القضايا التي ناقشها الفلاسفة الآخرون الذين نعتقد أنهم **أنداد له من مثل « مور » و « فيتجنشتاين »** وقد حددوا موقفهم بالنسبة له ، واني أعتقد أن هذا يصدق على جميع العالم الناطق باللغة الانجليزية • **انه الفيلسوف العظيم الذي أسهم بابتكارات فنية نوعية محددة في داخل الفلسفة، هي مكاسب دائمة للمعرفة • وأخيرا ، فانه قد ضرب المثل وقدم المادة التي يعمل عليها الآخرون ، واني لا أظن أن من المستطاع أن ينازع أحد في أنه مفكر عظيم •**

نورمان سانت ـ جون ستيفاس : اني أفضل لو أضيف أنه ـ فضلا عن كونه مفكرا عظيما وفيلسوفا متخصصا عظيما ـ عظيم أيضا في ترويجه الفلسفة للجماهير وتقريبها من أذهانهم • واني لأظن أن أحد الأعمال الفلسفية التي تقرأ على اوسع نطاق في انجلترا هو كتابه « **تاريخ الفلسفة الغربية** » • **واني لاعتقد أنه ،** بالاضافة الى ما يتمتع به من الذكاء الفني والفكر الأصيل ، لديه قدرة نادرة على توصيل ما يقول الى العقول ، **فله موهبة نشطة ليقدم الى الجمهور غير المتخصص أفكارا فلسفية عامة •**

كي : اننا نتقدم نحو الموضوع المشوق ، ألا وهو : **ما اذا كان تأثيره بوصفه شخصية شعبية يتناسب مع تأثيره الأكاديمي أم لا يتناسب ؟**

ليدي ستوكس : أظن أن له ذلك التأثير ، من جهة لأنه ، كما ذكر مستر سانت جون ـ ستيفاس ، فيلسوف يروج للفلسفة بين الجماهير ويقربها من أذهانهم • وأنا لست فيلسوفة ، ولكني حينما قرأت مقاله عن « **عبادة الانسان الحر** » شعرت أن به شيئا أستطيع أن أفهمه ، هذا الشيء الذي يوضح اتجاهه كله في الحياة • واني لا أستطيع أن أتصور لماذا وصفه الناس بالالحاد • ان موقفه يبدو لي موقفا دينيا ـ موقف الذي يعتقد بعدم كفاية العقل البشري لفهم الوحي الالهي ، ولكنه بالتأكيد ليس ملحدا •

كي : ولكن هل ترك أثره حقا ، في الأسلوب الذي تقدم به المجتمع ونما ؟

سانت جون ستيفاس : لا أظن أنه قد ترك أثرا عميقا خاصا على الحياة العامة ، في زماننا هذا • انه شخصية تخلب لب الناس ، كما تخلب لبهم أمانته وصدقه • ولكن آراءه تبدو لبعض الناس كأنها مجنونة جنونا طفيفا • وأظن أن المكان الذي سيحتله في التاريخ ، وبعد أن نترك جانبا ما أسهم به من نشاط فلسفي ، هو في معرض عظماء شواذ الانجليز •

« **ضرر العزلة** »

هاميشاير : أعتقد أن ما وهبه الله من قدرة الاتصال بجمهور كبير ، وهي القدرة التي تظهر واضحه فيما يكتب وفيما يذيع ، تنبع من سمة عميقة من سماته الخلقية ، تلك السمة التي قد أشار اليها في سيرته الذاتية : **أعني ما يسميه هو ضرر الوحدة والعزلة** • فقد كانت الفلسفة عنده دائما مسألة متعلقة بالاهتداء الى معنى الحياة ، والتغلب على هذا الاحساس بالعزلة التي شعر بها في طفولته • وهذا عند السواد الاعظم من الناس الاصل السيكولوجي للاهتمام بالموضوعات الفلسفية ، وهو شعور يدفعهم الى التساؤل : **هل أستطيع الاهتداء الى معنى الحياة، أو الغرض من وجودنا هنا في هذه الدنيا** ؟ لقد ذكرت ليدي ستوكس الآن أنه (برتراند راسل) رجل متدين بمعنى خاص ، فاذا ما كان هذا يعني الشخص الذي يثير هذا النمط من الاسئلة ، فانه من الواضح اذن أنه متدين ، حتى ولو كان ينكر وجود الله ، ولكني أفضل أن أسمي هذا مزاجا فلسفيا أصيلا وهو يضرب لاصحاب الفكر الصريح الحر مثلا يجدونه مشجعا لهم ، حتى في المواضع التي يصل فيها الى نتائج غير مقنعة • **وعلى هذا فاني أظن أنه قد أثر على هذا النحو تأثيرا عظيما•**

كي : وما قولك في القضايا العظيمة والحملات التي وقف بكل كيانه مساندا لها ، مثل تحرير المرأة ، والاصلاح الجذري في المواقف والاتجاهات الجنسية ؟ **هل حدثت هذه ، في الواقع ، بسببه، أم أنها كانت معاصرة لافكاره فحسب ؟**

ليدي ستوكس : ان الذكرى الاولى التي أحملها له كانت بوصفه نصيرا للحركة النسائية، يعمل بالاشتراك مع زوجه الاولى ، ومع حركة تحرير المرأة كلها • وأظن أن هذا كان جزءا من

ميراثه الذى استمده من مذهب حزب الاحرار فى عصر الملكة فكتوريا . واذا ما قرأت خطابات أمبرلى amberly فسيتكشف لك أنه لا يعرف أبويه **فلم تتح له الفرصه ليعرفهما ، ولكن قدرا عظيما** من والديه موجود فيه ، من كلا والديه : **أبيه وأمه** : هو الانجاه المتشكك ، وايمانهما العظيم بالمساواة ، فقد كانا فى الاصل ، ديموقراطيين ، وورث هو عنهما ذلك وأظن أنه قد أضفى لونا من الاحترام الاكاديمى على حركة تحرير المرأة ، ولقد ضحى بالكثير من أجل هذه الحركة ، كان يكره الانتخابات الفرعية ، والسياسية ، والدعاية للحصول على أصوات الناخبين ، وما شاكل ذلك . ولكنه بهذا العمل كان يناضل من أجل قضية عادلة .

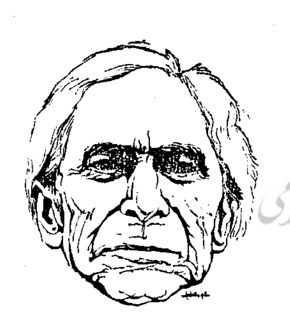
« دور الانبياء فى الحياة العامة »

سانت جون ـ ستيفاس : ان دوره فى الحياة العامة ، كما يبدو لى ، كان دور النبى . فان الطبيعة لم تهبه ما يسميه « **ولتر باجوت** » ـ الملكات التى يتحسس بها طرقه نحو أهدافه ، وهى ضرورية وأساسية اذا ما كنت تنشد التأثير السياسى على الناس ، اذ يجب عليك أن تقوم بسلسلة من الترضيات والتسويات للقاء عند نقطة أو نقاط تحسم المنازعات . أما هو فلم يكن راغبا فى القيام بهذه التنازلات مطلقا ، وهذا يعطيه قوة عظيمة ، اذ يتيح له التمسك بمبادئه دائما ، وهذا هو الشىء الذى لا يستطيع أى سياسى أن يفعله حقا ، **اذ أنك حين تكون سياسيا لا تستطيع أن تكون نفسك الا الى حد محدود فحسب** .

كى : لقد كان ، على كل حال ، يطالب بأن يأخذ الناس ما يقوله مأخذ الجد فى الشئون العامة فقد قال فى مكان ما من «**سيرته الذاتية**» إنه بعد **أن كتب « مبادىء الرياضيات » هجر الرياضة والفلسفة الى الشئون الدولية . وكان ذلك سيكون عمله الجاد . وانه ليبدو عجيبا أن يكون رجل له مثل هذا العقل الجبار ، عديم التأثير الى هذا الحد فى مجال الشئون العامة** .

سانت جون ستيفاس : انى لأجد غرابة فى ذلك مطلقا فان الانسان يتوقع من شخص قد جعل من الفلسفة كل شأنه أن يكون غير مؤثر فى الشئون العامة . ولا يتوقع منه ، فى الحقيقة ، حتى مجرد أن يريد الاسهام فى الشئون العامة . وأن المهم فى لورد راسل أنه يريد ارادة مؤكدة واضحة ـ أن يشارك فى الشئون العامة ، وأن هذه العاطفة القوية هى التى كانت تدفعه قدما دائما : **ولكنى لا أظن أن الشعب الانجليزى يأخذ أقواله مأخذ الجد فى الشئون العامة والسياسة الانجليزية فلا أظن أن أعضاء مجلس العموم البريطانى ، مثلا** يسألون أنفسهم **هذا السؤال** : « **ماذا قال برتراند راسل ؟** » نعم قد يكون له تأثيره من حيث هو مظهر للضمير فى ذاته . وقد يكون له أيضا ، تأثيره فى صورة سلبية اذ يستخدمه آخرون لخدمة أغراضهم الشخصية ، ولكنى لاأظن أنه ربما كان بمقدوره الدفاع عن زعم بأن له تأثيرا سياسيا عميقا فى زمننا .

هامبشاير : ولكن هل ينبغى لنا أن نفترض أن مكان الفلاسفة الصحيح ليس فى الشئون العامة؟ اننى أعنى بذلك أن الفلاسفة أفلاطون ، وأرسطو ،



واسبينوزا ، وهيوم ، ولوك ، وغالبية الفلاسفة العظام من أمثال ميل ، قد اختصوا أنفسهم جميعا ، بقضايا أساسية متعلقة بالمسائل الاخلاقية والشئون العامة . انه لمن الصعوبة بمكان أن نتصور كيف يمكن أن ينفصل هذان الشيئان .

سانت جون ستيفاس: ان الفلاسفة لم يحرزوا نجاحا كبيرا جدا فى مشاركتهم فى الشئون العامة. ولأضرب لذلك مثلا بالفيلسوف « ميل » فأظن أنه ارتكب خطأ فاحشا بدخوله البرلمان ، فلم يكن له تأثير فى البرلمان فى الشئون العامة ، وكل ما جناه من حياته البرلمانية هو أنها صرفته عن

القيام بالاعمال التى كان يحسنها ، والتى كانت ترقى بفلسفته وتفكيره ٠

ليدى ستوكس ٠ ولكنه ألف حقا كتابا : « **عن الحرية** » وحينما أعيد قراءة ذلك الكتاب فانى أعتقد أن هذه القراءة الثانية ، بصورة ما ، هى الكلمة الأخيرة حقا عن مفهوم الحرية السياسية والاجتماعية ٠ وانا أعنى بذلك أن هذا الكتاب قد أصبح اليوم مرجعا أساسيا فى هذا الموضوع ٠

سانت جون : حسن ، هل يمكنك أن تشيرى الى كتاب مشابه ، ألفه برتراند راسل ، تضعينه فى تلك المرتبـــة مع كتاب « **عن الحرية** » لجون ستيورت ميل ؟

ليدى ستوكس : لا ، لا أستطيع ٠

سانت جون : وهل تستطيع أنت، يا هامبشاير « **زيادة تبسيط المشاكل السياسية** »

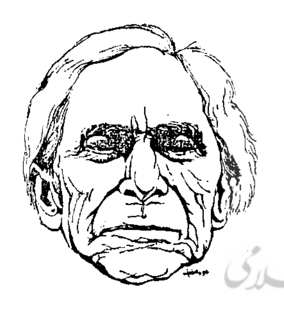
هامبشاير : لا ، فلا أظن أن برتراند راسل قد حقق تماما هـذا النمط من الصـلة الوثيقـة بالسياسة ، وانى اوافق على ان له نمط العقل الذى يسرف اسرافا عظيما فى تبسيط المشاكل السياسية ٠ فحينما يتجه الى معالجة موضـوعات محددة فهو يفترض أنك تستطيع أن تكون موقنا مثلما توقن بالمسائل الرياضية أو القضايا المنطقية فمثلا ، برنامج « وجها لوجه » ، حينما (١) يلمح جون فريمان John Freeman .

(كان هذا التلميح فى أربعينات القرن العشرين المتأخرة ، وهو أن الولايات المتحدة يجب أن تهدد الروسيا بهجوم نووى لتمنعها من صنع قنبلتهـا الذرية) الى أن هناك شيئا غريبا فى وجهة نظره عن القنبلة الذرية ، رد راسل بقوله : « **حسن ، انها مطابقة لوجهات نظرى الاخرى** » وطرح هذه الفكرة المنطقية المتعلقة باتساق وجهات النظـر بعضها مع البعض يبدو لى هنا مفتقرا الى التفكير السياسى الواقعى الى حد ما ٠

كى : وربما كان هذا فعلا ما جعله عديم الفاعلية فى الشئون العامة ، فربما كنت لا تستطيع أن تعمل عملا نافذ المفعول فى ذلك الميدان بدقة تعدل التحليل الجراحى الدقيق فى كل شأن من الشئون على حدة ، كما تفعل فى الفلسفة ٠

هامبشاير : لقد كان أول كتـاب ألفه ، عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها فى مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية ، ويسمى « **الديموقراطية الاشتراكية الألمانية** » واشتمل على أحسن مناقشة للنظرية الماركسية باللغة الانجليزية ٠

أما الكتاب الثانى فكان عن « أسس الهندسة» والحق أن المرء ليخطىء كل الخطأ لو اعتقد أنه كان فيلسوفا عظيما انصرف الى السياسة : فقد كان للاثنين دائما عمق متساو فى طبيعته ٠ فلم يكن راسل أكاديميا قط ، اذ لم يدخل جامعة ، فيما خلا فترات قصيرة جدا ، وهذا يحرره من التمسك بالنظم والشرائع القائمة فى المجتمع ، ويمكنه **من أن يتحدث كانسان الى حشد عظيم من الناس، ربما لا يكونون متفقين معه ، ولكنهم يشعرون أن هذه ظاهرة مشرقة تعطيهم الأمل ٠**



ليدى ستوكس : ان شيئا واحدا ، على حسب ظنى ، يحبب فيه المفكر الشاب العادى ، وهو أن بوسعه أن يتحمس حماسا عارما لقضية من القضايا ويقول ما يبدو لكثيرين منا أشياء فيهـا شىء من الحماقة ٠

« أستاذ الاتصال بالجماهير »

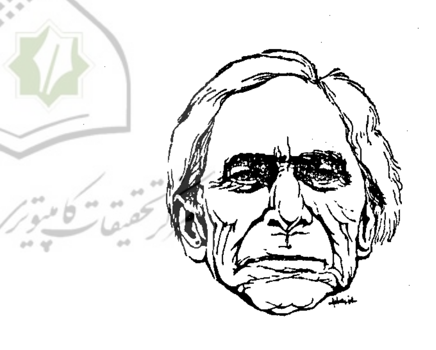
سانت جون ستيفاس : وهو ، بالطبع ، أستاذ عملية الاتصال بالجمـاهير وعلى الرغم من أنه ذو شعور قوى واحساس فياض وعاطفة قوية ، فان ذلك الشعور يعبر عنه من خلال أشكال أدبيـة تخضع لسيطرة دقيقة جدا ، والذى يصغى اليه فى حديث اذاعى يتأثر بجمال اللغة ورقتها الى أبعد حـد ٠

كى : لقد وجد د ٠ هـ ٠ لورانس فى دعوته (برتراند راسل) للسلام والقضاء على الحـرب مثارا للشك سيكولوجيا ، فكتب الى راسل يقول:

« أنت ممتلىء بالرغبات المكبوتة التى بلغت حد الضراوة وأصبحت مضادة لكل ما هو اجتماعى وتظهر فى صورة الحملان تدعو للسلام » • هل تظنين أن فى هذا القول معنى ما ؟

ليدى ستوكس : لا ، فأنى فى الحقيقة والواقع لا أقيم وزنا لأى شىء قاله د•هـ• لورانس عن أى شخص • لقد كان شخصا فضوليا ، معذبا عليلا • فلم يكن له قط نمط الصلات العقلية التى يتمتع بها راسل • ولم يكن يعرف ما اذا كانت هذه الصلات •

سانت جون ستيفاس : أظن أنه قطعة من الهجاء على مذهب فرويد ، فحسب •



هامبشاير : انى أود أن أقول شيئا ما فى صالح لورانس : انى أعتقد أنه ها هنا على شىء من الصواب • ذلك لأن راسل يصف نفسه فى « **سيرته الذاتية** » وفى مواضع أخرى أحيانا ، مؤكدا ، بأنه قد هبط الى أرض البشر الفانين العاديين كغيره ، ولكن فى حال أو وضع آلهى الى حد ما • فهناك وصف له يصوره وهو يقيم فى فندق ، وهو يعلق على بقية النزلاء فى هذا الوصف الذى جاء ضمن رسالة كتبها الى شخص ما كأنه قد هبط حقا بين ناس من بنى البشر العاديين وهاهنا نوع من المفارقة ، لأنه بارع فى مخاطبه عامة الناس • والعامة ممن هم على شاكلة النزلاء يحبون أن يكون بينهم أشخاص يشبهون الآلهة •

سانت جون ستيفاس : أليس هو الذى يقول انه لا يمكن أن يعتبر نفسه والذين يؤيدون القضايا التى يؤمن بها شخصا واحدا ؟ انى لأظن للمرة الثانية أن ذلك تعبير عن هذه الفردية الشديدة التى تجعله بمعزل عن الآخرين ، واذن فلا تصنع فيه الزعيم والقائد السياسى الحقيقى المستعد للخدمة والعمل •

ليدى ستوكس : أظن أن ذلك ، بصورة أو بأخرى ، كان أمانة عقلية من جانبه : فكثير من الناس يشعرون هذا الشعور حينما يدخلون معمعان القضايا الشعبية مع أناس أوفى منهم شهرة وأقل امتيازا ، عقليا •

سانت جون ستيفاس : أظن أن اهميته تظهر فى فصل « **العقيدة** » وهو الجزء الثالث من مقدمة « **سيرته الذاتية** » ، حيث يتحدث عن حنانه وعطفه ولكن هذا الحديث ضرب من المشاعر التى يمكن اخراجها عن دائرة السياسة المألوفة ، والحقيقة التى لا مراء فيها هى أنه يؤكد شعوره القوى بهذه القضايا ــ انه يشعر بالعطف الشديد على شعب فيتنام الذى يعانى ويلات الحرب ــ وشعوره هذا مشاركة نافعة واسهام مجد الى درجة كبيرة ، يذكر الناس فى كل مكان بأن مأساة هذه الصراعات السياسية هى مافيها من آلام للرجال العاديين والنساء العاديات •

ليدى ستوكس : أظن أن ذلك أعظم ما كتب ، وهو يظهر واضحا جدا فى المجلد الاول من **سيرته الذاتية** » • وانى أذكر بصفة خاصة سلسلة من الخطابات كتبها الى صديقة أمريكية له • كانت قد فقدت أعز أصدقائها وألصقهم بها كما كان لها صاحب وزميل عمل • كانت تلك الخطابات تجيش بالفهم وتحفل بالحنان • فهو حقا يحمل

الشعور نفسه الذى تحمله هى • **وأرى أن فى هذه المقدرة يكمن تأثيره العظيم اليوم على الشباب فربما كان بعضهم لا يوافق على الجلوس خارج السفارةالامريكية وعلى الكثير ممايقوله عن سياسة الرؤساء الامريكيين ، ولكنهم يشعرون بالتأكيد ان هنا رجلا عجوزا يقترب نهاية حياته • يعنى عناية فائقة جدا بهم وبالعالم الذى سوف يعيشون فيه ، هذا العالم الذى لن يعمر حتى يراه •**

سانتجونستيفاس: أظن أن ذلكصواب• وأنا يستهوينى هذا التفاؤل الذى لا تخمد جذوته أبدا وهذا ما يراه الشباب أنفسهم • وأيضا اذا ما جاز لى أن أضيف تفسيرا آخر الى ما قد ذكرته ليدى ستوكس الآن ، فانى أظن أن برتراند راسل يستهوى الشباب ويجذبهم نحوه ، لأنه مثل محطم الأصنام وفاضح الأباطيل • والشبان يشبهون من يقذف المعبودات بالأحجار ، وخاصة اذا ما كان قاذفا قديرا يستطيع أن يضفى قدرا من الاحترام على قذفه الاحجار •

هامبشاير : نعم ، ولكن قذف الاحجار وتحطيم المعبودات يخفى وراءه تشاؤما معينا أيضا، وليس تفاؤلا فحسب ، يعطيه عمقا وأصالة يتجاوب معها الناس • ففى اذاعاته تستطيع أن تسمع تحطيمه للمعبودات ليس هو نمط التحطيم الذى يقوم به رجل ذكي ذو آراء نيرة وأفكار متعمقة عن الاحداث الجارية • بل ان الامر على خلاف ذلك : فهناك احساس بأن من الصعب تماما الاحتفاظ بأى شكل من الحياة الانسانية الطيبة المعتدلة وأظن أنه كان دائما يحس بهذا احساسا قويا •

سانت جون ستيفاس : ان العالم سيخسر خسارة فادحة فى المستقبل لو لم ينجب شخصا آخر من طراز راسل • انه راديكالى لحما ودما وهو واحد من أعظم مبررات الراديكالية •

هامبشاير : أظن أن عظمته تكمن فى مقدرته على اظهار مايمكن أن يفعله الانسان : ان نشاطه المدهش الرائع وقوته الفكرية الابتكارية قل أن يوجد لها نظير •

ترجمة : سليم الاسيوطى



دار الكاتب العربي
تساهم فى تطوير ونشر الفن الشعبى
وهذه بعض جهودها فى هذا المجال
الأدب الشعبى
علم الفولكلور
تأليف : كراب
ترجمة
أحمد رشدى صالح
الثمن ١٠٠ قرش
الظاهر بيبرس
فى القصص الشعبى
تأليف
د. عبد الحميد يونس
الثمن : قرشان
الشعر الشعبى العربى
تأليف
د. حسين نصار
الثمن قرشان
الفن الشعبى
عروسة المولد
تأليف
عبد الغنى الشال
الثمن ٦٠ قرشا
الفنون الشعبية
فى النوبة
تأليف
سعد الخادم
الثمن ٥ قروش
الفنون الشعبية
تأليف
أحمد رشدى صالح
الثمن قرشان
خيال الظل
خيال الظل والعرائس
فى العالم
تأليف
مختار السويفى
الثمن ٤٠ قرشا
خيال الظل
تأليف
د. عبد الحميد يونس
الثمن قرشان
خيال الظل
تأليف
ابن دانيال
الثمن ٢٠ قرشا